أدولفو ريفادينيرا

من سيلان إلى دمشق



ترجمة: صالح علماني

البحث عن الشرق





البحث عن الشرق

Author : Adolfo Rivadeneyra
Title : De Celán a Damasco
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2009

اسم المؤلف :أدولفو ريفادينيرا
عنوان الكتاب :من سيلان إلى دمشق
ترجمة :صالح علماني
الناشر :المدى
الطبعة الأولى :٢٠٠٩

Esta obra ha sido publicada con una subvención de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Cultura de España.

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من الإدارة العامة للكتاب ، والأرشيف ، والمكتبات في وزارة الثقافة الإسبانية .

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٢-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

أدولفو ريفادينيرا

من سيلان إلى دمشق

ترجمة صالح علماني



VIAJE

DE CEYLAN Á DAMASCO,

GOLFO PÉRSICO, MESOPOTAMIA,

RUINAS DE BABILONIA, NÍNIVE Y PALMIRA,

[illegible]

POR

D. ADOLFO RIVADENEYRA,

[illegible]



MADRID.

IMPRENTA Y ESTEREOTIPIA DE M. RIVADENEYRA,

calle del Duque de Osuna, núm. 3.

1871.

من بالبارايسو إلى سيلان ودمشق

بابلو مارتين أسويرو
مدير معهد ثربانتس في دمشق

إنه لشرف لي وسعادة كبيرة أن أضع مقدمة لكتاب أدولفو ريفادينيرا *من سيلان إلى دمشق*، بطلب من صالح علماني، المترجم المتخصص بالأدب الإسبانو أميركي، والصديق الكبير لمعهد ثربانتس في دمشق. لاسيما وأنها المرة الأولى التي تُترجم فيها هذه الشهادة القيمة. وهي فوق ذلك ترجمة إلى العربية، إحدى اللغات التي كان ريفادينيرا يتقنها ويحبها، وهو ما يمكن تقديره في التقرير الذي أرسله إلى الملكة إيزابيل الثانية أو في منهاج تعليم اللغة العربية الذي أرسله إلى وزارة الشؤون الخارجية كي يتمكن من دراستها زملاؤه في السلك الدبلوماسي.

في الثالث والعشرين من كانون الأول 1863، أُرسل شاب في الثانية والعشرين من عمره إلى القنصلية الإسبانية في بيروت، المدينة التي وصل إليها بعد شهرين من ذلك. ومن أجل فهم حضور هذا الدبلوماسي الإسباني في الشرق لا بد لنا من الأخذ بالاعتبار السياسة الخارجية الإسبانية في القرن التاسع عشر، وهو قرن شؤم لنا نحن الإسبان، إذ أنه بدأ بغزو قوات نابليون لبلادنا في العام 1808، وهي لحظة ضعف استغلتها المستعمرات الإسبانية في القارة الأمريكية لتستقل عن المتروبول. لقد فقدت إسبانيا إمبراطوريتها في ما وراء البحار، وكان عليها أن تواجه في الوقت نفسه حرباً أهلية بين الليبراليين والمحافظين في العام 1833 بسبب وراثة عرش الملك فرناندو السابع، والتي كسبها أنصار ابنته إيزابيل الثانية، مما عنى كسب التيار الليبرالي في العام 1839. وهكذا حاولت إسبانيا، في كنف أوروبا، التوصل إلى مرتبة قوة عظمى بمشاركتها في حرب القرم (1853 ـ 1855) كمراقب في الائتلاف المؤيد للعثمانيين، أو مشاركة الفرنسيين في الحملة على كونشينشينا في العام 1858 التي انتهت

باحتلال سايغون وسيطرة فرنسا على الهند الصينية بعد عشر سنوات من ذلك. وإذا كانت الحملة قد حققت النجاح بفضل القوات الإسبانية المتمرسة في الفيليبين، إلا أن إسبانيا لم تتمكن من توسيعٍ أراضيها. ومع ذلك، كانت معنويات السياسيين والعسكريين عالية جداً، فأقدموا بعد سنة من ذلك على غزو طنجة وتطوان في المغرب، وتوصلوا بذلك إلى دخول السباق الاستعماري في أفريقيا، القارة التي كانت تتنازعها كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وبلجيكا والبرتغال وإيطاليا.

وبالعودة إلى الإمبراطورية العثمانية، فإن أحداث صيف العام 1860، حيث وقعت فتنة بين مسيحيين ودروز في جبل لبنان، امتدت إلى وادي البقاع، ووصلت إلى دمشق مؤدية إلى أحد أول التدخلات الأوروبية، عندما أرسل نابليون الثالث أسطوله لنشر الأمن في المنطقة، حيال سلبية السلطات العثمانية. وقد أبدى الرأي العام العالمي اهتماماً كبيراً بأعمال الشغب بعد وقوع هجمات على ممثليات أوروبية ومؤسسات دينية. وكانت إحدى تلك المؤسسات دير إسباني للرهبان الفرنسيسكان في دمشق، وقد كان فيه ستة إسبان، وثلاثة لبنانيين، ونمساوي واحد، قُتلوا جميعهم. تابعت الصحافة الإسبانية هذا النزاع، ونشرت في الوقت نفسه عدداً من رسائل عبد القادر الجزائري الذي تحول إلى بطل وحامٍ للمسيحيين في دمشق. وقد خُصص لإسبانيا تعويض يزيد قليلاً على مليوني قرش، أعادت به بناء الدير، وجرى تسلم تلك الأموال من خلال القنصلية الإسبانية في بيروت. وكان أن قررت مدريد في ذلك الوقت فتح قنصلية فرعية في دمشق، موسعة بذلك شبكة الممثليات الإسبانية التي كانت تتمثل بمفوضية أمام الباب العالي وتواجد تمثيلي في بيروت والقدس والقاهرة وأزمير.

هذا هو السياق التاريخي لرحلة أدولفو ريفادينيرا، في إطار المسألة الشرقية، حيث أوقفت أوروبا الليبرالية دعمها للأتراك، مفسحة المجال لاستقلال البلقان بمساعدة روسيا في العام 1878، وانتقال قبرص إلى السيطرة البريطانية، وفقدان المستعمرات في شمالي أفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر، والولايات العربية بعد الحرب العالمية الأولى.

الوجهة الثانية لهذا الدبلوماسي كانت سيلان، الجزيرة التي تتمتع

بشيء من الأهمية للمصالح الإسبانية باعتبارها نقطة عصبية للاتصالات بين أوروبا والشرق الأقصى، وخاصة بعد افتتاح قناة السويس في شهر تشرين الأول 1869. فقد كانت كولومبو إحدى أولى المحطات التي تتوقف فيها السفن الآتية عبر البحر الأحمر وبحر العرب. ومن هناك يمكن الذهاب إلى المواقع الإنكليزية في الهند، وإلى باتافيا، عاصمة أقاليم الهند الهولندية في أندونيسيا؛ ومواصلة الرحلة إلى الهند الصينية، وهونغ كونغ، الموانئ الحرة في الصين، أو التوغل في المحيط الهادي باتجاه الفيليبين أو اليابان أو أستراليا أو أميركا. ويجب ألا ننسى أن إسبانيا كانت لا تزال تحتفظ بأراض مهمة في آسيا الباسفيكية حتى أواخر القرن التاسع عشر، ليس في الفيليبين وحدها التي جرى غزوها في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وإنما كذلك في أرخبيلات أخرى، مثل جزر كارولينا، أو مارياناس، أو بالاو.

ولد أدولفو ريفادينيرا في مدينة بالبارايسو (تشيلي) في العام 1841. وكان أبوه أحد أهم الناشرين في القرن التاسع عشر، ومؤلف *بيبلوغرافيا الكتّاب الإسبان* التي أكملها ابنه، وكان الأب قد انتقل إلى تشيلي لينجز مغامرة نشر في ميدان الصحافة، بمشاركته في تأسيس جريدة *الميركوريو*. والواقع أنه تعرف في تشيلي على زوجته، نيفيس سانتشيث، وهناك ولد ابنه الأول. وبعد سبع سنوات من ذلك عادت الأسرة إلى إسبانيا. تلقى أدولفو دراسته في ألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وإنكلترا، وتعلم خمس لغات حية إضافة إلى اللاتينية. وفي ما بعد تعلم العربية والفارسية. وقد بدأ مسيرته الدبلوماسية بالتوجه إلى شرقي المتوسط في العام 1863 كشاب يعرف لغات، فشغل مناصب في بيروت 1864 ـ 1867، والقدس، وسيلان في 1868، ودمشق 1869 ـ 1870، وبلاد فارس 1874-1875، وموغادور في العام 1878 حيث ظل أقل قليلاً من سنة، ورجع إلى مدريد حيث توفي في شهر شباط 1882، وهو في الأربعين من عمره.

ومثل كثيرين غيره جمع بين تمثيل المصالح الوطنية وتأليف كتب أدب الرحلات. وقد خلّف لنا هذا المؤلف عملين: *رحلة من سيلان إلى دمشق* ورحلة *إلى أعماق فارس*. الكتاب الأول رأى النور في مدريد عام 1871،

وأعيدت طباعته في ثلاث مناسبات. الأولى في سنتياغو دي تشيلي عام 1949، بإشراف رامون ديلا سيرنا لدار النشر كروث دل سور، في مجلدين بعنوان *بريد بغداد. من العراق إلى سورية عبر طريق التجار التقليدي*. والطبعة الثانية مؤرخة في العام 1988 وصادرة عن دار نشر لايرتيس في برشلونة مع مقدمة وضعتها ليلي ليتفاك، وفي العام 2006 في مدريد، عن دار نشر ميراغوانو، تحت إشراف فرناندو إسكريبانو مارتين.

أسلوب ريفادينيرا واضح وبسيط، وهو أسلوب ينأى عن أساليب الرحالة الرومانسيين من أمثال شاتوبريان، ولورد بايرون، ولامارتين، ونيرفال وغوتيه، ممن جعلوا من شرق البحر المتوسط مكاناً خيالياً، حصيلة أحلام يقظتهم أكثر مما هو حصيلة الواقع. ولهذا السبب نجد ريفادينيرا يوضح غايته عند كتابة مذكراته: «إننا قلة قليلة نحن الإسبان الذين نخرج من أوروبا، وكل ما نعرفه عن البلدان البعيدة علينا قراءته في كتب ألفها أجانب، هم فرنسيون في معظم الأحيان، والواقع أن مؤلفاتهم تلك لا تتميز بدقتها، وتعكس بصورة مبالغ فيها شخصية مؤلفيها الانفعالية.»

ولا بد لنا من الأخذ بالاعتبار أنه عندما كتب ريفادينيرا كتبه، كانت الرومانسية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتنتهي إلى إضجار القراء من بحثها عن مشاهد إكزوتيكية، سواء في الجمال أو الحرية؛ طبيعة موحشة، تأملات على الأطلال، مغامرات أو قصص حب مستحيلة. وكان الأدب الواقعي قد بدأ بإحداث فجوة مع كتّاب من أمثال تولستوي في روسيا، وديكنز في إنكلترا، وزولا في فرنسا، وغالدوس في إسبانيا. وكان لا بد من رؤية جديدة تتفق مع الواقع، يترك فيها المؤلف جانباً مشاعره وذاتيته لينقل ما يراه. وهذا هو ما فعله أدولفو ريفادينيرا.

إلى القارئ

فكرة الرحلة من سيلان إلى دمشق عبر الخليج الفارسي وبلاد الرافدين، أدين بها للسيد والدي الذي رغب في القيام بهذه الرحلة، مثل سواها من رحلاته الأخرى التي قام بها بسعادة إلى أماكن مختلفة. وقد كان عليه التخلي عن هذا المشروع المغري، لتعارض اعتلال صحته التام، من كل النواحي، مع المضايقات والمتاعب التي سيتعرض لها. ولأني لم أكن معتل الصحة، فضلاً عن ميلي الطبيعي إلى الترحال، فإنني لم أتردد لحظة واحدة في العمل بتعليمات أبي.

إننا قلة قليلة نحن الإسبان الذين نخرج من أوروبا، وكل ما نعرفه عن البلدان البعيدة علينا قراءته في كتب ألفها أجانب، هم فرنسيون في معظم الأحيان، والواقع أن تلك الكتب لا تتميز بدقتها، وتعكس بصورة مبالغ فيها شخصية مؤلفيها الانفعالية.

لم أحاول تأليف كتاب أهدفُ منه إلى التباهي بسعة العلم والمعرفة، وهو أمر سهل، بعد اطلاعي على كتب عديدة درست، برؤى مختلفة، البلدان التي أصفها. فهدفي هو وصف ما رأيت؛ وقد كنت أكتب في أثناء سيري، وجسدي منهك في معظم الأحيان، وروحي ساهية على الدوام. ولم يُتح لي كذلك القيام بعمل يتطلب تأملات مطولة، بل قدرت أنه من الأفضل أن ألتزم، في هذه الحالة، بالقول العربي المأثور: ***أفضل وصف يُروى هو ذاك الذي يجعل من الأذن عيناً***.

ولأنني لم أستطع المرور بتدمر وأنا في طريقي من حلب إلى

دمشق، فقد قمت بزيارة تلك الحاضرة القديمة في السنة التالية، كي أرد من هناك على رسالة أخبرني فيها معالي السيد إدواردو سافيدرا أنه جرى تعييني عضواً مراسلاً في أكاديمية التاريخ. والرواية التي قدمتها إلى السيد المذكور حول آثار تدمر تلي الرحلة من *سيلان إلى دمشق*، وتشكل جزءاً لا يتجزأ من الرحلة.

ولابد لي من تنبيه القارئ إلى أنني في كتابتي للألفاظ العربية قد اتبعت على الدوام تقريباً الطريقة التي اتخذها دون إيميليو لافويني، بهدف المساهمة في توحيد منهج كتابة المفردات الأجنبية الذي نحن بأمس الحاجة إليه؛ إضافة إلى أنني، وبسبب ابتعادي عن إسبانيا معظم حياتي، لا أمتلك زمام جودة التكلم، وهي صفة ضرورية لكل نوع من الكتّاب؛ ولكنني سعيت بالمقابل إلى إيلاء الحقيقة والدقة الاهتمام الذي يكرسه آخرون للأسلوب واللغة؛ ومع ذلك، فقد تأكد لي مراراً وتكراراً، على الرغم من صعوبة القيام بالرحلة، أن الأصعب هو وصفها.

I

من سيلان إلى بومباي

بومباي 28 أيار 1869

عندما حان الوقت الذي يتوجب عليّ فيه مغادرة جزيرة سيلان البديعة، كي أنتقل للإقامة في دمشق التي لا تقل عنها جمالاً، وتتجاوزها في الشهرة، قررت القيام بالرحلة عبر الخليج الفارسي باتجاه بغداد، والانطلاق من هناك مباشرة إلى عاصمة سورية، إذا ما سمح بذلك هدوء تلك البلاد، أو الالتفاف عبر الموصل وحلب إذا ما كانت الظروف غير مواتية.

وحين تحدثت في الأمر مع أصدقائي، جادل كل منهم بما بدا له: فذكر هذا المخاطر، وتحدث آخر عن تقدم فصل الصيف، وأشار غيره إلى النفقات الباهظة، واتفقوا جميعهم على محاولة ثني عن عزمي، لأن فترة الإبحار تتوافق مع هبوب أقوى *مونزون*، وهي رياح رهيبة على الدوام في هذه الأنحاء، بسبب المآزق الحرجة التي تضع فيها المبحرين. وقد تقبلت بطريقة ما هذه الملاحظة الأخيرة، فبعد أن كنت أنوي السفر أول الأمر في إحدى السفن البخارية التي تتلقى الدعم من الحكومة الإنكليزية، والتي تتوقف في سواحل مالابار، بهدف رؤية بعض المدن ذات الأهمية التاريخية، تخليت عن ذلك مقتنعاً بأنه لن يكون بالإمكان الإبحار في الموعد الذي تحدده الأنظمة، وبالتالي قد لا أتمكن من الوصول في الوقت المناسب للحاق بالسفينة التي ستنقلني من بومباي إلى البصرة؛ وهكذا ابتعتُ تذكرة سفر

على السفينة البخارية ***تشاينا*** من شركة ***شبه الجزيرة الشرقية***، أوصلتني إلى هنا (بومباي) في أربعة أيام. وما عدا ذلك، كانت الإعدادات للرحلة تافهة؛ ففي الرحلة التي نويت القيام بها، كما في أي رحلة أخرى، تسببت لي الأشياء التي بدت ضرورية بالعرقلة، إذا لم أقل بالقلق؛ ولهذا، ومن أجل تجنبها كلها، اكتفيت بكيس ليل، وضعت فيه قميصين من الصوف، وأربعة أزواج جوارب، ومناديل حريرية، ومنشفة، وصابون، وأعمال هيرودوت في مجلد واحد، ودفتر ملاحظات، فيه مقتطفات من كتابات مؤلفين مختلفين حول البلدان التي أنوي المرور بها. وكنت أحمل معطفاً على ذراعي، وأضع على رأسي قبعة **تمسيم** *timsim*، وأضع في جراب، ملتصق بجسدي مئتي جنيه استرليني، لأنها العملة المتداولة في كل مكان، ورسالة توصية بالغة الفعالية.

بتهيئة الأمور على هذا النحو، خرجتُ من «رأس غال» يوم الثامن عشر من الشهر، عند منتصف الليل، وعند فجر يوم الثالث والعشرين وصلتُ إلى بومباي، بأجواء أفضل بكثير مما كنت أتوقعه. وكانت تظهر لعيني على الدوام السواحل الوارفة لبلاد التوابل والشواطئ الخصبة، حيث مازالت أشجار نخيل جوز الهند السامقة توجد بوفرة.

كنا ستة مسافرين فقط على متن السفينة، بيننا ضابط مدفعية، وهو صديق لي، متوجه إلى بونا، وقد أمضينا معاً الأيام الأربعة مثلما هي العادة على السفن الإنكليزية؛ أي في الأكل والشرب سبع مرات في اليوم، بحيث أن العشرين دورو التي تُدفع يومياً مقابل الإبحار في هذه البحار بدت لي ضئيلة جداً.

وكما كنت أقول، لمحنا يوم الأحد صباحاً جزيرة بومباي. وراحت باخرتنا تتقدم بين السفن الكثيرة الراسية في خليج فسيح،

كي تحتل المكان المخصص لمثيلاتها. المشهد الذي امتد أمام ناظري في هذه الفترة القصيرة لا يعطي فكرة كلية عن المدينة، لأنها تقوم على أرض مستوية، وهو وضع غير مناسب على الدوام لإمتاع العينين، كما أنها تختفي من جهة أخرى وراء خضرة كثيفة وقوية. ومع ذلك، فإن مانفكتورات القطن، والأرصفة، والكاراكات، ومحطة الخط الحديدي الذي يحيط بالخليج، والسفن التي يصل عددها أحياناً إلى الألف، تكشف كلها دون عناء عن أن بومباي، أو **خليج بوا**، كما سماها البرتغاليون عندما تلقوها من راجا سورات في العام 1530، هي الآن، وستظل، أحد مراكز التجارة الكبرى في العالم.

ومن أجل تقديم الميناء لا بد من ملاحظة أن هناك إلى شمال شرقي بومباي جزيرة أخرى لها المساحة نفسها؛ أي عشرين ألف كوادرا، وإلى الشمال من الجزيرتين كلتيهما، توجد الجزيرة المسماة *سالسيتا* *Salsetta* أو جزيرة النمور، وهي أكبر مساحة بكثير، وباهرة بمناظر جمالها الطبيعي والاصطناعي، ولكنها تغص بالنحل البري إلى حد يصير من الخطر معه التجوال فيها. هذه الجزر الثلاث، وهي متصلة في ما بينها بكل أنواع الجسور، تشكل مثلثاً متساوي الساقين، يلامس رأسه هندوستان بوساطة السكة الحديد، ويشكل أحد ضلعيه مع تلك القارة الخليج الفسيح الذي لا يمكن أن ينافسه سوى خليجي سيدني وريو دي جانيرو.

الأهمية التي اكتسبتها بومباي في هذه الأزمنة تفوق، دون شك، كل ما حلم به مؤسسوها. مظهرها يشبه مظهر مدينة أوروبية كبيرة، ويسكنها 840,000 نفس، ويصل مجمل تجارتها إلى ثلاثمئة مليون دورو سنوياً. ومثل جميع مدن هذه البلاد، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الذي تطلق عليه عادة تسمية **فورت** *Fort*، وهو

مركز الإدارات والتجارة، وله مظهر مشابه لأفضل أحياء ميلان أو تريست. والجزء المؤلف من متاهة من الشوارع الطويلة، ويضم الغالبية العظمى من السكان، تتراكم فيه بيوت من الخشب، من ثلاثة أو أربعة طوابق أو أكثر، مطلية بالأحمر القاني، والأصفر، والأخضر، ولكنها من الخارج تبدو أقدم مما هي عليه بالفعل، ويظهر في الداخل إهمال قاطنيها الكبير. وهناك أخيراً الجزء الذي يقيم فيه كبار التجار الأغنياء في بيوتهم الفسيحة والجميلة على طراز *البونغالو*، أو أنها بكلمة أدق، قصور؛ فهذا هو في الحقيقة الرخاء الذي تزهو به تلك المساكن المؤلفة عموماً من طابق سفلي، أو من طابقين على الأكثر، وحديقة فسيحة تقوم فيها الإسطبلات والمطابخ. وهناك الكثير من الساحات، وهي ميادين فسيحة تتيح دوران الهواء الطلق؛ ومتنزهات بالغة الأناقة، لاسيما على ضفة البحر، حيث يتوافد، مع انتهاء النهار، ما لا حصر له من العربات الممتلئة بالناس المتلهفين لشم النسيم العليل. وفي كل الأرجاء توجد مصابيح غاز، ومناهل ماء توفر مياهاً عذبة جيدة، جُلبت منذ خمس عشرة سنة من بعض البحيرات الموجودة على شواطئ الأرض القارية، وهو أمر ضروري جداً في الواقع، لبلاد لا يهطل المطر فيها إلا في موسم هبوب رياح *المونزون*، أي في الفترة الممتدة من العاشر من حزيران حتى أواخر أيلول، وحيث الظروف المناخية تضطر السكان إلى الإكثار من الاستحمام وتناول المرطبات.

غير أن ما يمنح هذه المدينة مظهراً غير مألوف هو تنوع الناس فيها، سواء من حيث أجناسهم أو أزيائهم. فالهنود بمختلف طبقاتهم وفئاتهم الذين يُعرفون من لون بشرتهم وطريقتهم في وضع العمائم والقبعات، يشكلون الأغلبية بالطبع، وهم في العموم لا يتكلمون

الهندوستانية، وإنما لهجة متفرعة منها تسمى *الماراتي marâti*. وهناك 115,000 مسلم، و100,000 مجوسي، و11,000 يهودي، و15,000 متحدر من برتغاليين، و3000 إنكليزي، وسكان آخرون، عددهم بين خمسة وستة آلاف نفس، يتألفون من هنود وعرب، وفرس وصينيين، وحتى من الأفارقة.

وحين فكرتُ في ما يُنسب إلى الشرقيين من تهاون وإهمال، لم أستطع إلا أن أفاجأ بالحركة الاستثنائية، وما يشبه الهياج المحموم اللذين يعيش فيهما الناس هنا؛ فأنا لا أخرج إلى الشارع إلا وأحس في كل خطوة بالإعجاب بالنشاط الذي يبديه الجميع في إنجاز أعمالهم. وقد اكتسبوا في الوظائف الجديدة عليهم المهارات التي يمكن أن يتطلع إليها أوروبي. ففي المكاتب والمصارف والبيوتات التجارية الكبرى، يقوم الهنود والمجوس بكل شيء، وهم يمارسون الأعمال كلها مهرولين. ربما يقال إن هذا التقدم يرتبط، إلى حدّ كبير، بانقسام المجتمع إلى فئات، غير أنه لا بد من عزو حصة لا بأس بها إلى الإنكليز الذين بدل أن يعمدوا إلى العنف لتقويض المخاوف التي راح الزمن يبثها، عرفوا كيف يوجهونها لمصلحة النفع العام. كما أن شعور السكان الأصليين، بدورهم، بوطأة الراية الأجنبية أقل بكثير مما يمكن اعتقاده، وأرى أنه إذا لم تعد هندوستان إنكليزية في أحد الأيام، فإن على الأسياد الجدد أن يولوا اهتماماً غير قليل للسكان الأصليين أنفسهم الذين عرف قادتهم كيف يكتسبون مهارات نظام الحكم الحالي بقوة الانتباه، والتشريفات والألقاب التي يقدرونها كثيراً.

غير أن حركة السكان وصخبهم في النهار يظلان قليلين بالمقارنة مع ما يحدث عند الغروب، حين تتوجه أفواج الهنود دون انتظام، وبصخب عظيم، إلى معابدهم الكثيرة. ليس هناك في

العالم مكان فيه عدد أكبر من المباني الدينية، لأن الشائع أنه لا يتوجب السكن في أماكن لا معابد فيها. ولا يمكن إلا لأتباع مذهب براهما الدخول إلى الباغودات، أما إذا أرد أحد الفضوليين رؤيتها، فعليه أن يدفع مبلغاً معيناً من المال لتطهير المعبد بعد خروجه منه، ويكون المبلغ حسب أهمية المكان، ابتداء من ألفي ريال وحتى ثمانية أو عشرة آلاف ريال.

عند مدخل الباغودات الكبرى يوجد فناءان فيهما صفوف أشجار مقدسة؛ ولكن هذين الفناءين لا وجود لهما في الباغودات الصغيرة، وهما يفضيان، عموماً، إلى الخارج. وتغطي واجهة المعبد منحوتات رمزية تمثل بشراً وشياطين وحيوانات مصنوعة من الصلصال، ومطلية بألوان متعددة، في أوضاع شاذة، مضحكة، فظة، وفاحشة. ولا وجود في الداخل لنوافذ، إلا أن هناك قناديل لا حصر لها، هي جزء من تقدمات المؤمنين. وفي كل الجهات تُرى تماثيل آلهة عديدة منحوتة من الحجر أو من الجبس، مزينة بمنسوجات جميلة، وتجلس متقاطعة الساقين، وتغطي رؤوسها قلنسوات مدببة، مما يمنحها هيئة هرمية. وربما كان الهنود يؤمنون بالفكرة نفسها التي كانت سائدة لدى المصريين، في نظرتهم إلى الشكل الهرمي على أنه رمز للخلود، بالرغم من أن الأمر الأكثر منطقية هو في اعتباره رمزاً للحياة، بدايتها تتمثل بالقاعدة، ونهايتها أو الموت، برأس الهرم.

وقد لفت انتباهي أن كهنة الديانة لا يرتدون ثياباً خاصة عند ممارسة طقوسهم، وإنما يلبسون مثل الآخرين.

في ليلة أول أمس، وكنت أجول بفضول في الشوارع، وجدت نفسي أمام باب أحد معابد *فشنو*، ومن السهل التعرف عليه بسبب عدد

الأفاعي الكبير المنحوت على الواجهة. كانت الشوارع ممتلئة بجموع متراصة، إذ تصادف أنهم كانوا يأتون آنذاك بالماء لغسل الأصنام، مثلما هي العادة قبل البدء بتقديم القرابين. وقد أُعد لهذا الغرض موكب كبير: كانت تتقدم المسيرة اثنتا عشرة امرأة، إنهن بغايا ملحقات بالمعبد، ويعرفن لدى العامة باسم الموسسات، أكثر مما يُعرفن بتسميتهن الحقيقية *ديفا ـ داسيس* (جاريات الآلهة)؛ يتبعهن عدد مماثل من الموسيقيين، وبعد ذلك ثلاثة كهنة يحملون الماء على رؤوسهم في جرار من النحاس، وأخيراً سيل من عامة المؤمنين، يدخلون من الباب (وليس هناك سوى باب واحد)، كما لو أنهم ذاهبون لجمع الذهب. وما إن يجتازوا عتبة المعبد، حتى يقوم كل واحد منهم بالسجود ويهتف *أوم!* وهذا لفظ يشيرون به إلى الكائن الأسمى بصفاته المميزة الثلاث، وهو الهتاف الذي يسبق الصلوات والتراتيل الفيدية.

وتقوم *جاريات الآلهة*، ضمن واجباتهن، بالرقص والغناء في المعابد، في الصباح وفي الليل، بعد انتهاء الطقوس الاحتفالية. ويخلف رقصهن الإيمائي كثيراً مما يُرغب فيه من الوقار، لكن غناءهن يتضمن كما يبدو أشعاراً شديدة الفحش. وحين سألتُ كيف يتعلمنها، قيل لي إن أولئك *الحوريات* هن الوحيدات اللاتي يتمتعن بامتياز تعلم القراءة والرقص والغناء، لأن أي شخص محترم يخجل من اكتساب تلك المعارف. ولم تكن الموسيقى في الحقيقة هي أقل ما لفت انتباهي، إذ بدا من المحال أن تتمكن نحنحات أبواق ومزامير وفلوتات وصنوج ـ مع قائد أوركسترا يضرب بقبضتيه على طبل كمن به مس شيطاني ـ من إنتاج إيقاعات إذا لم يكن بالإمكان تسميتها لحناً، فإنها على الأقل سلسلة نغمات يمكن لأقل الناس خبرة أن يكتشف فيها نغمات السلم الموسيقي الثماني، وهو أمر سيشغل كثيراً تفكير غيدو دي أريزو إذا ما

بُعث من قبره. وينتمي كل موسيقي إلى طائفة الحلاقين الوضيعة. ولكل معبد مداخيل ثابتة، ولكنني أظن أن أرصدة أكبر بكثير تجبى من تقديم الآلهة أجوبة، من خلال متنبئين خاصين، يتلقون تقدمات من نساء عاقرات أو متأخرات الإخصاب، وليس هناك من يجهل أن أعظم خزي يمكن أن يحلّ بالأسرة هنا هو عدم أنجاب أبناء.

سأقدم تنويهاً خاصاً بالمجوس، عبدة النار، وهم سلالة بالغة الجمال، لهم لحى كثيفة، وهم شديدو الذكاء، لاسيما في فن جمع الأموال، وهذا هو السبب في تسميتهم يهود الهند. إنهم يتحدرون من أولئك الفرس الذين رفضوا الخضوع لنير عمر، وانسحبوا إلى ضفاف نهر أندس (السند). وبعد قرن من ذلك لحق بهم المسلمون إلى هناك، فعبرو نهر أندس أو ميتا موران، وجاؤوا للجوء والاستقرار بين الهنود المضيافين الذين أطلقوا عليهم منذ ذلك الحين اسم **مجوس**، وهي التسمية التي كانت لهم، ومازالوا يحتفظون بها، في إقليم فارس، وعاصمته شيراز التي أفكر في زيارتها إذا ما أتاح لي الله ذلك.

وهم يتكلمون عموماً *الغوزاراتي guzarati*، بدلاً من الفارسية القديمة، ويحافظون بصورة خاصة على طقوسهم الدينية التي تتمثل في عبادة النار. ومن خلال اتصالهم بالأوروبيين عدّلوا من عاداتهم القديمة؛ ولكنهم هم أنفسهم أكدوا لي أن بعض تلك العادات مازالت تمارس في عدة مقاطعات. وأتذكر منها عادة تمارس خفية عن السلطات الإنكليزية: فللزواج عندهم مكانة بالغة الأهمية، حتى إنهم إذا ما مات شخص بالغ وأعزب (سواء أكان رجلاً أم امرأة)، ينطلق أبواه أو أقرباؤه بالنقود للبحث عمن يتزوج منه على فراش الموت.

توجد في بومباي جامعة يتلقى فيها الشباب التعليم نفسه الذي يقدم في أوروبا. ومكتبة تضم أربعين ألف مجلد، ومتحف يمكن

ملؤه بسهولة. وهناك في المتحف تمثال لمجوسي استحق من المتروبول لقب بارون. وقد كانت لديه كنوز وفيرة، وساهم في تطور المدينة التي ولد فيها، ووزع على الفقراء، في عدة مناسبات، مليوناً ونصف مليون دورو. اسمه شيمستشي شيجيبوي، ويحتل الموقع الثالث في قائمة أغنى أغنياء العالم التي رأيتها قبل قليل في جريدة في سيلان؛ وأتذكر أن الأول أمريكي والثاني ياباني، بينما لم يستحق روتشيلد إلا الموقع الثالث عشر.

وهناك أيضاً مرصد، وحديقة نباتات بديعة توليها الحكومة أهمية خاصة، وجمعيات أدبية وطبية، إضافة إلى الجمعيتين **الآسيوية والجغرافية** ذائعتي الصيت. وتوجد للبروتستانت إرساليات متعددة، كما أن لليسوعيين إرسالياتهم. وتوجد مستشفيات للأوروبيين، وللهنود، مثلما توجد مستشفيات أخرى للوطنيين، ولحيوانات مختلفة، باستثناء الكلاب، وهي خصوصيات تُفسَّر من خلال مخاوف هذا الشعب الدينية. وقد فوجئت بأنه لا وجود في مدينة مثل هذه لمسرح واحد مفتوح بصورة دائمة؛ غير أن هناك بالمقابل عدة *أندية*. وأحد تلك الأندية ـ ***نادي بيكولا*** ـ، يمكن أن يُصنف بأبهته بين أهم أندية لندن.

وبومباي من الوجهة التجارية ليست مركز التصدير في الهند وحسب، حيث يمثل القطن 15 مليون جنيه استرليني في السنة، وإنما هي كذلك مركز تصدير منتجات أفغانستان وبلوشستان اللتين ترسلان إليها إنتاجهما من الصوف، وحتى زنجبار التي ترسل العاج. وفي ما بعد، عندما تُشق قناة السويس، ستزداد أهمية بومباي، وسيكون التبادل أكبر، ويمكن لأسعار منتجات كثيرة أن تنخفض. فالتاجر الذي يبعث العاج من زنجبار، مثلاً، يتوجب عليه أن ينتظر خمسة أو ستة أو سبعة شهور، حتى يحصل على فرصة إرسال طن أو

عدة أطنان إلى هنا. إن رأس المال الذي وظفه في شراء أنياب الفيلة، يضاف إليه بالطبع الفوائد المترتبة على رأس المال المستثمر خلال تلك الفترة، يجعل ثمن طن العاج في بومباي اليوم 800 جنيه؛ ولكن الثمن سيصبح في المستقبل 800 جنيه يُحسم منها 10 بالمئة فوائد عدة شهور على المبلغ الأولي الموظف، كما سيحسم التخفيض الذي سيطرأ على أجور الشحن. ويمكن للبضاعة التي اتخذتها كمثال أن تنخفض أكثر أيضاً، إذا ما أقدمت مصر على تصدير كميات العاج الهائلة التي عُثر عليها مؤخراً في النوبة، حيث كان الوطنيون في القديم يسورون بيوتهم بأنياب الفيلة.

وفضلاً عن البضائع التي ذكرناها، يجري كذلك تصدير النيلة التي توجد لها مصانع كبيرة، وملح البارود والبن والمطاط والرز والفلفل وخشب الصندل، والكثير من مواد البناء والسجاد وشالات الكشمير، وغيرها. غير أن المادة الأكثر أهمية بالنسبة للحكومة البريطانية هي الأفيون، وقد احتكرت تجارته شركة الهند، ومازالت تحتكره الدولة، ويُوفر لها سنوياً من أربعين إلى خمسين مليون دورو. وقد بدأ هذا المبلغ الضخم ينخفض منذ سنوات، وهو ما أثار في البرلمان البريطاني أكثر من استجواب ضد الحكومة. ولن أتوقف للتدقيق في الضرر الذي تسببه في الصين عصارة هذا المخدر، وهو هنا، بالمناسبة، قليل الاستخدام، ويجب ألا أهب لدعم أباطرة مملكة السماء الصينيين الذين حاولوا دون جدوى حظر استيراد تلك المادة المشؤومة التي تسبب عندهم ما لا حصر له من الكوارث، وهي أبعد ما يكون عن تهدئة هموم البشر، مثلما يزعم البعض.

لا يُرى في خليج بومباي سوى العلم الإنكليزي، بالرغم من أن هذا العلم لم يعد يتمتع بأي امتياز، إذ لا يتجاوز العشرين، طوال

السنة، عدد السفينة من مختلف الجنسيات التي تأتي لتحميل البضائع؛ بل أكثر من ذلك، فمصرف دسكونت دو باريس في هذه المدينة، ينجز صفقات بقيمة 40 مليون فرنك مع لندن، ولا تتجاوز أعماله مع باريس الخمسة ملايين.

«غوا» هي المدينة الوحيدة التي يمكن لها أن تشاطر هذه الحاضرة ازدهارها إذا ما تحولت إلى ميناء حر؛ ولكن امتناع البرتغاليين عن عمل ذلك يعني أن لديهم أسبابهم الخاصة.

الحياة المادية ليست غالية بالمقارنة مع الحياة في أماكن أخرى من الشرق الأقصى، فسعر 12 أونصة من لحم البقر ريالان ونصف، ومقدار مماثل من لحم الغنم يباع بثلاثة إلى أربعة ريالات، والخبز بأربعة وعشرين كوارتو، والفروج بثمانية ريالات، وحليب الجاموس (لا وجود لحليب آخر) بأربعة وعشرين للكوارتيّو (نصف اللتر). أما الأنبذة بالمقابل فسعرها ضعف ما هي عليه في أوروبا. ولا بد هنا من امتلاك عربة، وعدد كبير من الخدم، فضلاً عن أن إيجار المساكن مرتفع بصورة بالغة. فمنزل متواضع من طراز البونغالو، مؤلف من أربع أو خمس غرف، يكلف ألف دورو سنوياً، ومنها ما يصل إيجاره إلى ثلاثة أو أربعة آلاف. وهذه الأسعار نشأت عن القيمة التي اكتسبتها العقارات في حمى المضاربات، والتي تسببت بها الحرب الأهلية في الولايات المتحدة. ولكن أسعار الأراضي انخفضت منذ ذلك الحين، وإن كانت لا تزال هناك أراض تباع بسعر سبعة دورو للقدم المربع؛ أما الإيجارات فظلت على حالها السابقة. ومع ذلك، فإن الفنادق أرخص مما هي عليه في أي مكان آخر؛ ففي الفندق الأول، وهو فندق بيكولا، أدفع مقابل الغرفة والطعام 35 ريالاً في اليوم، مقابل 100 ريال لفندق مماثل في سيلان.

يوجد لكل من فرنسا والنمسا والاتحاد الجيرماني، والبرتغال وتركيا، والسويد وفارس، وسيد مسقط تمثيل بقنصل أو نائب قنصل.

على بُعد سبعة كيلومترات من بومباي، هناك جزيرة صغيرة تسمى عادة جزيرة الفيل، ولكن اسمها الحقيقي *غارابوري*، أو موقع الحفر. وكحفر، يصعب العثور على ما هو أكثر أهمية منها. فما يُرى هناك يستحق اهتماماً كبيراً على الدوام.

عند وصولي حدثوني عن جزيرة الفيل على أنها مكان فيه معبد هندي قديم، ولكنه مهجور لأنه موقع غير صحي. وقال لي أولئك الأشخاص أنهم لم يزوروه، لأنه ليس هناك أفضل من الإقامة في بلد دون التعرف عليه. ولحسن الحظ أنني التقيت في الفندق بمن زار تلك الكهوف قبل خمسة عشر عاماً، وقد أعجب بالمكان إلى حد أنه كان راغباً في العودة لرؤيته، وألح عليّ أن أذهب أيضاً لزيارته.

وبالفعل انتهزنا يوم أمس، الساعة الخامسة فجراً، فرصة ارتفاع المد؛ وفي الساعة السابعة نزلنا في الجزيرة. صعدنا بعد ذلك مدرجاً يتحول بين مقطع وآخر إلى مسطحات تمتد عشرين خطوة، ووصلنا إلى مدخل كهف عظيم. الصخرة المغطاة بالأعشاب تفضي، من جهة الشمال، إلى ردهة من أربعين خطوة مربعة، وستة أمتار ارتفاعاً، ومازالت محمولة على ثمانية أعمدة بديعة، من أصل اثني عشر عموداً كانت في السابق. وفي منتصف كل جانب من الجانبين الشرقي والغربي، هناك ما يشبه الباب، هي فتحة كبيرة تفضي إلى فناء من خمس وثلاثين خطوة مربعة، ومنها يتلقى النور ذلك المكان الذي كان للتعبد. ولكي أقدم، بكلمات قليلة، فكرة إجمالية، سأقف في منتصف المدخل الرئيسي. ومنه يُرى أولاً، (قبالتنا) *ثالوث* الهنود، أي ثلاثة وجوه متقابلة، تمثل *براهما* و*فشنو* و*شيفا*، وهي قوى الخلق،

والحماية، والدمار. وأبعاد هذه الكتلة خمسة أمتار ارتفاعاً وثلاثة عرضاً. وفرة نحت حجري وزخارف تزين التماثيل الثلاثة وقلنسواتها المخروطية المشغولة في الحجر بصبر وبراعة مذهلين. ثانياً، (إلى يميننا) مصلى صغير يُعبد فيه الحجر المخروطي المسمى *لنجا*، وهو يمثل *شيفا* في أحد تحولاته الأولى. وفي القسم الخارجي يُرى نحت لعدة مجموعات ميثولوجية: رجال يتوعدون، وشياطين وثعابين، وغيرها. ثالثاً، (إلى اليسار) مجموعة من ستة تماثيل، في نحت نصف بارز، وبحجم أكبر من الطبيعي، يعتقد أنها تمثل رابانا، ملك سيلان، يدافع عن نفسه من غضب راما.

هناك أيضاً منحوتات أخرى كثيرة، ليس في المقصورة الكبرى وحسب وإنما كذلك في محيط الفناءين؛ غير أن كل ما قيل بشأن ما تمثله لا يستند إلى أي أساس، لأن أتباع براهما أنفسهم لم يتمكنوا من تقديم أي معلومات توجه أبحاث أشد الضالعين في هذا النوع من الدراسات.

ولكن ما سيشكل المفاجأة، وسيبدو فريداً دون شك، هو أن كل تلك النصب، أو ذلك النصب بكلمة أدق، منحوت بكامله في صخرة ضخمة واحدة، وهو يشكل بالتالي أحد أكثر المنحوتات أحادية الصخرة التي يمكن تخيلها استثنائية، بكونه أعجوبة هندسية مجوفة. بل أكثر من ذلك: كل ما نُحت وحفر في تلك الصخرة، لا يكشف ما يمكن أن يظنه المرء ضرباً من الفن في طفولته. فمذهلة هي ثقة الأيدي التي عملت فيه، ومذهل الذوق والأناقة اللذان تتوزع بهما مئات التماثيل في أوضاع مختلفة، وباختصار، مذهلة دقة الرسم والتصوير والتنفيذ.

يبلغ ارتفاع الأعمدة خمسة أمتار ونصف المتر، ومحيطها عند

القاعدة متر ونصف؛ ويمكن تقدير أن بنيتها الخاصة تتألف من ثلاثة أقسام: أولاً تاج العمود، وفيه شيء من الطراز التوسكاني، وهو مخدد بمنتهى الإتقان. ثانيا، جسم العمود بقنواته ونتوءاته المشطوفة؛ ثالثاً، القاعدة، وهي قاعدة عادية متوازية السطوح، وبارتفاع مترين.

هذا المعبد محفوظ في حالة جيدة جداً. لقد انهارت بعض الأعمدة، ولحق الضرر، هنا وهناك، ببعض التماثيل أو امحت جزئياً معالم بعض المنحوتات، ولكن المعبد بمجمله يقدم كلاً رائعاً. ومع أن قلة من الناس يزورونه اليوم، إلا أن أحد الهنود الذين رافقوني اقترب من *الثالوث*، ومارس ثلاث مرات السجدة المتمثلة في لمس الأرض بالكفين، والركبتين، والبطن، والصدر، والجبهة، والذراعين.

يعتقد البعض أن الهنود عندما نحتوا هذه الصخرة، كانوا يهدفون إلى الاقتصاد في المال والعمل، مضيفين أنهم لو شيدوا المعبد الذي وصفته بالوسائل العادية، لكانت الكلفة والجهد مضاعفين. ولكن، أين تكمن الجدارة الأكبر؟ وأين هي المصاعب الأكبر؟

بعد رؤية معبد *غارابوري*، ومعرفة أنه قديم، وتقدير عبقرية فنانيه، يرغب المرء بصورة لا إرادية في معرفة العصر الذي أنشئ فيه. ولكنْ، حول هذا الأمر لا تتفق أيٌ من المؤلفات التي نُشرت حتى اليوم، والتي تصفحتها في المكتبة. فالمغارة المذكورة، حسب رأي السيد إرسكين، موجودة منذ 2500 سنة، وحسب القس ستيفنسون، منذ تسعة قرون فقط. ومن جهتي، أرى أن هذا الشك نفسه هو أحد الظروف التي أسهمت أكثر من غيرها في افتتاني وتقديري: فمعرفة أصل الأشياء يحث على الدوام فضولنا بصورة لطيفة؛ ولكننا عند اكتشافه، يقلل إشباع شغفنا من تقديرنا له.

II

من بومباي إلى البصرة

البصرة، 13 حزيران 1869

كانت الرحلة من بومباي إلى هنا، عبر الخليج الفارسي، أقل قليلاً من مستحيلة إلى ما قبل نحو أربع سنوات، أو كان لا بد من الإذعان للانتظار شهوراً حتى خروج سفينة تجارية، أو البحث عن وسائل تسمح للمرء أن يُقبَل على متن طراد إنكليزي يتولى، على ما يقال، مكافحة تجارة الرقيق على شواطئ جزيرة العرب. غير أن شركة *برتش إنديا* نفسها، وهي تخدم الموانئ التي منحتها اسمها، قد أقرت اليوم خدمة نقل كل خمسة عشر يوماً بين بومباي والبصرة والموانئ الوسيطة بينهما. وفي إحدى سفنها البخارية خرجتُ من تلك المدينة في التاسع والعشرين من الشهر الماضي. الباخرة تدعى *الحبشية*، وتزن 1500 طن، جيدة البناء والغاطس، ولكنها تفتقر إلى طبيب، مثلما هي جميع سفن الشركة المذكورة؛ وهو أمر ما كان لي أن ألحظه لو لم يوشك أحد المسافرين على الموت بالحمى التيفية خلال الرحلة من مسقط إلى بندر عباس.

شعرت بتأثر شديد عند مغادرتي بومباي، بعد ستة أيام من وصولي إليها، لأنه لم يُتح لي خلال هذا الوقت القصير الاستفادة من تسهيلات الاتصالات التي كان يمكن لها أن تسمح لي بالتعرف على أماكن عديدة من القارة الهندية، بل إنني لم أستطع التمتع بالهدايا التي قدمها إليّ أشخاص كثيرون رحت أتعرف إليهم على التوالي.

كنا في الدرجة الأولى خمسة مسافرين عند بدء الرحلة: ضابطان

إنكليزيان منقولان من برمانيا إلى كوراشي (كراتشي الحالية)، ومندوب لسيد مسقط الأخير، وعقيد تركي آت من القسطنطينية إلى بغداد ليشغل منصب مدير الأشغال العامة. وكان يسافر في الدرجة الثانية عدد كبير من الهنود، وعدد غير قليل من المسلمين.

كانت محطتنا الأولى في كوراشي، عاصمة السند، وآخر المواقع الإنكليزية في الجانب الغربي، حيث نزلنا في صباح يوم الثلاثاء، الأول من الشهر الجاري. وتوجهت على الفور إلى محطة السكة الحديد لأستعلم إذا ما كان بإمكاني الذهاب إلى حيدر أباد، وهي مدينة مشهورة جداً بالمنسوجات التي تُصنع فيها؛ غير أنه لم يكن هناك سوى قطار وحيد يخرج بعد الظهر، والأمر نفسه يحدث في حيدر أباد، مما اضطرني إلى التخلي عن الفكرة، كي أتمكن من مواصلة رحلتي في الباخرة في اليوم التالي، الساعة الثانية بعد الظهر. استسلمتُ للأمر الواقع، وقررت التجوال في كوراشي. إنها تقوم في سهل فسيح، في أقصى رصيف حاجز للأمواج طوله أربعة كيلومترات. بيوتها المبنية من الحجر، تمتد بفواصل كبيرة في ما بينها على مساحة واسعة جداً. وفي الغرب تظهر في البعيد سلسلة جبال هالا التي تفصل بلوشستان عن الأراضي الإنكليزية. وفي الشمال شريط من الخضرة، وإلى الشرق أراض ضاربة إلى السواد، يغمرها البحر كل يوم. ولا ريب أن الإنكليز عندما سيطروا على هذا الميناء، منذ ثلاثين سنة، رأوا أن كورشي ستحرز مع الزمن أهمية بالغة، وهكذا شيدوا بكل تأكيد الكثير من طرق المواصلات الجيدة، وخططوا المدينة بطريقة يمكن لها معها أن تتخذ أبعاداً كبيرة، وتركوا للزمن أن يأخذ بملء الفراغات الكثيرة، وهو ما يحدث بالفعل، إذ صار عدد سكانها 70,000 نسمة (بين سند وهنود وفرس وغيرهم)، بعد أن كان 26,000.

وتُطبع فيها ثلاث صحف، بالإنكليزية والفارسية والهندوستانية، وهو ما يُظهر حيويتها وحركتها.

وقد انتهى مدّ بضعة كيلومترات من سكة الحديد لجهة بيشاور، وهو موقع متقدم للإنكليز في آسيا الوسطى، وستتصل كوراشي من خلاله بكلكتا. وإذا ما أمكن وصل البحر المتوسط يوماً بالخليج الفارسي، فسيكون بإمكان المدينة أن تنافس بومباي نفسها التي يصل إليها اليوم الصوف ومواد أولية للصناعة تأتي من المناطق الداخلية.

وشاءت المصادفة أن أتعرف في كوراشي على شمس الدين، ملك كابل وشقيق شير علي خان، ملك أفغانستان. وقد منحه الإنكليز تلك المدينة نتيجة الضغوط، كيلا يعود إلى زعزعة الأمن في مملكة أخيه. وهم يدفعون له كافة النفقات التي يتطلبها الإنفاق على بيته، وخصصوا له فوق ذلك معاشاً قدره عشرة جنيهات إسترلينية يومياً؛ ولكن هذه التضحيات لن تدوم طويلاً: فشمس الدين صار في سن لا يمكن له معها الصمود طويلاً في مواجهة الأمراض التي يعاني منها.

ذهبنا من كوراشي إلى غوادار، خلال عشرين ساعة، متبعين على ساحل بلوشستان طريق الهزيمة الشهير نفسه الذي اجتازه نياركو حين قام منذ أكثر من ألفي سنة بهذه الرحلة في مئة وخمسة وأربعين يوماً، وترك عنها رواية مشوقة، ظلت تُقرأ طوال خمسة قرون وتشكل مرجعاً وحيداً لكتّاب العصور القديمة.

من المستحيل تصور مشهد أشد عراء من شواطئ بلوشستان الجبلية، فالعيون تحزن وهي تتأمل تلك الذرى البركانية الكئيبة، حيث شح الخضرة كبير، حتى إنه يشار بالإصبع إلى شجيرة في رأس نو، عند خليج غوادار. هذه المدينة، أو القرية بكلمة أصح، كانت تتبع في ما مضى لسيد مسقط؛ ويقتصر سكانها على

القنصلية الإنكليزية، ومحطة تلغراف للكبل البحري الذي يربط كوراشي بالفاو، وبعض الأكواخ البائسة المحاطة برمال متحركة.

ومن غوادار نزلنا مرة أخرى إلى المنطقة المدارية، وبكثير من تأرجح السفينة وصلنا بعد ثلاث وثلاثين ساعة إلى شواطئ عُمان، وهو اسم مشتق من جذر عربي يعني *البقاء في مكان*، إلا إذا كانت عمان في أزمنة السبئيين هي تسمية الألوهة التي كانت تطلق على الشمس عند الفرس، وأنا أميل إلى هذا الاعتقاد نظراً للموقع الجغرافي التي تحتله هذه البلاد.

أشرق علينا اليوم الخامس من الشهر ونحن نرسو في جُون محمي بمرتفعات سوداء وصخور غرانيتية. وكان يظهر على الشاطئ صف من حوالي عشرين بيتاً، جدرانها البيضاء تشكل ضداً فريداً لمشهد ذلك الساحل الوعر الذي لا يقل اكفهراراً عن ساحل بلوشستان. إنها واجهة مسقط، المدينة التي يرتع فيها اليوم الأسى والخراب. وبين مسافة وأخرى تنتصب على ذرى الجبال بعض الأبراج التي كانت تستخدم من قبل لحراسة المدينة، وهي اليوم أقفاص سجناء؛ وفوق أكبرها ترفرف راية اليمن القديمة.

لقد صارت معروفة الأحداث الأخيرة في هذه البلاد. فمنذ ثلاث سنوات، مات سيد مسقط، المدعو تويني Tuveiny، وحلّ محله ابنه سليم. وقد أُطيح بهذا الأخير أيضاً على يد أخيه محمد تركي. وأخيراً، منذ حوالي ستة شهور، استولى عليها زعيم الوهابيين المدعو فيصل، وهو ذاك الذي حاول بعناد كبير مقاومة محمد علي الكبير. ومنذ ذلك الحين انخفض عدد السكان إلى خمسة آلاف نفس، بعد أن كان فيها أربعون ألفاً من قبل. ويمضي البدو الوهابيون في كل الأنحاء مسلحين ببنادق طويلة وخناجر، ويمارسون رقابة صارمة على السكان

المرعوبين، يتجسسون على أحاديثهم، ويمنعونهم من الصلاة على طريقتهم، ومن لبس الحرير والذهب، وإشعال النور بعد صلاة *العشا*، و«العشا» هي التسمية التي يطلقها العرب على الليل. كما يمنع الوهابيون السكان من أن يحلفوا بأي اسم سوى اسم الله، ويشددون بصورة خاصة على منع التدخين أو *شرب المنكر*، على حدّ قولهم؛ وهما أمران يحرمهما بصرامة أتباع ذلك المذهب المتشدد المسمى مذهب *القرآنيين الأبرار* أو *المصلحين*. ولأنه يبدو من المناسب تقديم بحث موجز عن مذهبهم، فسوف أستنسخ ملاحظة مأخوذة من أعمال الدارس النزيه بولغراف الذي جاب منطقة نجد قبل سبع سنوات.

بين المذاهب الكثيرة التي ظهرت في جزيرة العرب، كان المذهب الوهابي، دون شك، هو الذي يوشك على فرض نفسه منتصراً على جميع الاتجاهات الأخرى. ففي منتصف القرن الماضي، ولد في نجد محمد بن عبد الوهاب (ومعظم الأسماء عند العرب هي من الألقاب التي يشار بها إلى الله). وبعد أن وضع خلال وجوده في دمشق تصوره لإصلاح الديانة المحمدية، وصاغ خطته ببعد نظر، وبالاستناد إلى تراث رجال عظماء، رجع إلى بلاده والقرآن في يده، وضبط سلوكه وفق مخططاته الجريئة، وأكد أمام الملأ أن العرب راحوا يحرفون أكثر فأكثر تعاليم راعي مكة: جادل، وألح، وحاول بكل تأكيد فصل رعيته عن الأفكار القديمة بحواجز شاهقة. وبالاعتماد على عدد من الأتباع المخلصين، وعلى القوة والعنف، اقتحموا بعد ذلك كل الأماكن، بما في ذلك أكثرها تمنعاً ومقاومة.

في العام 1806، بسط ابنه عبد العزيز مع قواته سيطرته على أراضي عمانيي مسقط، بل إن نفوذه وصل حتى سواحل لاريستان؛ ولكن تلك الجرأة أودت به إلى الموت، إذ جاء من هناك فارسي بمهمة

محددة هي قتله. وقد أنجز مهمته بجسارة في وسط المسجد، على مرأى من الجميع، وكان الحديث يدور عن القاتل لوقت طويل باعتباره بطلاً. غير أن القاتل حوّل ضحيته إلى شهيد، وأتاح إطلاق اليد لطموحات ونوايا أخيه عبد الله الذي تمكن خلال شهور قليلة من فرض حصار على مدينة مكة، وجرى تدنيس مقدساتها ومدافنها، وهو ما يتحدث عنه مواطننا المشهور د. دومينغو باديّا (الملقب علي بك العباسي)، وكان آنذاك في عاصمة الحجاز. وبينما ذلك يحدث في أحد أطراف جزيرة العرب، كان قادة قوات عبد الله يطلون على حدود سورية.

لقد بلغت سلطة الوهابيين تلك الحدود بما يشبه السحر! ولكنها هوجمت بعد ذلك من قبل المصري محمد علي، وقُوضت وتراجعت عن الأراضي يوماً فيوماً، إلى أن اختفت من نجد نفسها التي كانت مهدها. وقد استعاد تركي بن عبد الله السيطرة على مناطق أجداده في حوالي العام 1822، ومنذ ذلك التاريخ وقعت بين الوهابيين والعمانيين مناوشات قليلة غير جديرة بالذكر. أما في هذه الأوقات، وكان الأولون قد صاروا أقوياء بسبب ضعف الدول الشرقية، فراحوا يقترفون في أنحاء مسقط فظائع أميل معها إلى الاعتقاد بأن الإنسان يصير مخيفاً أكثر كلما ازداد قرباً من الحالة التي يطلق عليها البعض، بالمقارنة مع حالنا، حالة البراءة. وسأورد في ما يلي مثلاً على ذلك.

يبدو أنه كان هناك بين الأشخاص الأكثر ولاء للنظام السابق رجلٌ يرغب البدوي الدخيل في كسبه إلى جانبه دون أن يتمكن من تحقيق ذلك. وحين هرب ذلك الرجل إلى بومباي، تظاهر محمد تركي بالميل إلى المصالحة، ودعاه لتناول الطعام، وفي لحظة لا تخطر على البال، أمر بإلقاء القبض عليه وتقييده إلى صخرة تنتصب كجزيرة قبالة المدينة. وهم يقدمون إليه هناك القليل من الطعام مرتين في اليوم، دون أن

يفكوا قيوده. وإذا ما مرت سفينة، يغطونه بحصير لإخفاء بؤس حالته عن الغرباء، ولكن ذلك لا يحول دون سماع تأوهاته اليائسة.

يمثل إنكلترا في مسقط وزير مقيم، ولها في ذلك الميناء سفينتان حربيتان، مهمتهما منع أي تدخل مسلح، من جهة البحر، في الأمور التي تحدث اليوم بين العمانيين والوهابيين.

رفيقي في الرحلة، العقيد التركي، كان قد تعرف قبل سنوات على الوزير المذكور، فأخذني إلى بيته. وهناك اصطدمنا بفصيلة من خمسة وعشرين رجلاً، وضعها الحاكم الوهابي تحت تصرف سعادته من أجل أمنه الشخصي، وبعد نصف ساعة من الانتظار، لأنه يوم البريد دون شك، جرى استقبالي أنا والكولونيل.

كان الموظف الإنكليزي متحفظاً معنا إلى أقصى الحدود. قدم لنا شراباً بارداً، وهو أمر ضروري جداً في ذلك المناخ، وبسبب بعض التوابل التي راح يضفيها على قضية الوهابيين، أيقنت أنه، مثل موظفين آخرين كثيرين، مقتنع بأن منصبه هو أهم شيء في الدنيا. هنأته على وطنيته بقبوله تلك المهمة الموكلة إليه في ذلك السجن، لأن مسقط ليست شيئاً آخر بالنسبة إلى ذلك الرجل، سواء من الناحية المادية أو المعنوية، وعرضت عليه خدماتي في دمشق، وودعناه. ولدى الخروج من بيته من جهة البحر، كان علينا أن ننزل سلماً يمكن رفعه، لا شك أن الهدف منه تقليص إمكانات الهجوم على المفوضية.

مكثت في مسقط يوماً ونصف يوم، وجلت في محيطها، مسرح أعمال عنف جائرة وبؤس أكثر من كامل، حيث تقتصر الخضرة على بعض اللفت، والنخيل، وقصب السكر. وكنت أجول كذلك في شوارعها الضيقة لأرى دكاكين بائسة، يملكها جميعها تقريباً هنود، وفرس، ويهود؛ ولكن لا وجود فيها لشيء يدفع الفضول لشرائه. وكنت

أتمشى على الشاطئ وأتسلى برؤية المسقطيين يأكلون نوعاً من أسماك الأنشوا، يسمى *نيتو*، على طريقة آكلي السمك القدماء؛ إذ يضعون السمك على حجر ليجف تحت الشمس، ثم يملحونه ويأكلونه. وكنت أدخل إلى أحد المقاهي، دون أي هدف آخر سوى الفضول وتبادل الحديث مع الوطنيين؛ ولكنهم ما إن يرونني أدخل حتى يصمت الجميع ويخبئون غلاينهم، خوفاً من أن أكون جاسوساً. وبعد أن أحييهم ويشعرون نحوي بالثقة التامة، يبدؤون بإخباري بقائمة أحزانهم ونكباتهم الطويلة. ويقولون بين ما يقولونه إنه يمكن لأي قوة عظمى تود مساعدتهم أن تعتمد على دعم جميع العمانيين لطرد الطغاة الوهابيين المتسلطين عليهم. وهم غير مخطئين في الواقع، فالوهابية توجه ضربات رهيبة إلى الانسجام الاجتماعي، ولا بد أن تقوضه في وقت قصير.

فإذا ما أطل خلال الحديث أحد البدو الدخلاء، يصمت الجميع، ولا يحركون شفاههم إلا للنطق بشهادة التوحيد القصوى والمطلقة بامتياز: «لا إله إلا الله»؛ ولكنهم يحرصون على الصمت عن الجزء الثاني: «ومحمد رسول الله». وكان أكثر ما لفت انتباهي بين أولئك الناس هو سلامة لغتهم ودقتها في الحديث؛ وقد سمعت منهم بعض المفردات والعبارات التي تعود إلى العصر الذهبي للغة العربية، فكانت بالنسبة إلي مفاجأة لطيفة أخرى: فما يحدث لمحب اللغات مشابه لما يحدث لعالم النبات؛ يبتهج عندما يسمع على ألسنة العامة كلمات شبه منسية، بالطريقة نفسها التي يمكن أن يكون لنبتة أو زهرة، في بعض الأمكنة، امتياز استثارة تقدير رجل العلم وسعادته.

قبطان السفينة *الحبشية*، وبذريعة أنه سينطلق قبل الفجر، جعلنا ننام في السفينة في خليج مسقط، حيث ظن كل واحد منا للحظات أنه مريض: فقد شعرنا بالاختناق بسبب ريح جنوبية بالغة الحرارة، تحول

إلى جمر كل الأشياء المحيطة بنا. وكان ميزان الحرارة يشير إلى خمس وأربعين درجة مئوية، ولا بد من الإشارة إلى أن مفعول الحر لا يتكشف بمدى ارتفاع ميزان الحرارة، وإنما بطبيعته الجافة إلى هذا الحد أو ذاك. غير أن القبطان بدّل رأيه عند منتصف الليل، ووافق على البقاء حتى الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم التالي. وهذا الذي حدث في مسقط، حدث كذلك في كل الأمكنة؛ ولهذا ليس من المستغرب التأخر خمسة عشر يوماً في اجتياز مسافة 1800 ميل التي تفصل بين بومباي والبصرة.

وأخيراً انقضت ليلة الاضطراب الاستثنائي تلك. وفي يوم الأحد، رجعت منذ الصباح الباكر إلى اليابسة ومكثت حتى منتصف النهار، وهو الموعد الذي سننطلق فيه من مسقط باتجاه بندر عباس التي تبعد مسافة 260 ميلاً. ولأنني لم أر عندما أردت العودة إلى السفينة أي قارب من قوارب *الحبشية*، فقد أذعنت لاختيار أحد زوارق البلاد، وهي مصنوعة من جذع شجرة وحيد، ولها قيدومان، ولكنها تفتقر إلى الميزات التي توفرها زوارق سيلان؛ ففي هذه الأخيرة عارضة كبيرة موازية للمحور الأكبر، تستند إلى قطعتي خشب محدبتين، وطولها متران، وهو ما يوفر للزورق توازناً ثابتاً.

وبالانعطاف وراء المرتفعات التي تحدد خليج مسقط، لمحنا إلى الشمال ميناء مطرح. وهي مدينة أجمل بكثير ومأهولة أكثر من تلك، حيث يتركز غير قليل من الأشياء التي تؤلف صناعة البلاد، وخاصة الأسلحة، وخناجر ذات أغماد فضية، وسجاجيد، وقبل ذلك كله التمور، وهي تشكل تجارة الوطنيين الكبرى، أو بعبارة أدق كانت تشكل تجارتهم الكبرى، لأن الوهابيين الصارمين في تطبيق تعاليمهم الدينية، مثل: «*من يركب البحر مرتين يكفر*»، أصابوا تجارة العمانيين بجرح قاتل وألحقوا بها الخراب.

يوم الاثنين، السابع من الشهر، في الصباح الباكر، كنا عند مستوى رأس مسندم (أي رأس السندان) وقد سمي بهذا الاسم بسبب عنف ارتطام الأمواج المزبدة به عندما يهيج البحر قليلاً. لكنه بدا في تلك اللحظة، لحسن حظنا، أشبه ببقعة زيت، كما يقال عادة، فأبحرنا بمحاذاته دون خوف. وهناك رأينا أيضاً صخوراً بازلتية تطل رؤوسها الرهيبة والحادة مرتفعة حوالي أربعين متراً فوق الماء، وتسمى جزيرة السلام؛ للسبب نفسه دون شك الذي أُطلق على المحيط الغربي الكبير اسم المحيط الهادي، بالرغم من أنه بحرُ أعتى العواصف. وصارت إلى يسارنا جزيرة هرمز التي أحرزت شهرة واسعة في أزمنة البرتغاليين، بشواطئها المحاطة بصخور شاقولية مهيبة. وفي حوالي الساعة الواحدة رسونا في بندر عباس، وهذا بالفارسية أشبه بقولنا ميناء عباس، لأن هذا الشاه استولى على حصن هناك كان للبرتغاليين في بدايات القرن السابع عشر، عندما كانوا سادة الخليج الفارسي.

بندر عباس أرض ليست للشاه. كانت مؤجرة منذ حوالي خمسين سنة من سيد مسقط إلى شاه بلاد الفرس مقابل مبلغ بدأ بخمسة وعشرين دورو وارتفع حتى صار أربعين ألفاً. وبعد الثورات التي حدثت في هذه البلاد الأخيرة، عادت الحكومة الفارسية إلى بسط سيطرتها المطلقة على القطاع، وإن يكن لزمن قصير. ففي بداية هذا العام، استأجرها المدعو حاجي أحمد خان من الشاه مقابل مبلغ من المال، وهو يمارس هناك سلطته على خمسين ألف شخص، في ظل العلم الفارسي، وشعاره الأسد والشمس.

بين المسافرين إلى مكة الذين صعدوا إلى السفينة في مسقط، ومعظمهم عبيد جيء بهم من جدة، يستقبلهم القباطنة الإنكليز على متن السفينة على سبيل الإحسان باعتبارهم خدماً لهم، كان هناك

مواطنان من بوشهر، يمكن التحدث معهما بالعربية حول كثير من خصائص البلدان التي زاروها. وشاءت المصادفة أن يكونا صديقين لحاكم بندر عباس، فزرته معهما، ورأيت في الوقت نفسه المدينة القائمة على شاطئ بديع وخال من الصخور. وهناك إلى الشمال سلسلة جبال ماجيستان، تغطي قممها البعيدة ثلوج دائمة. وإلى الشرق والغرب تظهر بين الرمال بعض أشجار النخيل. وإلى الجنوب هناك مفتاح تلك البحار: جزيرتا هرمز وقشم، وتظهر جبالها القرمزية في الأفق، حتى مسندم، مثل سحابة خفيفة في السماء الزرقاء.

يسكن بندر عباس 14000 نفس، ينتمون بغالبيتهم إلى الطبقة التي يسميها الفرس *المحاربين*. ولكن قسماً كبيراً من سكان المدينة كانوا قد هربوا من الحر بحثاً عن الراحة في الجبال. وبيوت المدينة المبنية من الحجر، لها على السطح نوع من الحجرة، على شكل مدخنة مفتوحة نحو البحر، وبتفرعات مختلفة معدة لنقل النسائم إلى مختلف الحجرات الداخلية، مما يوفر مزيداً من الراحة، ويناسب النساء بصورة خاصة لأنهن لا يستطعن التنقل على السطوح دون أن يُرين.

بينما ذهب صديقاي البوشهريان للاستحمام، وهي عادة شائعة على نطاق واسع في الشرق، ظل الحاجي خان معي يجول في الأسواق، وهي في الحقيقة صعبة المسالك وضيقة جداً، ممتلئة بشباك العناكب ومغطاة بالغبار. وقد رأيت فيها سلعاً مستوردة، وكلها إنكليزية بالطبع، وسلع التصدير، مثل الصوف والقطن والسمن والورد المستخدم في صنع ماء الورد الشهير. غير أنه لا وجود هناك، باستثناء هذه الأشياء، لأية بضائع خاصة من صنع البلاد. وعندما بلغنا أقصى شمال المدينة، أشار لي إلى بعض البيوت الريفية، وبينها بيته المبني على الطراز الأوروبي. ولأنه لاحظ اهتمامي بالبيت، سارع على الفور إلى الطلب مني أن أقضي

شهرين فيه. وبالرغم من أن شهرة حسن الضيافة الشرقي، إلا أن ذلك العرض كان، إلى هذا الحد أو ذاك، بقيمة البيوت المماثلة في أوروبا.

لدى العودة إلى الجمرك، وهو بناء قديم يستخدم منزلاً لحاجي خان، أراني ثمانية أحصنة بديعة، غزالات حقيقية، اشترى كل واحد منها بحوالي 40000 ريال، وهو ثمن ضخم، سواء أكان هناك أم في أي مكان آخر. واستشارني كذلك حول متانة نوابض عربتين تلقاهما من أوروبا؛ وبما أنه لم يكن قد استخدمهما بعد، فقد سألته أين سيتنزه فيهما؛ فارتبك قليلاً في الردّ. وأخيراً خطر له أن يشير لي إلى الشاطئ، لأنه لا وجود لمكان أفضل منه لاستخدام العربتين.

في الساعة الثانية بعد الظهر رجع رفيقاي وقد صارا غير معروفين بعد النظافة: كانا حليقي الرأس، والخدين، والذراعين، وربلتي الساقين المكشوفتين. وعلى الفور قُدم لنا الطعام على شرفة جميلة يداعبها هواء البحر العليل، حيث يقضي مضيفنا معظم النهار. وبعد الانتهاء من تناول المرطبات، بسط الثلاثة عباءاتهم للصلاة؛ فاقترب مني حاجي أحمد ليسألني إذا ما كنت مسلماً، وحين أومأت إليه بالنفي، ردّ بإيماءة أخرى طالباً مني الانسحاب بينما هم يصلون. أثار تصرفه استغرابي، وخاصة الفتور الذي لاحظته عليه بعد ذلك. وبما أن طلب تفسير لما صدمني لا يسبب لي الحرج، فقد سألت زميليَّ عن سبب التبدل الذي لحظته في الحاكم، فأجاباني بأنه كان علي، باعتباري غير شيعي، ألا أسمح لنفسي بالشرب من المغرفة نفسها التي شربوا بها.

خرجنا من بندر عباس يوم الثلاثاء في وقت مبكر جداً، وأمضينا شطراً لا بأس به من النهار بمحاذاة جزيرة قشم، وفي مياهها أعداد هائلة من الدلافين، حتى يبدو كأنها تعرقل تقدم السفينة. وكانت عاصمة تلك الجزيرة في ثورة، إذ كان الوهابيون قد احتلوها؛ وسمعنا

طلقات رصاص ودوي مدافع. وقد اقتربت من السفينة عدة زوارق ممتلئة بأناس يطلبون منا التوقف؛ لكن القبطان رفض بتبصر حذر، وواصلنا الإبحار حتى الساعة الثانية، حيث وصلنا إلى لنغه، وهو ميناء جميل في جبال لرستان، يخضع لحكم حاجي ألوناد، ويقوم وسط جنة أشجار مثمرة، تحت سماء شديدة الصفاء، وفي مناخ من أكثر المناخات صحية في بلاد فارس. لم أنزل إلى البر لأننا ما إن رسونا حتى جاء، بين أشخاص آخرين، شخص تكشف طريقته في الكلام أصله السوري. وبأقصى قدر من الصفاقة، طلب مني زجاجة كحول؛ لكنني رفضت إعطاءه إياها، فانصرف. ومن خلال من صعدوا معه إلى السفينة، عرفت أن ذلك الشخص هو أحد رؤوس المذبحة المشهورة التي وقعت في سورية في العام 60، وقد كان على الحكومة التركية أن تنفيه، ولكن ليس دون أن تكفل له راتباً بقيمة 500 ريال شهرياً.

في الساعة الثالثة فجراً خرجنا من لنغه متوجهين إلى بوشهر. وكانت هذه المرحلة هي أسوأ ما واجهناه في طريقنا: فخلال ست وثلاثين ساعة لم يتوقف هبوب ريح شمالية غربية، كانت تثير رمال الشواطئ المجاورة وتذروها بعيداً جداً، فتحجب عنا رؤية الأرض إلى مسافة ميل. وقد اضطرتني إلى الخيار القاسي بالاعتكاف أحياناً في قمرتي والتعرق بغزارة، والصعود في أحيان أخرى إلى سطح السفينة مغمضاً عيني وكاتماً أنفاسي. الشاطئ الشمالي للخليج الفارسي أكثر عمقاً، بصورة عامة، من مياه الجانب العربي، المزروع بمصاطب رملية للؤلؤ من جانب إلى آخر؛ ولكن ميناء بوشهر يشكل استثناء للقاعدة، إذ تحيط به عدة مصاطب رملية، تجبر السفن على الرسو على بعد ثلاثة أميال من اليابسة في الأيام العادية. وهذا الوضع، بالإضافة إلى الرياح الشديدة والظلام الذي تلفنا به زوابع الرمل، اضطرت القبطان إلى

الابتعاد كي يرسو على مسافة معتبرة عن المدينة، إلى أن لاحت فرصة مواتية لرؤيتها، مثلما حدث في صباح اليوم التالي.

كنت قد اشتريت تذكرة سفري من بومباي حتى هذا المكان؛ إذ افترضتُ أنه إذا كان اجتياز الطريق من بغداد إلى دمشق ممكناً للبعض، فإنه سيكون ممكناً بالنسبة إليّ أيضاً. وقررت أن أنتظر الباخرة التالية مدة خمسة عشر يوماً في بوشهر، وأستغل هذه الاستراحة للقيام برحلة إلى برسبولس حيث مازالت تنتصب، حسب قول كثيرين، بعض الآثار المذهلة. لكنني علمت خلال إبحارنا من صديقي الكولونيل مسعود بك، وهو شخص ذو مصداقية ومعرفة بالموضوع، أنه لا بد لي من التخلي عن إتباع الطريق المباشر بين بغداد ودمشق، لاسيما في مثل هذه الفترة، كما أن الذهاب إلى شيراز والعودة منها خلال أسبوعين مستحيل مادياً، مما قطع فجأة خيط ترتيباتي، وكان عليّ أن ألغي جولتي في فارستان خوفاً من أن تطول الرحلة كثيراً، بحيث لا أعرف متى تنتهي.

ولهذا، كان أول ما فعلته بعد أن وطأت قدماي الأرض إلى حجز بطاقة سفر إلى البصرة، بدفع ثلاث جنيهات استرلينية ونصف، فضلاً عن الستة والعشرين جنيهاً التي دفعتها في بومباي، مما يجعل المجموع 3000 ريال، هو ثمن بطاقة السفر المباشر، دون أن تتضمن النبيذ؛ خلافا لما هي الحال لدى *شركة شبه الجزيرة الشرقية*، حيث كل شيء مترف، والفضل يعود دون شك إلى مبلغ ثمانمئة ألف جنيه استرليني تتلقاها الشركة كدعم سنوي.

بوشهر هي بومباي بلاد فارس. أما كمدينة فليست أفضل من بندر عباس، على الرغم من أن عدد سكانها يبلغ عشرين ألفاً. تحيط بها أبراج ضخمة وأسوار متينة، دمر الإنكليز أجزاء منها في العام

1856 عندما استولوا على الموقع، والحقيقة أنهم تفضلوا بإعادتها. شوارعها مثل شوارع مسقط أو أضيق منها، ولكنها نظيفة. أما في الميناء بالمقابل، فلا يكاد التجوال يكون ممكناً لكثرة الأنقاض والقمامة. لاحظت أن الرجال جميعهم يحملون خناجر في أحزمتهم، وأن النساء يتغطين أكثر من أي مكان آخر في الشرق، حتى إنني لم أستطع أن أفهم كيف يتمكنّ من المشي.

وبين الأشياء الكثيرة التي يمكن شراؤها في بوشهر، مثل السجاجيد، والأسلحة، والأصباغ، ونبيذ شيراز وغيرها، تلفت الانتباه أشياء مصنوعة من خشب أشجار الليمون: ملاعق، وصناديق، وإطارات، وكلها بأسعار بخسة جداً، وهي متقنة الصنع. ولكن أغرب ما وجدته واقتنيته هو خنجر بديع مطلي بالمينا، عمل فني رائع، أحتفظ به كتذكار من الصناعة القديمة في هذه البلاد. وهناك أيضاً تشكيلة كبيرة من أحجار الفيروز، ولكن الجيدة بينها نادرة؛ وقد طلبوا مني أربعمئة دورو مقابل قطعة منها ذات شكل إهليلجي، طولها اثنا عشر مليمتراً وعرضها ثمانية مليمترات، وسماكتها ثلاثة مليمترات في تحدبها، لونها أزرق صافٍ، وشديدة البريق والشفافية.

لبريطانيا العظمى في بوشهر وزير مقيم يتولى قضية ما تسميه صحف الهند *موقعنا في الخليج*، ومنذ حوالي ثلاثة شهور أرسلت هولندا كذلك قنصلاً لرعاية مصالح مواطنيها الذين من عادتهم أن يجيئوا إلى هناك بالسُّكر أو البُن أو منتجات أخرى من جزيرة جاوة.

والسيطرة التي توصل إليها الإنكليز في تلك المياه، لاسيما الرقابة التي يمارسونها، تدفع البعض إلى التفكير كثيراً؛ ولكن التمعن في الأمر يبين أنه تعويض عن كل ما فعلوه ويفعلونه من أجل تطوير التجارة والمواصلات. فهم يقدمون للشركة البريطانية الهندية، على سبيل المثال،

خمسمئة جنيه إسترليني شهرياً لنقل المراسلات بين بومباي والبصرة. ويدفعون ألف جنيه لإحدى المؤسسات في بغداد مقابل قيامها بالعمل نفسه بين هذه المدينة والبصرة. وقد أقاموا خدمة التلغراف بين بوشهر وطهران، ووضعوا علامات طافية في كل مكان في مداخل شط العرب ومواضع أخرى يتطلبها أمن المبحرين، وهم يغطون برايتهم، مقابل تعويض بالطبع، عدداً كبيراً من السفن الفارسية، والتي ربما ما كانت ستوجد لولا هذا الاحتياط. فهل سيكون مستغرباً إذا ما جعلتهم الظروف غداً يسيطرون على هذه البلاد؟

ولا يغمض الإنكليز عيونهم أبداً عن إمكانية إقامة اتصال مباشر بين البحر المتوسط والخليج. وسيتم ذلك عاجلاً أو آجلاً، وعندئذ ستظهر مرة أخرى ثمار سياستهم بعيدة النظر على الدوام.

يوم الجمعة، الساعة السادسة مساء، غادرنا شبه جزيرة بوشهر على أمل الرسو في البصرة في الساعة الرابعة والعشرين؛ غير أن ذلك لم يكن ممكناً، لأن الريح ظلت معاكسة حتى الساعة الحادية عشرة من اليوم التالي، وهو الوقت الذي رأينا فيه أول علامة توجيه طافية بين المصاطب الرملية التي تسد مداخل شط العرب، أي النهر الغزير الذي تختلط فيه مياه دجلة والفرات. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف دخلنا في الشط. و*الحبشية* التي يبلغ غاطسها اثني عشر قدماً، هي إحدى أكبر السفن التي يمكن لها المرور في أثناء انخفاض المد؛ أما عند ارتفاعه فتجتازه سفن من كل الأمكنة. في الساعة الواحدة رأيت بعيداً في الأفق شريطاً من اليابسة، ذكّرني بصورة لا إرادية بأنني أدخل الإمبراطورية التركية للمرة الثانية. فهناك، على سارية علم شاهقة العلو، كان يرفرف الهلال، الشعار الذي كان شعار كسرى أيضاً.

مدخل ما يسمى شط العرب، أو بكلمة أدق مدخلاه، لأنهما

اثنان: خور مشهر و خور التيه Altch، لهما من العرض حوالي خمسة أميال؛ ولكن خور التيه وهو الذي صعدنا منه، يضيق بعد ذلك، وفي الفاو التي تقع على بعد عشر دقائق من المصب، لا يزيد عرضه عن ألف متر، وهو العرض الذي يحافظ عليه تقريباً حتى البصرة.

ويمكن للفاو أن تكون مجهولة تماماً لولا وجود محطة التلغراف فيها، حيث تصل كل البرقيات التي تُرسل حتى رأس غال في سيلان. ولهذا توقفنا هناك بضع دقائق لنتسلم ونتلقى رسائل من الموظفين الثمانية أو العشرة، أتراك وإنكليز، الذين يعملون في تلك المكاتب، وواصلنا على الفور إبحارنا اللطيف والمبهج جداً.

في الساعة السادسة خلفنا وراءنا فرعاً من شط العرب، يدعى المحمرة، باسم القرية الواقعة على الضفة اليسرى، وتلتقي مياهه، بعد مسيرة ثلاثة إلى أربعة كيلومترات نحو الشرق، بمياه نهر قارون، وينحرفان معاً نحو الجنوب مشكلين خور مشهر.

وسأقول شيئاً عن هذه المدينة التي كانت مزدهرة في ما مضى.

ففي زمن الخلفاء كان يسكن البصرة نحو أربعمئة ألف نسمة، وهذا دليل أكثر من كاف على أهميتها الكبيرة؛ ولكنها لا تضم اليوم سوى تسعة آلاف نسمة، موزعين بين أنقاض قرية تقع على بعد نصف فرسخ عن ضفة دجلة، وتتصل به عبر طريق وقناة. صعدتها أنا في قارب، يدفعه عربيان بعصا (مردي)، وكنت أرى إلى اليمين واليسار، بين آجام كثيفة، كتلاً غير منتظمة من الطوب الذي كانت قد شيدت منه المنطقة المسورة القديمة.

وحين بلغت اليابسة، كان هناك شيئان استرعيا انتباهي في الوقت نفسه تقريباً: كثرة الدور المهدمة، ومظهر السكان العليل والمكفهر. الأمر الأول سببه بعض الموظفين الأتراك الذين عمدوا، تحت أي ذريعة،

إلى هدم الأبنية العامة، حتى ما كان منها في حالة جيدة، وهدفهم الوحيد بيع ما يستخرج من مواد. أما الأمر الثاني فيكمن في أسباب أخرى لا أرى غضاضة في تعدادها: 1) قلة نظافة المدينة، وخاصة عدم وجود نظام صرف للمراحيض التي تصب مخلفاتها في الشارع. 2) القناة التي تصب فيها فضلات السكان كلها، ويذهبون إليها مع ذلك لسحب الماء اللازم لكل الاحتياجات، 3) وفوق ذلك، هناك البحيرات أو المستنقعات الكبيرة التي تغطي المنطقة المحيطة بطول خمسة وأربعين فرسخاً وعرض خمسة فراسخ، وهي تسبب، في الصيف خاصة، إصابات بحمى المستنقعات أو البرداء. فمنذ ثلاثين سنة شق الفرات مجرى جديداً لجزء من مائه في ساق الشوك Sak-es-Chuk، وأغرق خلال وقت قصير تلك الأراضي كلها حتى الخليج الفارسي نفسه. ولم تهتم الدولة كما يتوجب عليها ببناء سد حاجز في حينه، وصار من الصعوبة بمكان اليوم إصلاح ما كان إصلاحه سهلاً من قبل. هذه الفيضانات كانت السبب في خراب *بَصروا* أو البصرة، كما يسميها العرب. ومن الخمسين ألف نفس الذين كانوا يقيمون فيها، لم يبق سوى من هم أشد فقراً أو أقل ميلاً إلى المجازفة من الجيل الحالي التعيس.

تتمثل تجارة هذه المدينة بالتمر والعبيد. أمر متميز! لقد رأيت على أشجار نخيل كثيرة الكثير من قطوف التمر الناضجة واليابسة، وأخرى ناضجة وخضراء. أما بشأن تجارة الرقيق التي يُعتقد عموماً أنها قد أُلغيت، وخاصة في إنكلترا أكثر من أي مكان آخر، فمازالت متواصلة هنا بصورة مكشوفة. الحقيقة أنه لا توجد عمليات بيع علني، ولكن كل طلبات بغداد والموصل ودمشق وحلب تُرسل من هنا؛ حتى إنه معروف مسبقاً أن سعر العبيد الزنوج الذين يأتون من الحجاز أو من زنجبار يبلغ ألف وخمسمئة ريال.

III

من البصرة إلى بغداد

نهر دجلة، على متن السفينة «دجلة»، 18 حزيران 1869

مكثتُ في البصرة يومين اثنين، برفقة بعض المسيحيين الكلدان. وفي يوم الاثنين، الرابع عشر، ظهراً، حصلت على تذكرتي على متن السفينة البخارية «دجلة». ومع غروب الشمس وبزوغ القمر، تحت سماء صافية وبهيجة، بدأنا نقطع منتصف شط العرب الهادئ والغزير الذي يمتد كمرآة تحت أقدامنا.

هذه الباخرة الجديدة المملوكة لشركة *لينش* في بغداد، والمدعومة، كما قلت سابقاً، من الحكومة الإنكليزية، ملائمة جداً لهذه المياه: إنها جيدة التهوية، ذات قعر مستوٍ، وغاطس من قدمين إلى ثلاثة أقدام ونصف. شيء واحد أثار عجبي، وهو مفاجأة القبطان ورجاله حين رأوا أنني لا أحمل معي فراشاً، ذلك أنهم لا يقدمونه لمسافري الدرجة الأولى؛ وقد قالوا إن العرب والأتراك وحدهم هم من يبحرون في نهر دجلة، وهم أناس لا يهتمون كثيراً بممتلكات الغير؛ غير أن هذا التبرير لم يبدُ لي أنه يشكل اعتذاراً عن تصرف يمكن أن يعتبر شاذاً، على أقل تقدير، لو أنه جرى تحت راية أخرى غير العلم الإنكليزي.

هناك منذ نحو سبع سنوات باخرتان أخريان تمخران الطريق بين البصرة وبغداد. ولكن عدم انتظام انطلاقهما بمواعيد ثابتة في أيام محددة، وعدم معرفة موعد وصولهما، جعلني أرى أن الحذر يستدعي أن أنفق تعرفة مضاعفة، بدفع 70 «كران» مقابل تذكرة السفر، واثني

عشر كران يومياً مقابل الطعام. والكران هي عمله فارسية، تساوي 36 ربعاً، وتستخدم كوحدة نقد. وبالنظر إلى أن المسافة تزيد على 500 ميل، ويتطلب اجتيازها أربعة أيام، بالرغم من أن ثلاثة أيام تكفي، فإن ذلك السعر يبدو متواضعاً، كي لا نقول رخيصاً. هذا ما رأيته أنا على الأقل، لأن متعة الإبحار في بلاد الكلدانيين أثمن من ذلك بكثير.

ومن أجل فهم ما أعنيه سأقدم قبل أي شيء فكرة عامة عن المشهد الذي يُكتشف من مداخل نهر دجلة حتى بغداد، في امتداد يبلغ 560 ميلاً، لأنه يقدم خصوصية جديرة بالتصوير كظاهرة عجيبة من الظواهر التي تقدمها الطبيعة.

إلى يمين ويسار الضفتين، وعند مستوى سطح الماء بالذات، تمتد سهول لمئات الفراسخ المربعة، لا تتخللها أصغر أكمة ولا أدنى تموج؛ فالأرض في كل الجهات تمتد مستوية وتشكل سهلاً بالغ الاستواء، حتى ليمكن تسميته بحق بحر من اليابسة. ويمكن للخصوبة فيه أن تفوق الوصف، إذا ما أراد البشر ذلك؛ إذ أن المدَّ يروي ضفتي شط العرب مرتين في اليوم. وعلى ضفتي دجلة، حيث لا تكون ظاهرةُ المدِّ واضحة، تجري مياه روافده، ومياه بعض القنوات الكثيرة التي شقها البابليون، وهي الآن غير مستخدمة ومنسية، وتغمر المياه دون فائدة كل أراضي الطمي الفيضية تلك لزمن شديد الخصوبة والإسراف في مكافأة عمل الفلاح الذي علمت أنه يحصل على الثُمن، ومن المؤكد أنه أينما تُزرع المحاصيل يمكن أن ينمو قصب السكر، والرز، والعنب، والقمح، والقنب، والكتان، والنيلج، والتوت، والموز، وغيرها، وغيرها؛ ولكن ألف سبب ألحق الخراب بهذه البلاد الخصيبة والمتميزة.

من الخليج الفارسي حتى البصرة، تمتد على ضفتي دجلة غابة ليست كثيفة جداً، ولكنها متواصلة تقريباً، من أشجار نخيل بديعة، تسمى علمياً باللاتينية phoenix dactylifera، يمكن أن تستثير

إعجاب وتقدير أمثالي ممن أتيح لهم رؤية خضرة بلاد الهند المذهلة والغنية. وتأخذ تلك الأشجار بالتناقص تدريجياً إلى أن تختفي بالكامل تقريباً على مقربة من القرنة، نقطة التقاء أو انفصال دجلة والفرات، وهي منطقة وارفة، ومشهورة بصفصافها القديم، حتى إن بعضهم يعتقد أنها الفردوس الأرضي. وهناك توقفنا حتى فجر الثلاثاء، من أجل أخذ حمولة من بعض مضارب البدو المجاورة.

ولو أولت قبائل هذه المناطق القليل من التقدير للزراعة، أو العناية بماشيتها على الأقل، وهي ضرورة أولى لهم، فإنها ستوفر لهم ربحاً وفيراً. وبالفعل، فالمحطات الأربع أو الخمس التي توقفنا فيها، كانت لتحميل الباخرة بالجلود والصوف والسمن. وكل السفن التي تمر تأتي محملة بالطريقة نفسها. إن العمارة التي تبعد 190 كيلومتراً عن البصرة، والخرابة وجبلة التي هي قرى تضم كل منها نحو ألفي نسمة، قد ولدت من استقرار الاتصال النهري وستصل لأن تكون، مع الزمن، مدناً مهمة.

من القرنة دخلنا في دجلة نفسه، أحد الأنهار الأربعة التي تنبع من الفردوس الأرضي (جنة عدن) لدى المسيحيين، والتي تقع في أرمينيا حسب الرأي الشائع.

ويرد ذكر دجلة في سفر التكوين تحت اسم حِدَّاقِل، أي السريع؛ وقد أطلق عليه قدماء الفرس تسمية تيجرا Tigra، وتعني السهم، أما اليوم فيسمى دجلة، وهي كلمة مركبة على ما أعتقد من الكلمتين الفارسيتين deh Klet، أي عشرة أنهار، وهو عدد الأنهار التي يتلقاها من جهة الشرق وحسب.

ودجلة، على العموم، أقل تعرجاً من الفرات وأشد سرعة منه؛ ويعود ذلك بصورة خاصة إلى واقع أن أنهاراً كبيرة تصب فيه، فضلاً عن انحدار الأرض الشديد، ذلك أن الموصل التي يلامس النهر أسوارها، تقع على ارتفاع 120 متراً عن سطح البحر، وديار بكر على ارتفاع 700 متر.

واستناداً إلى ما سمعته من بعض الفلاحين الذين كنت أتبادل الحديث معهم أثناء توقفنا ، استنتجت أن فيضان دجلة والفرات معاكس تماماً لفيضان النيل. فالنهران الأولان يفيضان فجأة بالفعل في منتصف تشرين الأول، ويغمران المناطق المجاورة؛ ويتواصل ارتفاع النهرين ابتداء من شهر كانون الثاني حتى الخامس عشر من أيار ، حيث يصلان أعلى مستوى لهما ؛ ثم يأخذ فيضانهما بالانحسار حتى شهري آب وأيلول. غير أن انخفاض مستوى الماء لا يصل أبداً إلى حد الحيلولة دون الإبحار فيه. منذ ثمانية أعوام، عندما لم تكن السفن البخارية قد عُرفت بعد ، كانت الرحلة من البصرة إلى بغداد تستغرق شهراً كاملاً ، ونصف الفترة للقيام برحلة العودة. ومثلما هي الحال الآن، لم يكونوا آنذاك يقومون بالسفر ليلاً ، اللهم إلا في الليالي المقمرة ، يحول دون ذلك عدم استقرار مجرى النهر. وفي الفصل الحالي ، يقتصر عرض النهر على مئة أو مئتي متر؛ ويصل في العادة أحياناً إلى الضعف ، كما أنه قد ينحسر إلى النصف في أحيان أخرى؛ وتكثر فيه التعرجات ، مما يطيل الرحلة ، ولكنها تصبح مشوقة في الحقيقة إلى أقصى الحدود ؛ فالأراضي لم تعد تزدهي بكثير من الأشجار ، اللهم إلا بعض أشجار الصفصاف المتفرقة شديدة الخضرة ، أو شجرة حور أو نخلة تبرز بين الآجام العشبية؛ ولكن أعداد السكان تتزايد ، فقبيلة المنتفق الخاضعة ، اسمياً على الأقل، لحكومة بغداد ، تشغل أحياناً فراسخ بكاملها من إحدى ضفتي النهر. وهم يعيشون في أكواخ كبيرة ، مشيدة من القصب المتوافر بكثرة هناك ، وفي حالة بدائية؛ وعندما يلمحون السفينة البخارية ، يبدأ الرجال والنساء والأطفال جميعهم بإطلاق صرخات مرعبة طالبين منها التوقف. ويرمي لهم المسافرون تفاحاً ، فيخلعون أسمالهم ، ويسبحون وراء الثمار. وكان من عادتهم في بعض الأحيان إطلاق النار من بنادقهم على السفن؛ ولكنهم منذ أن رأوا إلى جانب دفة القيادة رجلاً يتولى الحراسة ، صاروا

يخشون العقاب والخروج خاسرين، مثلما جرى في مناسبات غير قليلة، لاسيما في مواسم حصاد المحاصيل، وهي فترة يطارد فيها البعض غيرهم ويسرقونهم، لأن المجرمين يعتقدون حينئذ أنهم في حماية الفوضى نفسها التي يعيشون فيها.

وبين عادات أولئك الناس صدمني تعصبهم المفرط في مسألة التثبت من العذرية، وهي شائعة بين شعوب أخرى، ولكن ليس بذلك التطرف. وقد لاحظت كذلك أن الأطفال لا يُفطمون عن ثدي الأم حتى السنة الثالثة أو الرابعة من عمرهم، ولا بد أن ذلك يسهم إلى حد كبير في تطورهم اللاحق؛ وهم لا يلفونهم كذلك بلفافات أو أقمطة بل ينمون منذ ولادتهم طلقاء مثل النباتات ومتيني البنية، وإن كانت للبطن ضخامة استثنائية في المرحلة العمرية الأولى. وأخيراً، فإنهم جميعهم، كباراً وصغاراً، يجولون في هذه البطاح نصف عراة، وبرؤوس مكشوفة، دون أن تؤدي حدة الشمس أو حر أربعين درجة إلى إصابتهم بالمرض. ومن أجل توضيح ذلك، سأورد بضع كلمات لهيرودوت وهو يصف ميدان المعركة التي قاتل فيها المصريون ضد فرس قمبيز: «... جماجم الفرس ضعيفة جداً يمكن لرميها بحصاة أن يثقبها، بينما جماجم المصريين بالمقابل شديدة الصلابة، يصعب كسرها حتى لو صُدمت بصخر الصوان. والسبب الذي قُدم لي يبدو واضحاً: فالمصريون يحلقون شعر الرأس منذ صغرهم، وبهذه الطريقة تتصلب عظام الجمجمة تحت الشمس؛ والأمر ليس كذلك عند الفرس، فجماجمهم لينة جداً لأنهم يغطون رؤوسهم منذ الطفولة بأشرطة من الصوف اللباد».

يوم الثلاثاء، في حوالي الساعة العاشرة صباحاً، مررنا قبالة ضريح عزرا، القائم على الضفة اليسرى. قبل افتتاح خدمة السفن النهرية بين بغداد والبصرة، لم يكن هناك سوى حجارة مكومة؛ غير أن اليهود الذين يكنون احتراماً كبيراً للرفات، وهو ما يمكن استنتاجه من

كثرة الحجيج الذين يفدون في شهر أيار، بنوا هناك مقاماً ذا قبة بديعة من الخزف وعدة غرف مخصصة لتلك الأسر التي تصلي وتعنى بصورة دائمة بالصومعة. وقد كان عند الباب حوالي اثني عشر يهودياً بائساً، ما إن رأوا السفينة حتى راحوا يلوحون كي تتوقف ويصعد إليها عدد من أبناء طائفتهم. وقد توقفنا بالفعل، وحملنا معنا أولئك الناس الفقراء.

وفي يوم الأربعاء، كنا نرى طوال معظم النهار سلسلة الجبال البنفسجية التي تفصل بلاد فارس عن الإمبراطورية التركية؛ وأقرب منها إلينا، ظللنا نمتع النظر لمدة نصف ساعة بالمشهد الذي تشكله قافلة مؤلفة من ألفي ناقة، تتجه دون شك إلى الشمال هرباً من الحر وبحثاً عن مناخ أكثر برودة. كانت البهائم الصبورة تمشي ببطء، مبعثرة في البطحاء الفسيحة: بعضها محملة بأسر كاملة، تحمل نساء وأطفالاً في صناديق متوازنة مثبتة على جانبيها؛ وعلى أردافها يركب رجل أو رجلان؛ وجمال أخرى تحمل الخيام وأمتعة بيتية ومؤناً وغيرها، وأخرى لا تحمل أي شيء، تذهب وتجيء، وتركض طليقة من جهة إلى أخرى.

وكنا نرى في عدة نقاط بعيدة تلال أحجار منحوتة تشير، دون شك، إلى حضارات قديمة جداً، وإن كنت لا أستطيع المغامرة بالقول أي حضارات هي. وما يمكنني قوله للقارئ حول هذا الأمر هو أنه حيث تشير الخرائط الجغرافية إلى آثار، مثل: آثار ديبا، أو بابتاس، أو ستاس وغيرها... لا يعني أن هناك ما يمكن رؤيته؛ ففي معظم الأحيان هي تلال تراب، ذات لون ضارب إلى الحمرة، بقايا آخر احتضار مدينة، وبقايا أخرى لا تصل حتى إلى هذا.

والحقيقة أن ما يبعث على الدهشة هو أن فجر التاريخ لم يبدأ إلا مع أفول تاريخ الشعوب التي يروي هذا النهر أراضيها. وكم هو مرعب التفكير في أن مجتمعات كبيرة، مثل الكلدانيين والأشوريين، ظلت دون خلف. شعوب هائلة لم يعد لها وجود في ذاكرة البشر، مثلما

يمكن أن يحدث لذكرى رحالة مأسوف عليه يموت وسط الصحراء وقد مزقته صاعقة. ويتأكد هذا القول بملاحظة شح الأخبار حول تلك البلدان، وعندما لا نستطيع فهم الاختلاف القائم بين قدماء المؤرخين الإغريق واللاتينيين والكتابات المقدسة. فأولئك يتحدثون عن ثلاث ممالك توالت السيطرة على هذه الأجزاء من الشرق: مملكة الأشوريين، وقد هزمها الميديون؛ وسلالة هؤلاء، وقد دمرها الفرس الذين دُمروا بدورهم على يد الإسكندر؛ أما بابل فيكاد لا يُذكر سوى أسماء بعض ملوكها. بينما تشير التوراة بالمقابل إلى أنه كانت هناك، في تلك الفترة الزمنية نفسها، إمبراطوريتان أشوريتان والكثير من الملوك البابليين المشهورين جداً؛ ولكن الأخبار التي نُقلت عنهم موجزة ومقتضبة جداً إلى حد تبدو معه أنها مكرسة لتعزيز نبوءة إشعيا وإبرازها فحسب.

وبتقصي الأسباب التي أدت إلى محو ما كان يتوجب أن يوجد ولو في التراث الشفوي، لابد لنا من الانتباه بادئ ذي بدء إلى تنوع الأسماء والألقاب التي كان يتخذها الملوك في تلك الأزمنة، والتي كانت تُنطق بطرق مختلفة بين مكان وآخر، فانتهى الأمر بها إلى الاختلاط والامتزاج إلى أن ضاعت من الذاكرة. أما الاختفاء الكامل لمدن كانت مأهولة بكثافة فيسهل تفسيره؛ لأن البشر كانوا يعيشون آنذاك مجتمعين في مراكز كبيرة، وليس منتشرين في الأرياف، مثلما هم اليوم؛ وبتدمير تلك الحواضر وموتها على يد شير والاسكندر، لم يكن بالإمكان نهوضها وإعادة بنائها من جديد.

وبالتالي، لا تقدم ضفاف دجلة للنظر شيئاً مما رسخته سمعة القِدم في مخيلتنا. إذ لم يبق في هذه المناطق البائدة سوى أطلال طيسفون التي تعود إلى أزمنة حديثة نسبياً، والمسماة عند العرب *طاق كسرى*، أي قوس كسرى، وهو بناء هائل ينتصب متوحداً.

وقد تمكنت من لمحه أمس، عند الظهر، قبل ساعتين من بلوغ

أقرب نقطة إليه على الضفة الشرقية. فنهر دجلة ينعطف هناك في كوع كبير، تحتاج الباخرة معه إلى ساعة وربع الساعة لقطع كيلومترين من الطريق مستقيم، وفي منتصف هذه المسافة تقريباً، يقوم القوس الضخم المتداعي الذي حث رغبتي على الاقتراب لزيارته، وما كان بالإمكان رؤيته جيداً لولا ذلك الوضع الخاص المذكور في النهر. وقد فوجئتُ بأن القبطان لم يتوقف من أجلي فقط، وإنما كذلك من أجل أكثر من ثمانين مسافراً على متن السفينة. ولأنني كنت أجهل، من جهة أخرى، السبب في زيارة أتباع محمد للمكان، فإنني لم أكتف برؤية قوس كسرى، ورماد طيسفون المحيط به، حين سمعت أنه يوجد هناك أيضاً ضريح سليمان، حلاق محمد، وهو بهذا الاعتبار خالد الذكر[1]. نزلت من السفينة، وخلال نصف ساعة من السير في الصحراء، لم أستطع إلا أن أستغرب وأقدر في الوقت نفسه تنوع أنماط مرافقيّ وملابسهم: كان بينهم رجال تصل أعمارهم إلى التسعين يأتون من أقاصي بلاد فارس والهند ليقدموا إتاواتهم حصراً لضريح علي، بالقرب من بابل؛ وفي طريقهم، لكل الأمكنة المرتبطة بمعتقداتهم وممارساتهم الدينية.

وبينما كنا نمشي، كان البناء الضخم موضوع فضولي، يبدو كأنه يسقط فوقي كلما اقتربت منه أكثر. وسوف أصفه هنا بكلمتين.

إنه، مثلما قلت، قوس متداعٍ، ارتفاعه 104 أقدام وعرضه 86 قدماً، وعمقه 116 قدماً، وله جناحان جانبيان بالارتفاع نفسه وأعرض منه قليلاً. المحور الرئيسي يتجه من الشرق إلى الغرب. والبناء كله مشيد من قطع آجر مربعة طول ضلعها 25 سنتمتراً، وسماكتها خمسة سنتمترات، متراصة ومتناوبة من اللونين الضارب إلى الحمرة والضارب

---

[1] الضريح المعني هو قبر سليمان الفارسي، والواقع أن هذا الصحابي لم يكتسب سمعته ومكانته من كونه حلاق النبي، كما يقول المؤلف، وإنما لمآثره في نشر الدعوة الإسلامية، ودوره في حمايتها والدفاع عنها.

إلى الصفرة، أي تلك المشوية أكثر أو أقل. سماكة القبة متران، وسماكة الجدران ستة أمتار. وقد تساقط الآجر من الجهة الخارجية أو انتُزع مع الزمن، فأتاح ذلك، منذ شهرين، لأحد ملاحي السفينة ***دجلة*** الصعود إلى قمة البناء وقياسه. في الواجهة مازالت مرسومة بوضوح مثل ثلاثة طوابق مختلفة الارتفاع، مع نوافذها التي سُدت فتحاتها ودعاماتها وأقواسها. وفي الجانب المقابل هناك كوى، ارتفاعها حوالي متر ونصف وعرضها متر تقريباً، ولها شكل عقد قوطي.

البناء محفوظ بحالة جيدة؛ ومع ذلك، فإن الشرخين الظاهرين في القبة يثيران الخشية من أنه قد ينهار في أي يوم. وإلى جانب هذا القوس الضخم الذي يعتقد البعض، بالنظر إلى تسميته، أنه كان بوابة قصر كسرى، توجد أبنية المدينة الأخرى المدمرة تماماً، وأنقاضها تسبب عدم استواء السهل في دائرة فسيحة جداً، وتشكل اليوم أرضاً اصطناعية فوق الأرض الأصلية التي شيدها عليها الفرثيون، وهذا أشبه بأن نقول «المبعدين»، فذلك هو اسمهم، وبحق، في لغة السيثيين.

وقبالة قصور الملوك الفرثيين تقريباً تُرى سلوقيا التي أسسها سلوقس نيكاتور، ولكن لا وجود هناك لما يمكن الإعجاب به سوى أكوام من الآجر المفتت. وإذا لم أكن مخطئاً فإن سلوقيا أرادت منافسة بابل، ولكنها طيسفون دمرتها. وتحفظ الذاكرة شيئاً من تلك الخصومات، إذ يطلق العرب على الموقعين، دون تمييز، تسمية *المدائن*.

أما ضريح حلاق محمد ـ وقد كلفتني زيارته غسلاً جيداً لقدميّ، لأنهم كانوا يرطبون الجو حينذاك بدلق دلاء من الماء في الرواق ـ فهو كتلة كلسية مغطاة بمطرزات بديعة من الحرير والذهب، وببيارق ورايات وغيرها، يقوم في فناء مسور مشغول بحِرَفِية باهرة، وبإسراف في الفسيفساء البديع، ومنظم ببراعة تُذكّر، دون قصد، بالأزمنة التي كانت فيها هذه الشعوب مزدهرة.

وبعد إشباع فضولي، توجهنا نحو الشمال، ووصلنا بعد ربع ساعة إلى الموضع الذي ستمر منه السفينة. وبالفعل، عدنا بعد قليل من الانتظار للصعود إلى السفينة، وبعد أن صرنا جميعنا على متنها، افتقدنا مسلماً بنغالياً؛ فجمع رفاقه عشرة أو اثني عشر ريالاً قدموها إلى مسلم آخر وهندي، وانطلق هذان سباحة للبحث عن الضائع. كنا قد ألقينا المرساة منذ تسع ساعات، ولم نعرف شيئاً عن ذلك التعيس الذي لا بد أن يكون، حسب تقديراتنا، قد وصل قبلنا.

وفرة الخضرة الكبيرة من طيسفون إلى بغداد، وشكل الأكواخ، وحتى مظهر الناس، كلها تنبئ باقترابنا من مركز عمراني كبير. وبتجاوز نهر ديالى البديع الذي استغل السكان مياهه الغزيرة منذ أقدم الأزمنة، يتحول ما كان مجرد توقع إلى واقع ملموس؛ إذ صار يمر أمام عيوننا بغداديون على جياد، وآخرون ينتقلون من ضفة إلى أخرى في زوارق لها الشكل نفسه الذي كانت عليه تلك التي استخدمها الأشوريون، أي أنها أشبه بسلال قطرها متران، مشكلة حلقة مجدولة من القصب ومغطاة بطبقة من القار، وهي مادة متوافرة بكثرة في هذه الأرض؛ وتُرى كذلك مراكب يجرها فلاحون؛ وأخيراً، هناك وفرة وفيرة من الري، واهتمام بالزراعة، يكشف عن حالة الأمن السائدة، وعن اقتراب من السلطة في هذه البلدان.

في الساعة التاسعة ليلاً، بعد شهر بالضبط من مغادرتي سيلان، كنا وسط غابتين: إنها بساتين دار السلام، ينيرها ضوء القمر العظيم. أصعد إلى سطح السفينة وأرى مآذن سامقة؛ فيشير لي هذا الشخص إلى السراي، وذاك إلى دار الوزير الإنكليزي الفخمة، وذاك الآخر إلى الحي الذي يقيم فيه؛ والجميع سعداء برؤية موطنهم أو نهاية رحلتهم، أما أنا فأرى بداية رحلتي في تحقق رغبات طفولية.

IV

بغداد

بغداد، 27 حزيران 1869

جاء لاستقبالي على متن السفينة *دجلة* أصدقاء صديق حميم لي، واقتادوني مباشرة للراحة في بيته. لم أكن بحاجة إلى ذلك، بل ولا أرغب فيه: فأنا لم أكن قط على أحسن ما يرام كما كنت مذ تنشقت هواء دجلة العليل، مذ تذوقت ماءه الصحي، وأسماكه اللذيذة، كما أنني كنت أريد بالمطلق الذهاب إلى بابل، بالرغم من يقيني بأنني مازلت بحاجة إلى شهرين قبل أن أصل إلى دمشق. وبالتالي، سارعت منذ نزولي إلى البر لزيارة مدينة الخلفاء العريقة.

وإذا أردتُ قول الحقيقة، فإنني لم أدخل في أوهام كبيرة: فقد سبقني إليها التتار والفرس، وأخيراً الأتراك، منذ أكثر من قرنين؛ وبالتالي، ما الذي سيكون قد تبقى من ذلك العصر الذهبي الذي بدأ مع هارون الرشيد واستمر حتى الغزو المغولي؟

لابد لبغداد من أن تكون، وهي كذلك بالفعل، في الصف الأول بين المدن الخاضعة لسيطرة إمبراطورية القسطنطينية. نهر دجلة يشطرها إلى قسمين غير متساويين: القسم الشرقي، تحيط به تحصينات مرتفعة، هو الأساسي والأكثر كثافة سكانية، والقسم الغربي تشكله الأرباض. والنهر يجري من الشمال إلى الجنوب، ملامساً أرصفة متينة وأبنية عامة تمتد كيلومتر ونصف كيلومتر؛ ولكنه قبل وبعد هذا المقطع، يروي الأراضي الطيبة المغطاة بنخيل التمر، وبأشجار رمان

وارفة، وأشجار برتقال، وكرمة، وغيرها. ومن الجانبين، باستثناء المنطقة المسورة من جانب، والمنطقة الممتدة حتى نهر الخور من جانب آخر، تظهر الصحارى الرملية بكل عريها، بدلاً من المناطق المشتهاة في أزمنة سمير أميس (حسب ما يقوله ديودور الصقيلي) التي كانت تسمى *باغ استان*، وهذا يعني بالفارسية *موقع البستان*. وهناك جسر بطول 220 متراً، يستند إلى كل أشكال القوارب، هو الذي يتواصل عبره أكثر من 100,000 من سكان المدينة.

منذ أزمنة سحيقة، هناك قول شائع بين العرب يقول: ***بيوت دمشق، وخانات حلب، ومساجد بغداد***؛ والواقع أن الأمر كذلك: فالمآذن باهرة وأنيقة، اسطوانية رشيقة، تنتهي برأس إبري مدبب، مكسوة بخزف متعدد الألوان، تعكس بتألق أشعة الشمس. أو أنها مشيدة من آجر عادي، ولكن التناسق والترتيب في الحالتين مدروس بعناية، وبفخامة بالغة، حتى ليبدو بالفعل أنه من المستحيل أن تدخل هناك سوى عناصر الخط المستقيم. أما الخانات فلا تقدم أي نوع من التميز، لا في اتساعها ولا في الأساطير التي تروى عن قِدمها، مثلما هي الحال في حلب. وأما البيوت، فإنها قليلة الشبه ببيوت دمشق من حيث الترتيب العام، إلا أن لها طابعها الخاص، بما يتفق مع عوامل المناخ. فهي مبنية من الطوب، بسبب انعدام الحجارة التي لا وجود لها هنا. وتظهر الإسطبلات عند المدخل، وهذا بكل تأكيد من أجل أن يُقدِّر كل من يدخل خيولَ صاحب البيت وتميزها؛ وينتقل المرء منها فوراً إلى الفناء، وهو مزروع بأشجار مثمرة وزكية الرائحة، وحول الفناء توجد أبواب الغرف تحت الأرضية التي تسمى *سرداب*، وهذه كلمة فارسية تعني قبو أو كهف، يُنزل إليها بست أو سبع درجات. في هذه الحجرات المقنطرة والمعزولة بالجص والكلس يقضون معظم أوقات النهار خلال شهور أيار وحزيران وتموز

وآب، حيث يكون الحر مدارياً وجافاً بصورة لا يمكن تصورها، حتى إن الأثاث يتشقق ويتلف، ويصير أي عمل أو حركة غير محتمل. أما الليالي بالمقابل، خلال الشهور نفسها، فتكون مثالية بجوها الرائق: ومع غياب الشمس يتحول السطح إلى حجرة، عليه نتناول العشاء، وهناك تجتمع العائلات، وهناك توجد الأسرَّة، وهناك يكون النوم، وهناك باختصار يمكن استنشاق نسيم عليل، نظيف من الندى وصحي إلى أقصى الحدود. وفوق *السرداب* يقوم الطابق الرئيسي أو حجرات الشتاء، وهو بناء جيد الإحكام في الواقع، ويحتاج إلى إيقاد نار التدفئة بين شهري تشرين الثاني وشباط. ونظام النوافذ في الجزء الخارجي من البناء يقتصر على كوة ضيقة أو اثنتين، أو شبك حديدي سميك؛ ولكن الأمر مختلف في الواجهات المطلة على النهر، حيث تُرى عادة الشرفات.

الماء متوافر بكثرة في كل الأنحاء تقريباً، وحيث هو غير متوفر، يمكن الحصول عليه بسهولة، لأنه موجود على عمق ثلاثة أمتار تحت الأرض، وهذا هو السبب في عدم زيادة عمق *السرداب*.

والآن، قبل مواصلة الرواية، فلنترك هذه التفاصيل ولنلقِ نظرة على مجمل المدينة، أو بكلمة أدق على القسم الشرقي منها. لن نجد في كل مكان سوى شوارع ضيقة، قليلة النظافة، مختلفة تماماً عن وصف التاريخ العربي لها بأنها: ***شوارع عرضها خمسة وعشرون ذراعاً، يجري الماء في وسطها***. أما مظهر الأسواق بالمقابل فمترف، وتسودها برودة شديدة. والدروب التي تتجه إلى أربعة أبواب المدينة، في الجهات الأربع الأصلية، فسيحة وفيها حمامات كبيرة والكثير من المقاهي التي يرتادها الزبائن منذ الصباح حتى الليل. وبين الأسواق لفت اهتمامي سوق المكتبيين، بسبب الصمت الديني الذي يحتفظ به كل من يكتبون هناك أو ينسخون أو يتفننون في تزيين الأغلفة، وكذلك بسبب الروائع

الثمينة التي يضمها. فمن المعروف أنه لا يمكن طباعة القرآن، وهو أمر أنتج، ومازال ينتج، روائع من الخطوط. فقد رأيته مكتوباً على قطعة رقّ طولها تسعون سنتيمتراً وعرضها اثنا عشر، وكذلك في مجلد من حجم الربع مؤلف من ثلاثمئة صفحة، مع ترجمة تركية وفارسية متداخلة مع النص، بحبر مختلف الألوان. والهوامش مفعمة بما لا حصر له من التعليقات بخط ميكروسكوبي، وكل الصفحات مزينة وملونة بالذهبي والأزرق والأبيض. هذه التحف غير العادية، وأكاد لا أصدق أنها مشغولة بالأيدي، ثمن الأولى 11,000 ريال، والثانية 6,000 دورو. والفنانون الذي يشتغلون فيها يكتبون لوقت قصير فقط في الصباح، عند النهوض من الفراش، لأنه الوقت الذي يكون فيه النبض ثابتاً.

سوق الصاغة، وسوق الحلوانية والطهاة يمكن لها بحد ذاتها أن تضيف مادة خصبة تكفي لإطالة هذا المقال. ولكن، فلنعد إلى مجمل المدينة.

نصف المساحة التي تضمها الأسوار ممتلئة بالأنقاض أو أنها متحولة إلى أرض أشغال. وتلفت الانتباه هناك كثرة مدافن الشخصيات المشهورة؛ لكن المدفن الوحيد الجدير بأن يذكر، ليس بسبب التمثال، وهو تمثال بائس في الحقيقة، وإنما لأن الشخصية التي يحفظ ذكرها هي زبيدة، زوجة الخليفة هارون الرشيد التي ترقد في الطرف الجنوبي من العاصمة. والسور الكبير ذو الشرفات الذي يحيط بالمدينة مبني من الآجر؛ ومنذ بنائه في القرن الخامس عشر، حتى زمننا هذا، كان الحاجز الوحيد في مواجهة هجمات الفرس المتوالية. وهو لا يزال في حالة جيدة، يبلغ ارتفاعه عشرين متراً، ويشبه في كل شيء أسواراً مماثلة بُنيت في العصور الوسطى. أما امتداده فيبلغ ستة أو ثمانية كيلومترات، وبما أنه يجاور نهر دجلة، فمن السهل ملء الخندق الذي يفصله عن الصحراء بالماء.

سكان بغداد يتألفون من مسلمين (شيعة وسنة)، ويهود، وستة آلاف مسيحي من مختلف الطوائف الشرقية، ومن طائفتنا، يتحدرون ممن جاؤوا إلى هنا بعد المذبحة الكبرى الأخيرة التي نفذها مراد الرابع؛ وعشرة آلاف غريب بين فارسي وأفغاني وعربي، وحوالي ثلاثين هندياً، منهم خمسة حكام مقاطعات سابقين لجؤوا بعد الثورة الأخيرة، ونحو اثني عشر أوروبياً.

وأنصار علي، أي الشيعة، هم الأغلبية، لكنهم يعيشون بوئام مع حكومة الإمبراطورية، وهي *سنية*، توفر لهم كل الضمانات الممكنة للذهاب إلى النجف لزيارة مدفن علي، وإلى كربلاء لزيارة قبر ابنه الحسين، وهما مقامان ساميا المكانة بالنسبة إليهم. ولكن هذه المكرمة لها هدف سياسي، سنبينه في ما بعد. أما اليهود الذين يبلغ عددهم 26,000، فيزعمون أن أصولهم ترجع إلى السبي البابلي، وقد راكموا بين أيديهم ثروات البلاد، ولفت نظري بقوة مظهرهم شديد البياض والتخنث. أما المسيحيون، ويا للغرابة! فينظر إليهم على أنهم حثالة المجتمع، وذلك دون ريب بسبب ما انتشر بينهم من عيوب الطبع الخسيس، وهو طبع كل من رأى النور في ظل نظام استبدادي.

لم يطرأ على العادات حتى الآن تبدل يذكر، وذلك للبطء الشديد الذي تتغلغل فيه المؤثرات الأوروبية. فالرجال يضعون تلك العمائم التي نراها في الرسوم القديمة، عرضها ثلاثة أشبار ووزنها ست أو ثماني ليبرات. ويرتدون نوعاً من المعاطف الطويلة التي تصل حتى القدمين، وتكون في أغلب الأحيان مبطنة بفرو الوشق أو السمور أو السنجاب، وهي تحميهم في الصيف، كما يقولون، من حرارة الشمس وفي الشتاء من البرد. ومن عادة النساء طلاء وجوههن والتجول محجبات بصرامة. وفضلاً عما لا حصر له من زينات التطريز وكل أنواع المجوهرات، يضعن ما يشبه الحزام، بعرض راحة اليد، وهو مشغول من أنصاف

كرات مجوفة من الذهب بحجم قبضة اليد. ولكن، بدلاً من كل هذه الزينات، سيكون من المستحسن لو أن الجنس الجميل العربي امتلك مزيداً من عناصر الجاذبية الطبيعية. لأن الصمت، وعدم الحركة، وهذه الرتابة غير المعقولة في الوجوه التي لا تعبر عن أي شيء، لا يمكن لها أن تكون فاتنة إلا في حياة أناس مازال حسهم في مرحلة الطفولة.

ويمرر الرجال والنساء على السواء بين أهدابهم نوعاً من الدبابيس الفضية (المراود) المغمسة بمزيج من سواد الدخان مع سُلفور الأنتيمون (الكحل). ومثلما هي العادة عند بحارتنا وغير قليل من السجناء، يوشمون أجسادهم وأيديهم ووجوههم برسوم أو حروف مختلفة الأحجام، وذلك بخدش البشرة بإبرة ووضع مادة ملونة على الجرح. كما أنهم يلونون شعورهم وأظفارهم وأيديهم بالحناء، وهي أشياء منفرة في نظري. ولكن، على الرغم من كل هذه الغرائب، فإنهم يبدون سلالة متينة البنيان تماماً، وسليمة الأبدان، ومختلفة جداً عن أهالي البصرة، حتى عندما يتزوجون وهم في الحادية عشرة من العمر، وهو وضع يبدو الأبناء معه كأنهم أخوة آبائهم.

بعد هذه المسائل العامة، سأؤكد على مسألة متميزة. إنني أعني ما يسمونه، بصورة غير مناسبة، *حبة حلب*، وكان أحرى بهم أن يسموها *حبة ما بين النهرين*، ذلك أنه يمكن القول إن وجودها في حلب استثناء جغرافي.

ليس هناك من يفلت منها في هذه البلاد؛ فهي تترك ندبة، كبيرة أو صغيرةً، في الجميع. يبدأ هذا الورم على شكل حبة تكاد تكون غير مرئية للعين، ودون ألم، ثم تأخذ بالتطور شيئاً فشيئاً، وبعد ثلاثة شهور تنمو بصورة واضحة. وبعد ستة شهور تبلغ حدها الأقصى، ثم تتضاءل في فترة مماثلة مخلّفة إلى الأبد ندبة تكون أكبر كلما جرى حكها وتقيحت أكثر.

وتظهر الحبة دوماً في الوجه أو الأطراف، وخاصة في قمة الأنف؛ وهذه القاعدة عامة في الكلاب، الحيوان الوحيد الذي تمتد إليه. وهي تخلف في بعض الأشخاص ندبة بحجم حبة العدس، وفي آخرين بحجم قطعة عملة من فئة الدورو، وقد يصاب الشخص بحبة أو اثنتين، ويصاب غيره بخمس عشرة أو عشرين؛ ولكن من يصاب بحبة عادة، نادراً ما يصاب بأكثر، ومن غير المحتمل أن تتكرر إصابة من أصيب بها من قبل. وألمها يمكن تحمله، بالرغم من أن الحمى تصاحبها أحياناً. وقد تسبب الوفاة في أحيان أخرى، لكن ذلك نادر الحدوث جداً. وقد يصاب بها المرء ولا يشعر بذلك. وتظهر هذه القروح عادة في موسم نضج التمر، وهي فترة تشكل مرحلة عدوى حقيقية؛ ويكون ذلك في الفترة من تموز حتى أيلول. وهي تصيب الوطنيين عادة منذ الطفولة. أما الأجانب، فيصاب بعضهم في اليوم التالي لوصولهم، ويصاب بها آخرون بعد سنة من إقامتهم أو ربما بمجرد مرورهم بصورة عابرة وسريعة من هذه البلاد، وتتطور لديهم في بلاد أخرى مختلفة تماماً.

لا أحد يعرف سبب هذا الداء، وهم بالتالي يجهلون العلاج. هناك من يعزونه إلى الماء، ومن يعزونه إلى الهواء؛ ولكنها مجرد افتراضات مبهمة. وفي ميدان التجربة يوجد نوع من العلاج، ومع أنه ليس جديداً، إلا أنه غير معروف على نطاق واسع: إنه لقاح الكلب. لقد رأيت طفلاً في السادسة من عمره طُبق عليه التطعيم بعد شهور من ولادته، ولم يُصب حتى هذه السن التي هو فيها بالداء. يقال إن البدو يستخدمون الوسيلة التالية كي تكون آثار الحبة أصغر ما يمكن: عندما تظهر بداية الحبة، يأتون بآجرة ويكشطون منها بعض المسحوق، ويضعونه على القرحة، محاذرين من لمسها باليد؛ ولكنني أظن أن هذه الوسيلة تتيح لهم إبقاء الندبة صغيرة الحجم فقط.

ولا شك في أنهم إذا ما صمموا في أوروبا على التوصل إلى أسباب

هذه الجائحة، فإنهم سيكتشفونها. وأنا من جانبي، أقوم بجمع بعض القشور من دمامل مختلفة، وسأعرضها ذات يوم على أحد العلماء.

التفاصيل التي انتهيت من روايتها لا تعتبر خروجاً على الموضوع؛ ولكن لا بد لنا، مع ذلك، من التحدث عما هو أكثر جوهرية. وبما أننا نتحدث عن مدينة، فالجوهري هو الحديث عن تجارتها وثرواتها. ومن أجل تكوين فكرة دقيقة عن أهمية تجارة بغداد ومداها لا بد لنا قبل أي شيء آخر من توضيح طبوغرافية موقعها.

فهناك من جهة بلاد ما بين النهرين، وهي بلاد شبه مقفرة، تشكل ما يشبه الحدود، وتقطع أي اتصال تجاري؛ وهناك من جهة أخرى بلاد فارس، وقد استطاعت بغداد إقامة علاقات معها بفضل حركة مجيء أناس كثيرين للحج في هذه الأراضي. وهناك من جهة أخرى، أخيراً، نهر دجلة الغزير، ومنه تتدفق أكثر فأكثر النشاطات والثروات. وبغداد هي إذاً مركز اتصالات بلاد أكثر اتساعاً من إسبانيا. وهو وضع كافٍ لأن يوفر لأبنائها حياة خاصة ومريحة لولا منافسة الهند لها في موانئ بلاد فارس، وحتى في مدينة بغداد نفسها؛ وهي منافسة لا يقلل من شأنها برزخ السويس ولا أي شيء آخر. وفضلاً عن العمولة، أو المبادلات بالمقايضة، لأن المتاجرة تتم على هذا النحو، تمتلك بغداد موارد في أرضها بالذات، وكذلك من بعض الصناعات. وأورد هنا مجموعة من التفاصيل.

أهم مواد التصدير هي التالية:

الصوف المغسول أو دون غسل. فكل خروف من تلك التي تملأ السهوب، والتي وصفتها أثناء صعودي عبر دجلة، يعطي في الربيع تسع ليبرات من الصوف الذي يُصدر إلى أوروبا، وحتى إلى أميركا كذلك، بقيمة مليون ونصف مليون دورو. ويباع بستة دورو للبالة الواحدة المغسولة، ونصف هذا السعر لغير المغسولة.

التنباك (نبات يُدخن في النرجيلة) يُصدر من بغداد ومن فارس، ولكن هذه الأخيرة لا ترسل إلا تنباكاً من صنف ثانٍ، وهو مع ذلك أفخر من التنباك المنتج هنا. ومن هنا وهناك يوزع في أنحاء الإمبراطورية كلها. وتوفر هذه المادة للتجار ربحاً يساوي ثلاثين بالمئة من قيمتها.

وكمواد ثانوية يمكن ذكر التمور، وجوز الطيب وصمغ الكُثيراء. ومن منتجات الهند التي تصدر عبر بغداد، هناك النيلة التي تدر أرباحاً وفيرة للتجارة.

وموسم الأعمال التجارية الكبرى يكون في بداية السنة الهجرية، في شهر محرم (وهو يتوافق الآن مع شهر نيسان)، إذ تتوافد حشود الحجاج الإيرانيين الذين تصل أعدادهم إلى مئتي ألف، يأتون لزيارة مراقد أوليائهم. وهدف الزيارة ديني محض، لكن ذلك لا يمنع أن يكون له طابع السوق أيضاً، إذ يُحضر الزائرون معهم شالات وحرائر مشهورة وسجاجيد وأحجاراً كريمة يشكل الفيروز الجزء الأكبر منها، وأسلحة بيضاء وقصب للرماح، وغيرها. ويحملون معهم عند العودة ما يساوي قيمة بضاعتهم من المنتجات الأوروبية. وبهدف تنشيط هذه الحركة التجارية، أظن أن الحكومة التركية تُسهل زيارات الحجيج من شيعة علي إلى النجف وكربلاء، ولا تكتفي الحكومة بعدم وضع العراقيل، بل تسعى إلى تذليل بعض العقبات التي يمكن أن تظهر.

عمليات الاستيراد التي تجريها أوروبا من هنا يمكن اختزالها في كلمتين بالقول إنه من كل عشر وحدات يجري التفاوض عليها، تذهب سبع منها إلى إنكلترا، واثنتان إلى سويسرا، وواحدة إلى فرنسا. أما التصدير إلى أوروبا فيذهب كله تقريباً إلى فرنسا. وتُدفع على المواد المستوردة رسوم تتراوح من خمسة إلى عشرة بالمئة، وأربعة بالمئة على المواد المصدرة. ويتلقى التجار ربحاً وسطياً يساوي ثلاثة بالمئة كعمولات.

أما أعمال النقل فتتم على الجمال، بقيمة خمسة عشر دورو

لكل ست عشرة بالة من هنا إلى دمشق، وبسعر أعلى قليلاً إلى الإسكندرية. وتُنقل البضائع عبر طريقين: مباشرة إلى دمشق ضمن إحدى القوافل السنوية الأربع الكبرى المؤلفة من ثلاثة آلاف جمل، أو عبر الموصل وحلب. أما البضائع الآتية من أوروبا، فتصل إلى ديار بكر أو الموصل، ومن هناك تُنقل في النهر إلى أسفل.

صناعة بغداد تتألف من صنع الكوفيات والأحزمة، والمطرزات الذهبية للرجال والسيدات، وليس هناك مكان في العالم تُغزل فيه الخيوط المطعمة بالذهب أفضل من بغداد وحلب. وهذه المنتجات توزع في تركيا وتلقى رواجاً كبيراً لتواضع سعرها وإتقان صنعتها. والكوفيات المصنوعة بصورة خاصة من حرير فارسي، وهو أفضل بكثير من حرير لبنان، تُستخدم بالطريقة نفسها في مدن الساحل، ولها بريق غير معروف في مناطق أخرى، ربما بسبب جفاف الجو، وربما أيضاً بسبب نوعية الماء. ويصنعون في بغداد كذلك خمراً من التمر، وهو مشروب واسع الشهرة، يفضله البعض على خمر تشيو؛ وينتجون نبيذاً أحمر يباع ببزتا واحدة للقارورة، ونبيذاً أبيض بالسعر نفسه، وهما شبيهان جداً بالأنبذة العادية عندنا، ولكنهما أشد كثافة منها. وهناك «مَنٌّ» ميسوبوتاميا الذي يترسب على شكل ندى خلال الصيف في مناطق شاسعة، فينظفونه بزلال البيض ثم يُخلط باللوز ويعرض للبيع في السوق على شكل أقراص متنوعة الأحجام. وهو يستخدم أيضاً بديلاً للسكر.

هذا باختصار ما أرى ضرورة عرضه حول تجارة بغداد. ربما كان البعض يفضلون أن أرسم جدولاً إحصائياً أو شيئاً من هذا القبيل؛ ولكن، فضلاً عن أنه من الصعب وضع مثل هذا الجدول دون الوقوع في أخطاء فاحشة، لدي قناعة بأن الجداول توضع للحفظ، ولكنها لا تُقرأ.

ويقيم هنا والٍ، وهو أشبه بنائب للملك في ميسوبوتاميا كلها، يتمتع بسلطات غير محدودة، بل كانت له، حتى بداية القرن، صلاحية

سك العملة. والوالي الحالي يدعى مدحت باشا ، وهو رجل يفوق نشاطه ذكاءه، وقد وصل إلى المدينة منذ شهر ونصف يرافقه نحو مئة من الموظفين المهيئين على شاكلة الشبيبة الفرنسية الحالية ، ومن خلال ما أنجزه خلال هذا الوقت القصير، تولد لدي فضول لمعرفة النتائج التي ستتوصل إليها إدارته، إذا ما استمرت، بين أناس بالغي الروتينية والرتابة ، ومعادين جداً للتجديد بقدر عدائهم للسلطات التركية.

قدمني إليه رفيقي في الرحلة الكولونيل مسعود بك، ونلت مكرمة الاستقبال الذي يمنح للأجانب القليلين الذين يزورون بغداد. حين رآني نهض واقفاً عن الأريكة حيث كان يكتب متكئاً. وخلافاً للعرف الذي يُحرّم على المسلمين النهوض أمام مسيحي، حذا حذوه الأشخاص المحيطون به. وبعد التحيات المعهودة قدموا غلايين تدخين طويلة من الياسمين، لها مباسم بديعة من العنبر، موشاة بالماس والياقوت، وجاءت بعد ذلك القهوة المعهودة في فناجين صغيرة، موضوعة في كؤوس شبكية من الذهب. وأخيراً ، قدموا الحلوى والليمونادة في صوان فضية مصنوعة في أوروبا. هذا الترف الذي يتناقض تناقضاً كبيراً مع بؤس الشعب، يمكن تفسيره بصورة دقيقة إذا ما علمنا أن الحاكم العام يتقاضى راتباً قدره مئة ألف دورو سنوياً ، دون حساب الملحقات الإضافية.

وسعادته نصير متحمس لعاداتنا الأوروبية وأعرافنا ، وعلى قناعة مثل الجميع بأن التعصب وانعدام الاتصالات السريعة هما العقبتان الكبيرتان اللتان يتوجب تجاوزهما بالحسنى أو الإكراه، وقد بدأ بتقويض أولهما وفرض قبضة قوية على الثاني.

فعندما خرج لاستقباله أعيان المدينة ، وكان في الصف الأول منهم النقيب، وهو الزعيم الديني، المتحدر من سلالة النبي ومالك *شعرة* من شعره؛ اقترب لمصافحة الحاكم، لكن هذا رد على مجاملاته دون أن يترجل، وتركه يواصل السير راجلاً إلى أن دخلوا المدينة.

عدم توقير بهذا الحجم نحو شخص يُحترم كما لو أن به نوعاً من القداسة، وفوق ذلك مصادرة ممتلكاته التي تقدر بمليوني دورو، أصاب الناس بحالة من الغليان إلى حدّ صار يُخشى معه من الثورة. ويؤكدون علناً أن الباشا فضّل المسيحيين على المؤمنين أتباع القرآن، وأنه لا يذهب إلى المسجد في أيام الجمعة، ويشرب الخمر، وغير ذلك. وقد قرر الحاكم من جانبه العمل بحزم في حالة حدوث شغب، مستنداً بذلك على قواته الخاصة، إضافة إلى مئتي شركسي مسلحين جيداً جاء بهم معه، وهم يقومون هنا بالدور نفسه الذي يمارسه الوهابيون في مسقط.

وقد أخبروني ليلة أول أمس بأن الثورة كانت ستندلع لولا بعض الانقسامات التي برزت بين السكان أنفسهم. فالبعض يقولون إنه لا وجود لأي صله قرابة بين *النقيب* وشخص يدعى عبد القادر كان مشهوراً جداً في القرن السادس عشر، وبالتالي ليس هناك قرابة تربطه بالخلفاء أو بالنبي.

وحول هذه المسألة يروون أنه منذ خمسة عشر عاماً توفي آخر زعماء المدينة الدينيين دون أن يكون له خلف؛ وأن امرأته مثلت عندئذ بين يدي الباشا، وأقسمت أنها سمعت في أحلامها أن *النقيب* الحالي يجب أن يخلف المتوفى، وأن تصير هي زوجة له. ويقولون إن الباشا تقبل ذلك، ولهذا السبب هناك من يؤكدون أنه يمكن للحكومة أن تستبدل *النقيب*، مادام لم يثبت أنه من سلالة النبي محمد.

ولكن على افتراض أن الشعب أذعن بهدوء لرؤية تهاوي ممارساته وتقاليده القديمة، سننظر في مشاريع الوالي التي عرضها عليّ هو نفسه، ونتفحصها بما تستحقه من اهتمام.

تتلخص مشاريعه في مشروعين اثنين. وكلاهما يهدف إلى

الوصل بين دجلة والفرات، كعمل أولي لفتح الاتصال المباشر بين البحر المتوسط والخليج الفارسي للمنافسة مع برزخ السويس.

إنني أوافق بكل تأكيد على أن كل ما هو ضروري لبلوغ تلك النتيجة قد أُعد وهُيِّئ؛ فمن إسكندرونة إلى البصرة يتطلب الانتقال، مروراً ببغداد، سبعة أيام، وثمانية أيام أخرى للوصول إلى بومباي، ولا بد لنا من القول إن ذلك يتطلب قطع أحد عشر ميلاً في الساعة. حسن إذاً، إذا ما اعتبرنا أن هذه الفرضية ستكون مواتية تماماً في كل فصول السنة، فإن ذلك يعني استغراق الوقت نفسه للوصول من السويس إلى بومباي. وإذا ما أضفنا أنه يتوجب تفريغ بضائع الهند وتحميلها مرة في إسكندرونة ومرة أخرى في أبو جلجل، وهو ميناء على الفرات، فإنه يمكن لأي كان أن يدرك أن تجارة الغرب الأوروبي لن تجد أي منفعة في إتباع هذا الطريق.

ولننظر الآن، فوق ذلك، بالأعمال التي يتطلبها شق هذا الطريق. لابد في المقام الأول من مدّ سكة حديد من إسكندرونة حتى «أبو جلجل»، في الوقت الذي لم تتمكن فيه الحكومة التركية، بعد انقضاء ثلاث سنوات، من شق طريق عام حتى مدينة حلب، فمن الذي سيصدق أمر الخط الحديدي؟ وفي المكان الثاني، تواجه التحكم بمجرى نهر الفرات، حسب ما نستخلصه من الرواية التي أعدها الكولونيل شيسناي قبل ثلاثين سنة، صعوبات جدية، ليس فقط بسبب الجنادل الكثيرة، وإنما كذلك بسبب المصاطب الرملية التي تتراكم في بعض المقاطع وتحوّل مجرى النهر؛ بحيث أرى أنه سيكون لابد على الأقل من جرافتين أضخم حجماً من تلك المستخدمة في برزخ السويس، من أجل التوصل إلى نتائج إيجابية، وأعداد معتبرة من القوات العسكرية لضبط البدو الذين هم على الدوام أعداء ما يجهلونه.

وباختصار، أظن أن الحكومة التركية لن تستطيع أبداً إقامة اتصال مباشر بين البحر المتوسط والخليج؛ ومن أجل تحقيق ذلك لابد للأوروبيين من أن يحتلوا هذه البلاد، وحتى في هذه الحالة، ستكون الفائدة محلية محضة. وبالنتيجة، مازال وصل دجلة والفرات أمراً ضئيل الفائدة. ومع ذلك، فلننظر ما يريدون عمله.

لقد قلت إن هناك مشروعين لدى الحاكم الحالي: يتمثل الأول في إقامة خط حديدي من بغداد إلى الحلة (72 كيلومتر)، ومن هنا إلى كربلاء (25 كيلومتر)؛ ويتمثل الثاني في شق قناة من هذه المدينة بالذات إلى الفرات، وستكون بطول خمسين كيلومتراً، وهي أقصر مسافة بين النهرين. المصاعب قليلة جداً في إقامة سكك الحديد؛ فالأرض مستوية، ونوعية التربة تسمح بكل تأكيد في وضع العوارض. أما بالنسبة لمواد الوقود، فبالنظر إلى عدم وجود الحطب، توجد وفرة من القار الصلب والسائل وينابيع نفط وبترول على امتداد مجرى دجلة وفي جبال حمرين الممتدة على الطريق إلى الموصل. ومن السهل أيضاً شق القناة بين النهرين. فقد وجدت في أزمنة قديمة باسم *قناة الصقلاوية*، ولكنها في العصور الوسطى انقطعت في عدة أماكن، مشكلة إلى الغرب من بغداد بحيرة هائلة تُلحق أضراراً كبيرة بالمدينة بسبب تأثيراتها الوبيلة. ومن أجل التخلص من ذلك الوضع غير الملائم، أقيم في العام 1853 سد ضخم على الفرات أدى إلى تجفيف البحيرة، وقد اختُزلت اليوم أعمال تصريف قناة الصقلاوية على إقامة مصرف مزدوج. إن وصل النهرين المشهورين إذاً سهل التحقيق سواء عبر الماء أو اليابسة.

لقد رأيت التحضير للأعمال التي ستبدأ؛ ولكن أي فائدة ستوفرها؟ إنها فوائد بائسة للتجارة. وما إن تفتح الخريطة حتى تتأكد من ذلك. ومن أين ستأتي تكاليفها وتتواصل صيانتها؟ أمما

يقدمه الفرس في مجيئهم لزيارة مراقد أوليائهم؟ مثلما قال لي الوالي. ويمكن للقارئ أن يقدر مثل هذه الموارد بالمقارنة مع تكاليف العمل.

لقد أسس الوالي في هذه الأيام القليلة مؤسسة بالغة النفع، حيث يؤخذ أطفال الأسر الفقيرة الأيتام ويُعلمون القراءة والكتابة، ومهنة يعتاشون منها. وهناك مؤسسة أخرى ستكون أقل نفعاً بكثير: إنها كازينو - أُطلق عليه اسم *التقدم* - تقدم فيه، فضلاً عن أشياء أخرى، حفلة رقص كبرى كل شهر، في محاولة لإبعاد النساء العربيات عن اهتماماتهن القديمة. ولا بد من القول أيضاً إن سيادته قد نظم الأمور المالية، وأعاد تنظيم الإدارة والجيش، وبدأ أعمالاً أخرى عديدة ذات نفع عام، كرصف الشوارع والطرق، والإنارة بالغاز، وغيرها.

وقبل أن انتهي لا أستطيع إلا أن أتجاهل كل ما يحيط بي، كي أعيد النظر إلى تلك الأزمنة التي كانت فيها بغداد، *الزوراء* - وتسمى بهذا الاسم لأبوابها المزدوجة، الداخلية منها مغطاة بالخارجية - *دار السلام، دار الخلافة، معقل الأولياء*، داراً للسلطة والمعرفة، وكي أحاول أن أكتشف فيها دليلاً على شهرتها المستحقة.

ومهما بحثت لا أجد ما هو قديم سوى دجلة الفضي، فمياهه النظيفة تعكس قِدم المدينة وتصور حداثتها على السواء. حتى موقعها قد تغير، ففي القديم كان سكانها كلهم تقريباً يعيشون على الضفة الغربية للنهر، بينما يحدث الآن العكس تماماً. مازالت تنتصب مئذنة شهدت التأسيس على يد المنصور، قبل أحد عشر قرناً، وكتابة محفوظة على جدار مطبخ المدرسة الملحقة بمقر الخلفاء. وقد جرى ترميمها قبل أربع سنوات بإضافات لا تنسجم مع الأصل، ويمكن قراءتها من السفينة نفسها، لأنها مكتوبة بحروف كبيرة، وفي سطر واحد، فوق واجهة الجمارك. وتقول ما يلي: «ما شاء الله. - باسم الله

الرحمن الرحيم. ـ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ـ درس هنا عبد الله بن جعفر المنصور؛ وهو ينتظر العباسيين، بصحبة الله، منذ العام 630. ـ رمم هذا البناء ظل الله الأعظم بهذه العظمة، فليحط ظله كل خلق الله...»

هناك في الترسانة أشياء مهملة نوليها نحن أهمية كبيرة، ولكنهم لا يقدرونها ولا يعرفون أصلها. إنها دروع محاربين عرب قديمة: خوذ، وقاذوفات، وسهام، وتروس برونزية وحراب، وسيوف ثقيلة من تلك التي تقطع سبطانات البنادق، والكثير من الدبابيس والهراوى الحديدة. وكلها كمتآكلة ومهجورة. وكيلا يعزو القارئ إلى نسيان أو إهمال من جانبي عدم وصف الآثار القديمة التي يظن أنها موجودة في بغداد، من المناسب تقديم عرض سريع لبعض تحولاتها الكبرى.

أسسها في العام 765 المنصور، الخليفة الثاني في الأسرة العباسية، وتقول سمعتها، حسب توافق سعيد للنجوم، إن أياً من ملوكها الستة والثلاثين لم يمت فيها.

ومع ذلك، مع مجيء ساعات جنكيز خان إلى العالم، دخل أحد قادته، المدعو هولاكو، إلى بغداد، ووضع على الفور شعار التتار المفضل موضع التطبيق: «بما أنه لا يمكن للمهزومين أن يتحولوا أبداً إلى أصدقاء للمنتصرين، فإن موت الفئة الأولى ضروري من أجل أمن الفئة الثانية.» عندئذ قُوضت قصور الخلفاء، وضرائحهم وضرائح ألف من الأولياء المبجلين.

ما كادت تمر تلك العاصفة الأولى، وتبدأ المدينة بالانبعاث من جديد بعد بعض الوقت تحت حكم سلالة الخانات المغولية وأمراء *الخروف الأسود والخروف الأبيض*، حتى انقض عليها فجأة تيمورلنك الذي كان على كل واحد من جنوده، كما هو معروف، أن يقدم رأساً

معادياً، كي يتمكن من إنقاذ رأسه. تحولت بغداد إلى أكوام من الجماجم، ولا بد أن مواصلة تسميتها دار السلام بدت ضرباً من السخرية في نظر قلة الأيتام المتبقين فيها، فأبدلوا اسمها إلى **قصر جهنم**.

ولم يتمكن الفرس ولا الأتراك من السيطرة على عاصمة ما بين النهرين، عندما قام الشاه صافي كولي جان، في العام 1623، بعد أن حاصرها واستولى عليها، بذبح مئات السنة، وبعض من رفضوا أن يلعنوا اسم عمر، وتعليقهم على أشجار النخيل، بحبل يمر من الخدين. وأخيراً، في العام 1638، وبعد أربعين يوماً من الحصار، أعاد مراد الرابع المدينة إلى سلطة السلاطين الأتراك. وقبل أن يغادرها، وجد الذريعة كي يذبح ثلاثين ألف شيعي، في الوقت نفسه الذي كان فيه الإيرلنديون يقتلون أربعين ألف إنكليزي. لقد كانت رهيبة حرب الثلاثين عاماً تلك! سيل الطغيان والشقاق الديني الموبوء يسمم أجواء الشرق والغرب، ويتحول إلى بحار دم من دجلة حتى نهر شَنون!

وكما في كل المدن العربية، توجد هنا حكايات، وأساطير، ونبوءات تفاؤل وتشاؤم، وغيرها. وسوف أورد واحدة رواها لي عدة أشخاص، لأنها الأكثر رواجاً في هذا الوقت.

من البوابات الأربع الموجودة في الأسوار، يُطلق على البوابة الغربية اسم الباب المسدود، وهو مسدود بالفعل. ويبدو أن الفرس بعد سيطرتهم على المدينة في مطلع القرن السابع عشر، مثلما قلنا قبل قليل، اهتموا اهتماماً بالغاً بقطع كل الاتصالات، كي لا يصل هذا الخبر إلى القسطنطينية. ولكن، على الرغم من ذلك، انتشر الخبر بعد بعض الوقت، وهرع مراد الرابع على عجل. ويقال إنه استولى على المدينة بالحيلة، بنوع من مدفع بدائي، مازال محفوظاً عند مدخل إحدى الثكنات؛ فطرد الفرس، وأعاد الأمن والنظام وقرر المغادرة. وأثناء

خروجه من البوابة المذكورة، كانت هناك حَيَّتان تتصارعان، فانفصلتا مفسحتين له الطريق؛ وهكذا استنتج العرب أنه يجب ألا يمر أحد بعد ذلك اليوم من المكان الذي مرّ منه مثل ذلك الرجل الاستثنائي الذي تبجله حتى الزواحف. سدوا البوابة، ونزعوا الجسر المعلق الذي كان هناك، ونحتوا حول القوس المشار إليه حَيَّتين بطول متر ونصف المتر، وقد أكدوا لي أن البيوت المحاذية يسكنها أشد المتعصبين.

إنكلترا مُمَثّلة هنا بوزير مقيم، تدفع له المتروبول وصندوق الهند. وفرنسا ممثلة بقنصل من الدرجة الثانية، وفارس بقنصل عام. ولدى الوزير الإنكليزي عشرون إنكشارياً واثنا عشر خادماً من بومباي، يوفرون له الحراسة، ويحصل على راتب سنوي قدره عشرون ألف دورو، ولديه فوق ذلك أربعة مدافع، وزورق بخاري بمروحة عند باب بيته.

هنا تنتهي الملاحظات التي توصلت إليها خلال ثمانية أيام من الإقامة اللطيفة بين هؤلاء الناس المضيافين.

ولو أنني كنت في بيتي، هادئاً، ومحاطاً بكتبي، دون أي نوع من القلق أو الهم، لاستطعت أن أضيف معلومات مهمة أرصع بها وصفي لهذه العاصمة التي ندين لها نحن الإسبان بالكثير، لأنها أم مدارس الأمويين في الأندلس. ولكنني في هذه الحال، وأنا في الرحلة، أتناول الريشة، وأتركها، وأعود لتناولها من جديد، أجد أنه لا بد من تقديم إشارات سريعة وعابرة إلى الماضي والاكتفاء بوصف ما أراه.

V

آثار بابل

الحلة، الأول من تموز 1869

أظن أنه من المستحيل البقاء في بغداد بضعة أيام دون أن يشعر المرء بدافع قوي يدفعه للقيام بزيارة بقايا بابل المشهورة. إذ يمكن للأصدقاء أن يقولوا له إنه ضيع ذلك الوقت، وإن كل ما يراه لا يمكن أن يعوض إرهاق السفر، وإنه غير مجدٍ. فمازال لدينا شيء من الاحترام، وهو جدير بالثناء في الواقع، تجاه كل ما يلف وجود أسلافنا القدماء. وقد توفر لدي هذا الاحترام على الدوام، وسأظل أحتفظ به. ومدفوعاً به، هيأت ما هو ضروري لرحلتي؛ فاتخذت دليلاً، وجماعة صغيرة من الحراس، ليس بسبب الحاجة إليهم، وإنما لأن وضعي الرسمي يفرض عليّ ذلك في هذه البلدان. وفي يوم السابع والعشرين من الشهر الماضي، الساعة السادسة مساء، يرافقني عدد كبير من الأشخاص الذين تعرفت عليهم خلال أيام قليلة، اجتزت نهر دجلة، وبعد ذلك باب الظلمات، وأخيراً نهر الخور، حيث ودعوني.

سرت باتجاه الجنوب، في منطقة قاحلة ومنبسطة كراحة اليد، متبعاً الدروب التي مهدتها أقدام البشر والدواب إلى أن تحددت بوضوح وتميز على الرمال. وبعد قليل لحقت بتجار متوجهين أيضاً إلى الحلة لبيع جلود. كانوا يمتطون حميراً بيضاء، لكنها خفيفة جداً بحيث تطلب اللحاق بهم جهداً من خيولنا، ولو لم يُبدوا هم أنفسهم بكل تأكيد رغبة بالانضمام إلى حراسي؛ ومن المناسب التنويه إلى

أنه كلما اجتمع أناس أكثر، تكون الحال أفضل، بالرغم من أن الطريق شبه آمن من الأشرار، لكنه ليس كذلك بالنسبة لبعض الضواري، مثل بنات آوى، وذئاب، وحتى نمور وأسود.

أرخى الليل سدوله علينا؛ وفي اتساع السماء الفسيحة كان يلمع القمر وآلاف النجوم، عندما التقينا بقافلة أخرى مؤلفة من عدد من الفرس القادمين من أصفهان، وكانوا يقودون بضعاً وثلاثين حصاناً محملة بالجثث لدفنها في النجف وكربلاء. وهذه عادة متبعة بصرامة في بلاد فارس. فعندما يموت الشيعة، يتوجب دفنهم هناك حيث يرقد الإمام الأعظم علي أو ابنه الحسين، كي يكفروا عن خطاياهم. وإذا لم تسمح الظروف أو ضيق ذات اليد بدفع تكاليف رحلة ما بعد الموت، فإن هناك على الدوام قريباً أو صديقاً يجمع، عاجلاً أو آجلاً، رفات كثيرين، ويرسلها معاً. ولا يذهب الظن إلى أن جميع الأماكن في المقبرة متساوية. لا، فكلما كان المكان أقرب إلى أحد الضرائح المقدسة، يكون الثمن الذي يُدفع مقابل قطعة الأرض أكبر. وهناك من يدفعون ألفي دورو ليكونوا أقرب، وبهذا يُعتقد أن المغفرة ستكون مؤكدة. ويقيم في المقابر عشرون شيخاً شيعياً، يقومون على العناية بها، ويوزعون على الفقراء ما يفيض من المبالغ التي يتقاضونها.

أتذكر أنه على بُعد ساعة من دمشق يوجد مقام زينب، ابنة علي، حيث يُدفن كذلك الفرس الذين يفاجئهم الموت هناك.

هذا هو إذاً سبب وجود تلك الحمولة البشرية الفريدة التي أتحدث عنها في هذه الدروب، وفي كل مراحل السنة. كنت أود أن أسأل من يقودون القافلة عن أحداث رحلتهم الطويلة، ولكنهم كانوا قد حملوا معهم، لدى مرورهم ببغداد، امرأتين توفيتا في اليوم السابق، وكان الجسدان سيئا التعبئة في صندوق غير محكم، يطلقان رائحة شديدة النتانة، ولكي لا أسقط عن الحصان من الغثيان، همزته

بالمهماز وخلّفت ورائي تلك المقبرة الجوالة وأنا أفكر بعادات البشر الكثيرة التي كلما عرفتها أكثر ازداد عجبي.

في الساعة التاسعة توقفت نصف ساعة في خان المحمودية؛ ولكن اكتظاظه بالنزلاء جعلني أفضل الذهاب إلى أحد الأكواخ، حيث كانوا في الوقت نفسه يخبزون الخبز. ولم أكن قد تناولت طعاماً منذ الساعة الواحدة؛ فشعرت بأنني مستعد لتذوقه، والحقيقة أن مذاقه الطيب لا يتوافق مع طريقة صنعه.

يعجنون قدراً من الدقيق مع الماء في معجن، ويأخذون منه قطعاً صغيرة، يضربونها بالأكف إلى أن تتخذ شكل أقراص رقيقة جداً، قطرها حوالي قدم؛ وضربها بالأكف يشكل إيقاعاً للمغنين حول الفرن. وبين حين وآخر يبللون الأيدي بماء مملح، وأخيراً يُلصقون قطعة العجين المرقوق في ما يشبه أنبوباً مدوراً، مصنوعاً من الطين وغاطساً في الأرض. يبلغ قطره نحو خمسين سنتمتراً، وعمقه أكثر من ذلك بقليل: في القسم السفلي يشعلون قطع حطب وأغصان، بحيث تنضج الأرغفة عند إلصاقها بالأنبوب من الجانبين معاً: الجانب السفلي من ملامسة الأنبوب المتوقد، والعلوي من ملامسة اللهب مباشرة؛ يقلبونه ثلاث أو أربع مرات ويخرجونه. وعندئذ يكون في أفضل مذاق له.

امتطيت الحصان مجدداً، وليس دون صعوبة، لأنني لم أركب الخيل منذ زمن. وكنت أجد نفسي مخدراً إلى حدّ كبير، وواصلت طريقي حتى وصلت إلى خان حاجو، وكان ذلك في الثانية عشرة ليلاً. وهناك تناولت حليب ناقة قدمته لي بعض البدويات اللواتي استيقظن على نباح الكلاب، حارسة خيامهن. وواصلت المسير خبباً حتى الساعة الخامسة فجراً، وهو الوقت الذي دخلت فيه إلى خان المحاويل على بعد أربع ساعات ونصف عن خان حاجو. ولهذا الخان مظهر قرية في وسط الصحراء، بفضل الأكواخ وبعض الخضرة القليلة المحيطة به، ويشبه

تماماً الخانات التي خلّفتها ورائي. فهو يتألف من فناء مساحته ثلاثون أو أربعون متراً مربعاً، محاط بأربعة جدران عريضة وسميكة، وفيه تتولى حجرات متماثلة على شكل كوى، حيث يمكن إيواء ثلاثة مسافرين. وفي المدخل توجد الإسطبلات، وفي أحد أركان البناء المطبخ وبئر الماء.

جميع الخانات الموجودة بين بغداد والحلة، بل حتى ضريحي علي والحسين، هي *وقف*، أو تركة خيرية. يتوجب على أسرة المحسن المتوفى تولى الإنفاق عليها من المبالغ المرصودة مسبقاً لهذا الغرض، وإذا لم تكن تلك المبالغ كافية، فعلى أعضاء الأسرة المذكورة أن يتنازلوا، مرة واحدة في حياتهم على الأقل، عن عُشر ما يكسبونه خلال عام. ولابد من السفر في مثل هذه البلدان للعرفان بالجميل الذي يستحقه مؤسسو مثل هذه البيوت، حيث يمكن للمسافر المنهوك الاحتماء من الشمس الحارقة، أو من الماء أو الريح، دون أن يدفع شيئاً، ودون أي واجبات أخرى سوى قراءة *الفاتحة* لدى الدخول، وهي التالية: «باسم الله الرحمن الرحيم. ـ الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم. ولا الضالين. *آمين*».

كنت راغباً في نيل قسط من الراحة في المحاويل، لكنني كنت أخشى من جانب آخر إضاعة ساعات الصباح، وهي الوحيدة التي يمكن السير خلالها نهاراً في هذا الفصل. وباستياء من مرافقيّ، واصلت السير قُدما؛ ولكن ليس قبل أن أتبادل الكلام مع بدويين يعرفان المنطقة التي هي موضع فضولي.

بعد دقائق قليلة اجتزت جدولين يلتقيان هناك ليصبا في الفرات، وبعد ذلك، وباجتياز المنحدرات التي تُضَيّق انهدام وادٍ، أشار الجميع معاً إلى تل ينتصب أمامي، في البعيد؛ وكرروا عدة مرات صائحين: بابل! بابل!

صعقتني الذكرى على وقع تلك الأصوات، فرأيت انتصاب الأسوار الضخمة والتحصينات الهائلة التي تحيط بمدينة «بل»؛ وسمعت رجع صوت أدوات مليونين من الصناع المنهمكين في بناء المعابد وقصور سمير أميس. يشيدون هنا جسوراً وسراديب تحت أرضية. ويرفعون هناك مياه النهر أو يحوّلون مسارها. وينكبون في كل مكان على نحت تماثيل مكرسة لتخليد سمعة البابليين وثرواتهم وأبطالهم وآلهتهم... يدخل نبوخذنصر وهو يسوق ملوكاً وأحباراً وأنبياء... يا لتقلبات الحظ! تأتي هجمات كورش، ها هي تقترب. حفلات تتويج. غضبات داريوس واحشويرش الماحقة... الجميع ينحنون باحترام أمام ذاك الذي كان ملك العالم... جحافل النَبَّالة البارثيين. غارات صاخبة يشنها المسلمون، والفرس، والترك، ويجهزون على كل ما لا يزال حياً على هذه الأرض، أمسٌ غني ومزدهر، وحاضر بائس بلا ثراء.

غير أن الاستذكار المحتم لماض يرجع إلى أربعين قرناً، راح يتلاشى من ذهني، متيحاً لي التركيز على الواقع، وبالتحديد على الهدف الذي جاء بي إلى هنا، ألا وهو التسجيل والاستنساخ الأمين لكل ما أجده في طريقي.

الوادي الذي أشرت إليه يمضي باتجاه مستقيم من الشرق إلى الغرب، وهو جاف، في هذا الفصل على الأقل، وأبعاده هي ثلاثة أمتار عرضاً ومثلها عمقاً. والهضبة التي تحده من الجنوب يصل ارتفاعها إلى نحو ستة أمتار، وهي عمل اصطناعي بكل تأكيد؛ وبالتالي فإن هذا الخندق هو نفسه الذي كان يحيط بسور المدينة الذي تداعت أسسه ولحق بها الدمار، وراحت تملأ في الوقت نفسه الحفرة. ولكن ذلك لم يكن هو الدليل الوحيد الذي استنتجتُ من خلاله أن عتبات العاصمة العظيمة كانت هناك. فثمة اختلاف بارز بين الأرض التي خلّفتها في مسيري وتلك التي أمامي: في الخلف بطاح الصحراء الرملية؛ وأمامي،

فـي اتـساع فـسيح، هنـاك نـوع مـن الـتلال أو أكـوام الـتراب ذات اللـون الـضارب إلى الحمـرة، ذراهـا مـدورة بـصورة خفـيفة، والـسفوح مـستوية، وبارتفاعات مختلفة، تتراوح كما رأيت بين خمسة وعشرة أمتـار، ومثـلها عنـد القاعـدة. عنـد إرادة رسـم هـذه الكتـل الترابيـة علـى الـورق، تخلـف خطوطاً مستقيمة، وأحياناً متوازية، أو يتعامد بعضها مع بعض، وهذا مع ملاحظة عدم انتظـام وخـداع دائمـين فـي التـوزع. وإذا مـا أعملنـا المعـول أو الرفش، فإننا نجد طوباً يكون أقل تفتتاً كلما تعمقنا أكثر. كل هـذه التفاصيل تـبين أن مدينـة بابـل قـد بنيـت بـالطوب المجفـف تحـت الـشمس وحـسب؛ حتـى إنـه يُعثـر، عنـد تفتيـت الطـوب، علـى فتـات قـش نباتـات مختلفة، ولو أنها آجر، لكان ذلك الفتات قد تفحم.

ويمكـن تفسير استخدام البابليين للطوب بعدم وجـود الحجـر فـي سهول كلدان الصلصالية، أو فـي أجزاء كبيرة منها على الأقل.

فـي الـساعة الـسابعة وصلتُ إلى الكتلـة الـضخمة الـتي لهـا شـكل هـرم مقطـوع، والـتي أشـار إليهـا المرافقـون العـرب عنـدما صـاحوا: بابـل! ولكـن، كـان علـيّ قبـل ذلـك القيـام بالتفافـة واسـعة، بـسبب القنـاة الـتي تطوقها من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وهـي واحـدة مـن قنـوات كـثيرة كانـت تغمـر هـذه الأراضـي وترطبهـا. ويبلـغ محـيط الكتلـة الـضخمة حـوالي سـتمئة خطـوة وارتفاعهـا نحـو أربعـين مـتراً، وتتـألف مـن عـدة أقسام ممتلئـة إلى هـذا الحـد أو ذاك بالأنقـاض، يظهـر بينهـا نـسيج أسوار يرتفع بعضها حتى عشرين متراً، وبعضها متصل بـأبواب مـستطلية؛ ولكن الأرضية لا تظهر في أي مكان. معظم الطوب مغطى بطبقـة مـن الإسـفلت[1] الهـدف منهـا حفـظ المـادة الصلـصالية قـدر الإمكـان. وبـدن الجدارن، وهـي فـي الحقيقة سميكة جداً، يتألف من طبقات من الطوب

---

[1] هـذا القـار يتـوافر بكـثرة فـي الـبلاد، ولكنـه متـوافر بـصورة خاصـة فـي الحلـة، الواقعة على ضفة الفرات، وعلى بعد مئة كيلومتر إلى الشمال من هذا الموقع.

تتخللها طبقات أو دعائم من القصب أو الخشب المطلي بالقطران، بهدف منح البناء تماسكاً وترابطاً؛ غير أن الواجهة تقدم طوباً مربعاً طول ضلعه 0,35 م وسماكته 0,08 م، عليها كتابات مسمارية مرسومة بدقة باهرة، وجيدة النقش، ويبدو واضحاً أن قالباً قد أستُخدم في صنعها؛ والجزء المكتوب يشغل في المنتصف ثلث سطح الطوبة فقط؛ والحروف، وهي تمثل كما هو معروف، سهماً يتجه رأسه نحو اليمين أو الأسفل، على عكس ما كانت عليه الحال في فارس القديمة، حيث كانت جميعها تتجه نحو اليمين، وطولها تسعة مليمترات وتملأ ستة أو ثمانية أسطر، باسم الملك الذي بناها، واسم أبيه، وذكر بعض أبرز أعماله. وقد رأيت اليوم بالذات، في الخان الذي أنزل فيه، قطعتي طوب على أحد جانبيهما كتابة قد تكون اسم أحد المعماريين.

وسط أكوام الأنقاض التي تغطي أحد الأقسام في الجانب الشرقي، عثرت على عدة قطع من الآجر المزجج ذات لون مائل إلى الخضرة، لا شك في أنها كانت تشكل زينات، لأنني استطعت أن أميز في كثير منها رسم ورقة أو زهرة. لكن أكثر ما أسعدني هو العثور على واحدة من تلك الاسطوانات التي كان البابليون يستخدمونها كأختام. وقد رأيت في ما بعد الكثير منها، وبما أنني أتحدث عنها، فمن المناسب أن أصفها.

هناك بالذات رأيت خمسة رجال مشغولين بإخراج مواد لبناء بيت في الحلة، فحذوت حذوهم، ووضعت في جرابي طوبتين من أفضل ما وجدته في متناول يدي. ولاحظت كذلك وجود أشجار تنوب ومصطكى وسنديان، وفي ظلالها زعم عجوزان خبيثان من بابل، في ساعة نحس لهما، أنهما رأيا سوزانا العفيفة تقترف زلة.

سأسمح لنفسي الآن بتعليق تاريخي سريع. لقد شيدت سمير أميس *في وسط* المدينة معبداً شاهقاً للإله بل، يمكن قراءة وصف له في

تاريخ هيرودوت؛ وكان المعبد - حسب ديودرو - في *الطرف الشرقي* من المدينة، وقد دمره الفرس في أول الأمر، وبعد ذلك حاول الإسكندر إعادة بنائه؛ وأخيراً تشير الروايات المتوارثة إلى الدمار الذي أصفه، ويقع بالضبط تقريباً في منتصف المدينة، باسم بابل، في حين أن الاسم نفسه يُطلق على البلد المحيط كله. والآن، بجمع القارئ لكل هذه التفاصيل المتفرقة، ومع الأخذ في الاعتبار من جانب أن معبد بل قد ظل قائماً بعد الاسكندر، والجبهة الجملونية كانت لا تزال مرئية. وأضيفُ أنا إلى ذلك أن الإله بل يسمى في اللغات السامية بعل Bâl، وهو صوت لا يختلف كثيراً عن بابل Bâbel، أفلا يكون بالإمكان الإشارة أيضاً إلى المعبد المعني بالقول إن الجهل لم يستطع التمييز بين بل وبابل، فجعل هذا الاسم الأخير يغلب دون سبب آخر سوى اتساع رقعة البلاد التي يعنيها؟[1] ويمكن لنا وضع فرضية أخرى، وهي أن المعبد قد استحوذ على اسم المدينة لكونه مركزها ونقطة الذروة فيها.

ومن بابل اتجهتُ إلى الشمال الشرقي بين غابات تمر ونخيل حتى بلغت الفرات، أو *U-fratis* أي العريض جداً كما كان يقال بالفارسية القديمة. وسايرت ضفته لمدة نصف ساعة، وبعدها أشاروا لي إلى مكان اكتُشف فيه منذ وقت قريب منحوتة بالغة الأهمية من حجر واحد، تمثل أسداً طوله متران، ينقض على رجل ويضعه بين براثنه. صورتا الأسد والرجل كلتاهما من الغرانيت الرمادي، وتستقران على قاعدة مستطيلة. رأس الوحش والرجل فُصلا عن بدنيهما بأيدي السكان الأصليين، وهم محطمو ايقونات بامتياز، ومعادون بصورة خاصة لأي تشخيص بشري. الكتلة بمجملها قاتمة أو ملطخة، بسبب التراب الذي كان يغطيها؛ ولكنني لدى الكشط هنا وهناك في لبدة الحيوان، اكتشفت ملامح

---

[1] كانت مساحة بابل، حسب قول هيرودوت، 225 ميلاً مربعاً.

منحوتة بكثير من الإتقان، وإن كان الرسم بمجمله لا يفي بما هو مرغوب. ولا بد أن الأسد واللبوة كانا يُنحتان بألف طريقة، ذلك أن التاريخ يشير إليهما كرمز لشجاعة نينوس وسميرأميس.

لم أشبع فضولي، وواصلت مع مجرى الفرات متأملاً تلألؤ مياهه، ووفرة أشجاره وحقوله المزهرة. الضفتان ليستا على المستوى نفسه مع الماء، مثلما هي الحال في دجلة، وإنما على ارتفاع أربعة أمتار؛ وكان الفلاحون قد قالوا لي إنه بمواصلة السير إلى أعلى أو إلى أسفل، يختفي ذلك الفرق بعد قليل، فتذكرت أنه يمكن لذلك المكان أن يكون هو موقع المصاطب الترابية التي أقامتها الملكة العظيمة لتكون أرصفة فسيحة للمراسي.

وبين مسافة وأخرى كنت أرى بعض العرائش من القصب والحصير، حيث يروون الأرض بطريقة لم أرها من قبل قط، وسوف أصفها: حبلان مثبتان بخطافين إلى بردعة حصان، وتُثبت في طرفهما الآخر قربة من الجلد، يمران فوق محور متحرك من عصوين عموديين ومتوازيين؛ ويذرع الحصان مسطحاً مائلاً بمقدار 45 درجة. يقودون البهيمة من الأمام حتى مستوى العريشة، فينزل الدلو، وبينما هو يمتلئ بالماء، يفكون الخطافين، ويديرون الحصان إلى الاتجاه المعاكس، ويثبتونهما من جديد في الحلقتين اللتين على البردعة، ويهشون الحصان على المسطح المائل. يفرغ رجل القربة في بركة، ومنها يجري الماء عبر قنوات متفرعة. هذا الأسلوب يستخدم في الجزائر، وكذلك في الهند، حيث يسمونه *cupileng*. وقد وقفت أتفرج كذلك على طريقة درس القمح. فهم يستخدمون صندوقين ثقيلين من الخشب، متصلين باسطوانة تثبت عليها ثمانية أو عشرة سكاكين عريضة ومثلمة. وبهذه الآلة التي بها شيء من الشبه بالزلاجة، والتي يمكن تدويرها بوساطة حبال، حول عمود خشبي، يثبت إليها ثوران ينخزهما طفل يجلس في الصندوق

الخلفي. وينشرون على الأرض حزماً من القمح، ويجعلون الآلة تدور عليها إلى أن يُدرس الحصاد جيداً، وبعد ذلك يذرّونه ليفصلوا الحب.

لم أستطع مواصلة السير على ضفة الفرات حتى الحلة، لأن ذلك يستدعي القيام بالالتفاف طويلاً؛ فاختصرت الطريق في خط مستقيم، ورحت أطأ بخطاي أساسات العاصمة الميتة على هواي، حتى وصلت إلى هنا [الحلة]، وكان ذلك في الساعة التي بدأت فيها الشمس تشع بكل قوتها.

الحلة مدينة ذات أهمية كبيرة، باعتبارها المدينة التي تفد إليها القبائل المجاورة للتزود بالمؤن؛ ويقال إن فيها ستة آلاف رجل، ولكن لا بد من ملاحظة أن لكل واحد منهم امرأتين أو ثلاثاً. وكما في بغداد، يقسم الفرات (وهو أعرض من دجلة) المدينة إلى قسمين يربط بينهما جسر عظيم من الأطواف، ولكنه ضيق وغير مريح، لأن أخشابه تتأرجح لدى المرور من طوف إلى آخر، ولا وجود فيه لمساند جانبية يمكن التمسك بها. ومع ذلك، بدا لي أن الناس يجدون متعة خاصة في المرور على الجسر، والبقاء عليه يتأملون الحركة، والدوران، والزوارق، والنهر نفسه.

لديهم مسجد واحد، يدعى مسجد *الإمام المنتظر*، كان في أزمنته مكاناً لطقوس يومية غريبة، وأظن أنه لا فائدة من التفصيل في تلك الطقوس لأنها صارت من الماضي.

لم أذهب قط إلى مدينة استرعيتُ فيها من الانتباه مثل الذي استرعيته في هذه المدينة. وقد عزوت ذلك لأول وهلة إلى كوني أوروبياً، ولم أكن بعيداً جداً عن الصواب، ذلك أنني كنت أول أوروبي يأتي إلى المدينة منذ بدايات العام، أي منذ ثلاثة أشهر. ولكنني بينما كنت في سوق رئيسي، اقترب مني رجل عجوز، وقال إن الناس يريدون رؤية قبعتي، فلكونها من الـ *timsim* وضخمة جداً، ظنوا أنها ثقيلة. قدمتها

إليهم بطيب خاطر؛ فوجدوا أنها خفيفة جداً، وانفجروا ضاحكين وتركوني بسلام. هذا ما يتوجب عمله، خلافاً لما يفعله البعض، ممن يغضبون ويأخذون على محمل السوء أهواء أو نزوات شعب بسيط. فمن الأسهل والأقل كلفة اجتذابهم وليس تنفيرهم وإغضابهم.

ما إن نلتُ قسطاً من الراحة، حتى ذهبت لرؤية دكاكين بعض اليهود ممن يتاجرون بالعاديات وقطع الآثار. ولقلة ثقتي من كون الأشياء التي يتاجرون بها حقيقية، طلبت منهم أن يأخذوني إلى المكان الذي يأتون بها منه. فطلبوا مني مقابل ذلك خمسة دورو مقدماً، والوعد بأن أدفع ثمن ما نعثر عليه بالسعر المثبت في واجهة الدكان. كان طلباً مبالغاً فيه، ولكنني وافقت لأني أنا من تقدمت بالاقتراح وليس هم. ويوم أمس، ركبنا الخيول، أنا واليهوديان، وتوجهنا صوب الشرق.

الوقت، والمكان، وما أسعى إليه، والأشخاص الذين أمضي معهم، كلها أشياء كانت تبقيني ساهماً، وصامتاً، أحدث نفسي. رأيت جحور ظَربان، ودون إرادة مني راحت شفتاي تدمدمان: «وتصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدان كتقليب الله سدوم وعمورة. لا تُعمَر إلى الأبد ولا تُسكَن إلى دورٍ فدور. ولا يخيم هناك أعرابي ولا يربض هناك رعاة... بل تربض هناك وحوش القفر وتملأ الخفافيش بيوتهم وتسكن هناك الظَّربان ...» وقد كنتُ شاهد عيان على تلك النبوءة.

كنا قد سرنا حوالي ساعة ونصف الساعة، عندما لمحنا أحد التلال الكثيرة التي تغطي السهل الفسيح؛ توغلتُ في الحفرة التي كانوا يشقونها شيئاً فشيئاً، وبعد كثير من ضربات المعاول، وبعد كثير من النبش، وجدت ختماً اسطوانياً؛ وشكلاً صغيراً جداً ثلاثي القوائم من الفضة، وحجر كريم صغير عليه صورة منقوشة (قمعول).

رجعت خائب الأمل إلى حدّ ما، فقد ظننت أني سأجد وفرة أكبر من الأشياء بجهد أقل. وفي منتصف الطريق رأيت أحد الأدلاء الذي كان

قد انفصل عنا قادماً باتجاهنا. وقبل خمس دقائق من وصوله إلينا كان يطري على تمثال صغير من الصلصال، نصف مكسور، يحمله معه، كما لو أن ذلك التمثال وحده سيعوضني عن تعبي ويسوغ تطلباته.

الأختام البابلية مصنوعة من صنفين من أحجار صوان السيليس: الصنف الأول ينتمي إلى نوع السيبينا، ويسمى الصوان الأسود، لأن له كل خصائص ذاك، أي أنه متماسك، كامد، أسود، ويمكن له أن يحز الزجاج؛ والآخر يجب ضمه إلى النوع المسمى سوردافليتا، ولونه الأشهب يشير إلى أن فيه سيلكات الألمنيوم، وهو غير قادر على حز الزجاج. كما أن هناك أختاماً من النحاس، ومن الذهب، ومن الغرانيت، ولكنها قليلة جداً، ومع أنها تسمى أختاماً اسطوانية فإن كثيراً منها لها شكل سطح زائد. ومتوسط نصف قطرها ثمانية وعشرون ميليمتراً؛ والثقب الذي يخترق محورها الأساسي يُستخدم لتعليقها. غير أن الفضيلة الأساسية لهذه الأحجار هي النقش الذي عليها: في بعضها هناك ثمانية، أو عشرة، أو اثنا عشر شكلاً، مرسومة بعناية فائقة في اتجاه المحور، ويقتصر بعضها على كتابات سومرية، أو كتابات وأشكال، أو مجموعة رموز. وتتراوح أسعار هذه الأختام هنا بين ثمانية ريالات وخمسمئة ريال، حسب حالة النقوش ونوعية الحجر أو المعدن.

أما القمعول، فهو عقيق أحمر؛ عليه نقش امرأة عارية، والنقش مشغول بعناية كبيرة، وحجمه بحجم نصف بيزتة. التمثال الذي لم أجده أنا، وإن كان مخرباً جداً، إلا أنه مفرغ جيداً؛ ويمثل امرأة جالسة على ما يشبه الأريكة، مغطاة من الركبتين إلى أسفل، وبتسريحة شبيهة جداً بالتسريحة التي يسميها كثيرون اليوم «الإمبراطورة».

فضلاً عن هذه الترهات، يأتي العرب عادة إلى الحلة بآلهة من نحاس أو ذهب أو فضة، ومدامع من زجاج، كتلك التي يُعثر عليها في مصر، أو من معادن مختلفة، وقمعولات من عقيق، وتمائم، وطلاسم

متعددة الأشكال، وأساور وخواتم وغيرها. وقد عُثر قبل حوالي شهرين على قطعتي مرمر، وقطع أخرى من الرخام الأبيض عليها كتابات مسمارية، ولكنها ليست واضحة جداً.

عند سفري من بغداد، كنت أنوي أن أضم إلى برنامجي في هذه الرحلة زيارة قبور النجف وكربلاء؛ ولكنهم أقنعوني بأن ذلك مستحيل تماماً، بسبب التعصب الذي يبديه المكلفون بحراستها، ولهذا حددت نقطة نهاية هذه الرحلة في الموقع المسمى بير نمرود؛ ويقع في أقصى العاصمة من جهة الغرب، جنوب غرب، وقد ذهبت إليه ورجعت من هناك فجر هذا اليوم.

عند مغادرتي الحلة من *باب الظلمات*، ميزتُ في أقصى تموجات السهل جبلاً ينتصب فوقه نوع من البرج أو عمود كبير الأبعاد. هذا هو ما يسمونه بئر نمرود، وما يُعتقد أنه بقية برج مكوّن من أجسام موشورية متراكبة، حيث كان الكلدانيون يراقبون مسار الكواكب، وبالتالي برج بابل.

بعد حوالي ساعة من المسير، تبدل مظهر الأرض، وصارت مستنقعية، نتيجة وجود بحيرة كبيرة هناك مباشرة، قليلة العمق في هذا الوقت من السنة، ولكن عمقها يصير معتبراً عندما تُخرج الأمطار نهر الفرات عن مجراه؛ وقد كانت هذه المياه تشكل خط الدفاع الطبيعي عن بابل من الجهة الغربية.

كنت قد أمضيت ساعتين من المسير، ومررت خلالهما بعدة تلال مكونة من آجر مفتت، ووراء تلك التلال وجدت نفسي أمام رابية يبلغ ارتفاعها حوالي ثمانين متراً ومحيطها حوالي ثمانمئة متر، مكونة من طوب مصنع، مع أجزاء من سور، وزوايا حجرات، وبوابات عرضها متران ونصف، تغطيها الأنقاض بالكامل تقريباً. وأخيراً، أطلال مماثلة لأطلال بابل التي ذكرتها، ولكنها أكثر ترتيباً منها. وقد لاحظتُ

تفصيلاً يلفت الانتباه، ويتمثل في عدة قطع آجر عليها رسوم تمثل بعض الحيوانات، وخاصة الحيَّات والحراذين؛ وكان بعضها يحمل كتابات مشابهة للكتابات التي عرفتها سابقاً، وهي مغطاة كذلك بالقار.

وفي أعلى الرابية تنتصب كتلة من الآجر، ارتفاعها اثنا عشر متراً وعرضها ستة أمتار وسماكتها أربعة أمتار، غير أن مظهرها لا يكفي لإعطاء فكرة عن الشكل الذي كانت عليه في الأصل. فقد تساقط منها الآجر في كل الجهات، ويوجد في قمتها شرخ ينبئ بأنها ستنهار بالكامل. وبين مسافة وأخرى، تبعد إحداها عن الأخرى حوالي ثلاثة أو أربعة أقدام، توجد فجوات اتساعها أربعة وعشرون سنتمتراً مربعاً، تخترق المصنع من جانب إلى الآخر، الهدف منها على ما أظن السماح بإدخال الهواء لتمتينها. وفي ما حول المكان تُرى أكوام كبيرة من الحجارة، ملتحمة بملاط، تشكل جزءاً من المصنع البدائي، وثلاث كتل أحجار بركانية ضخمة، لا أدري من أين جيء بها.

وأتساءل الآن، هل هذه أنقاض برج بابل؟ هذا هو رأي السيد راولينسون الذي كان قنصل بريطانيا العام في بغداد، مستنداً إلى الكتابات التي وجدها عليها قبل خمس عشرة سنة، وهي مودعة الآن في المتحف البريطاني. ومنها يُستدل أن نبوخذنصر الكبير رمم برج بابل الذي بناه الملوك الكشيون، من أجل إقامة معبد بل. وكان ابن نبوخذنصر يطلق على ذلك النصب: «برج الطبقات المتعددة، بيت الخلود، معبد الأنوار الكون السبعة (الكواكب السبعة) الذي شيده الملك الأول، دون أن يتمكن من إنهائه». وبعد ذلك، يشير إلى قصة توراتية، ويضيف: «الناس هجروه منذ عصر الطوفان، مورداً كلمات غير متماسكة... الزلزال، الرعد، زعزعت صلصال المصنع وكسرت آجر الكساء؛ وعندما انهار صلصال الحشوة، شكل مجموعة من التلال». هذا الوصف لبرج بابل الذي قدمه نبوخذنصر عند ترميمه،

يعود ليكون دقيقاً اليوم، بعد انقضاء خمسة وعشرين قرناً على ترميمه الثاني.

غير أن الاعتقاد بأن مكان برج بابل كان في الموقع المسمى بير نمرود لا يتفق مع القصة القديمة؛ إذ أن معبد بل، المشيد فوق برج بابل، حيث كان يجري رصد الكواكب قبل ألفي سنة من الاسكندر، كان يقع في مركز المدينة بالضبط [1]؛ أما بير نمرود بالمقابل، فيقع في أحد أطراف مدينة بابل، إذ أنه يبعد تسعة أميال عن الحلة، وهي مركز الحاضرة القديمة.

أظن أنه من المستحيل المطابقة بين هذين الرأيين، وطلب رأي أهل البلاد هو أمر غير مجدٍ على الإطلاق: فالأماكن المكرسة من خلال الأساطير تتحدث إلى المسلمين أكثر بكثير من الأماكن ذات الأهمية التاريخية الحقيقية. فبابل، على سبيل المثال، وبعيداً عن تقصي أصل هذا الأثر أو ذاك، يبحثون عن المصدر السحري الذي توردە كتبهم، هي المكان الذي سيظل الملاكان هاروت وماروت مقيدين حتى يوم القيامة، لأنهما أغويا الجميلة آناهيد. والروحان كلاهما تحلقان في الفضاء لتعلما البشر فنون السحر، بينما أناهيد تتأرجح على نجمة الصبح، ترافق جوقة الكواكب بالعزف على خيوط أشعة الشمس على أنها أوتار قيثارتها.

ولست أتجرأ على التأمل حول معنى بير نمرود. فأنا من جهة أولى، لا أرى بئراً؛ ومن جهة أخرى لا وجود لأي عمل متعمق يتحدث عن نمرود، كما أن التوراة لا تبدد شكوكي حول هذا الأمر. ولكن هناك فرضية محتملة في الحقيقة، وهي أنه في زمن السلوقيين أطلقوا على تلك الأطلال اسم: πυρα Νεμροδου، (برس نمرود) أي كومة أو

---

[1] هيرودوت، الكتاب الأول، ص 181. وديودور، الكتاب الثاني، ص 9.

محرقة نمرود، ولأنه لا وجود عند العرب لحرف p، فإنهم يحفظون الكلمة اليونانية على أنها بير.

وإذا كنت أجهل المعنى التاريخي لبير نمرود، فإنني لن أنسى أبداً بالمقابل تلك اللحظات الفريدة من الألم والرضا التي أثقلت على صدري وأثلجته بالتناوب بينما أنا أتأمل وحيداً من أعلى مظهر تلك المناطق التي شهدت البشر في طفولتهم، يكوّنون مدينة مأهولة بكثافة، وهي تقبع اليوم أقل قليلاً من مقفرة. تظهر بعض البيوت المتباعدة في الطريق إلى النجف أو كربلاء، أو قبة تغطي رفات عزرا، أو رعاة إبل يقودون قطعانهم... وباتجاه الشمال مجرد حقل مترامٍ ضارب إلى الزرقة يعكس جدائل نجم النهار الذهبية... إنما تحوم هناك أيضاً ذكرى الماضي الذي يبقى وسيبقى إلى الأبد.

التفاصيل التي تقدمت تشكل الوصف العام والدقيق لكل ما تبقى من أكبر مدينة وُجدت على الإطلاق. من الصعب قول ذلك. إنه محزن، ولكنها الحقيقة. إذا كان ثمة مصير لراحة الحياة؛ وإذا كان الإنسان ـ مثلما يعتقد كثيرون ـ يواصل المشاركة بعد الموت بمشاعر التراب، فلترقدوا بسلام يا أهالي بابل! وإذا كنتم ضحية نزعات بشرية، مثلما نحن ضحاياها، فإن هذه الأحجار، هذه الصفائح الحجرية، بل وهذا التراب، ستواصل كلها السؤال عن اسمكم، كيلا يجهل آخر الأحياء أنه هنا جرى هز مهد أبناء جنسنا، وأن فضائل عظيمة وعبقريات لا تضاهى قد سادت بينكم.

VI

من بغداد إلى الموصل

الموصل، 16 تموز 1869

فور العودة من رحلتي إلى بابل، حاولت السير نحو دمشق، وهي رحلة شغلت في الحقيقة تفكيري طويلاً. وبفضل أصدقائي، حصلت على كل المعلومات التي أرغب فيها، وحصلت فوق ذلك على كتاب توصية من الوالي، من أجل أن تعاملني جميع السلطات التي قد أضطر إلى اللجوء إليها معاملة لائقة. ولم يبق عليّ بالتالي سوى اختيار أحد الدروب المتعددة التي توصلني إلى دمشق. وقبل أن أعود إلى الحديث عن هذه المرحلة من الرحلة، أرى أن أتحدث عن تلك الدروب كلها، كي يعرف القارئ الظروف التي أجد فيها نفسي.

كان لا بد لي بادئ ذي بدء أن أقرر إذا ما كنت أريد الذهاب مباشرة إلى سورية، أو أن أقوم بالالتفاف عبر الموصل. وقد اخترت السبيل الأخير، لأن الرحلة عبر الطريق الأول غير ممكنة التحقيق في هذا الفصل من السنة، وهي شاقة جداً كذلك في الفصول الأخرى. إذ يجب السير اثني عشر يوماً على جمل، واجتياز الصحراء. ولا بد من أن يحمل المسافر معه ماء ومؤناً وخياماً، ويظل عليه مع ذلك أن يتغلب على التعب والمخاطر. وهذه الأخيرة ليست في الحقيقة مخاطر الموت؛ فالبدوي لا يقتل إلا في حالة الحرب بين القبائل. إنه مشاعي بامتياز، ولا يستطيع أن يفهم كيف ولماذا يملك آخرون ما لا يملكه؛ فيدنو ممن هو ليس من قومه، ويطلب منه ما يحمله، ويتركه عارياً، ثم يشير

له بإصبعه إلى جهة الطريق التي عليه إتباعها، ويودعه بتهذيب. فإذا ما قاوم، تُطلب مقابله فدية، وريثما تصل الفدية، يدفنون الأسير في الرمل حتى نحره. وهناك تجار يقومون بهذه الرحلة دون أن يحملوا معهم شيئاً ذا قيمة؛ ولكن السفر يتم عموماً في قوافل كبيرة.

حين احتل الفرنسيون مصر، أنشأت الحكومة البريطانية خدمات بريدية بين دمشق وبغداد، لنقل مراسلات هندوستان؛ ومع أن جدوى هذا البريد صارت اليوم شبه معدومة بالنسبة إلى الإنكليز، إلا أنهم مستمرون فيه لأسباب سياسية، بهدف الحفاظ على النفوذ الذي اكتسبوه عند قبائل عديدة. وتخرج بغال البريد ثلاث مرات في الشهر من دمشق إلى بغداد، تحت عهدة رجل يمتطي جملاً، ويتلقى مقابل كل رحلة ثلاث أونصات كمكافأة. وقد اعتاد البدو في أول الأمر السطو عليه وتجريده مما يحمله، ولكنهم اقتنعوا بعد ذلك بأنه لا يحمل سوى أوراق، فانتهوا إلى فتح الطريق له، وإن كانوا يستولون بين حين وآخر على ملابسه، وهو ما يتعرض له المسافر المستهتر الذي يقوم بالرحلة معه خلال عشرة أيام.

لقد تخليتُ عن هذا الطريق غير الملائم، وقررت المجيء إلى الموصل، وقد ازداد تصميمي عندما اجتذبني إليها تذكّر نينوى. ولو أنني كنت أودّ الذهاب من الموصل أو من ديار بكر إلى بغداد، لكان ذلك أسهل بكثير، لأنه من الممكن السفر نزولاً في النهر طوال السنة. ويُستأجر لهذا الأمر طوف محمول على قُرب من الجلود، توضع فوقه الخيام والفراش والمؤن وغيرها. وبعد خمسة إلى عشرة أيام، حسب الفصل، وضعف المدة للمجيء من ديار بكر، يمكن الوصول إلى عاصمة ميسوبوتاميا. ولدى الوصول إليها يفكك الملاحون الطوف، ويبيعون الأخشاب في مزاد علني، ويحمّلون على حمير

يجيئون بها معهم الجلود والحبال ويرجعون براً للبحث عن مسافرين آخرين أو بضائع ينقلونها. وتبلغ تكاليف هذه الرحلة ثمانين دورو، ويتوجب القيام بها في شهر نيسان أو تشرين الأول.

أما الإبحار في النهر صعوداً فمحال. وحتى لو افترضنا أن دجلة يحافظ على مجراه، فإنه لا يمكن حتى للسفن البخارية أن تصعد فيه، خلال شطر من فصل الشتاء، أبعد كثيراً مما تفعله الآن، بسبب تياره الذي ربما أصاب القدماء لب الحقيقة حين سموه *السهم*. وإذا ما أمكن بقوة كافية التغلب على المقاومة، يبقى هناك عائق آخر أكبر، يحول دون الإبحار في النهر مثلما هو اليوم، لأنه يجرف معه كميات كبيرة من الرمل، حتى إنه يشكل في نقاط كثيرة ما يشبه الجزر التي تبدل وجهة المياه تبدلاً تاماً.

كان لا بد لي بالتالي من السفر براً، وحتى في هذه الحالة يتوجب الخيار بين طريقين: السير بمحاذاة النهر، وهذا غير مريح، بسبب إقفار البلد الشديد من السكان، وخوفاً من العرب الرّحل؛ أو الالتفاف عبر كفري وكركوك، وهو ما فعلته. وهذا الطريق تتبعه القوافل منذ قرون، وقد بدا لي أقل خطورة. على الرغم من أن الأكراد اعتادوا، مثل أجدادهم الأشوريين المشهورين، على سلخ هذا المسافر أو ذاك؛ كما أن عصابات قطاع طرق من الفرس تجتاز الحدود، وتضع السلطات التركية في مآزق حرجة بين حين وآخر. ولكن حركة التنقل على هذا الطريق تظل آمنة، ما عدا بعض الاستثناءات.

إلا أن هناك أمراً لا يمكنني التوافق معه: السير خمسة عشر يوماً في قافلة. غير أنه كان علي القبول، وقد قبلت. وبينما أنا هنا أتسامر في منزل بعض الأصدقاء، تلقيت رسالة من رئيس القافلة، سأترجم مضمونها حرفياً كنموذج لأسلوب المراسلات العربية. وهي تقول ما يلي:

«سيادة الحبيب الشريف المبجل، صاحب الطبع الكريم والمتين، عماد العلم والصداقة، السيد ريفادينيرا أمد الله في عمره. آمين - بعد تقديم فروض التحية والسلام، والإعراب عن خالص المحبة، والرجاء أن يقع بصركم الكريم على هذه السطور وأنتم ترفلون بأثواب السعادة والهناء، أخبركم أن الغرض من رسالتي هذه هو، بعد تمنياتي بأن تكونوا في وافر الصحة، أن نعرب لكم عن أننا علمنا برغبتكم في الذهاب إلى الموصل، كلل الله مسعاكم بالسعادة. وأنكم ترون أن الرحلة في قافلة ستتسبب لكم بالكثير من الإزعاج، فقد أُعلمنا للتو أنه بعد ثلاث ساعات سيخرج البريد إلى كركوك، ويمكنكم بالتالي، إن ارتضيتم، أن تتفقوا فوراً مع *الطاطر* (رجل البريد). وننتهز هذه المناسبة لنعرب لكم عن عميق احترامنا. - حُفظتم - خادم سيادتكم. أحمد.»

حتى تلك اللحظة، ويا للأمر الغريب! لم يخبرني أحد بأمر البريد، لكن الرسالة المذكورة سهلت كل المصاعب التي واجهتني حول طريقة مواصلة الرحلة. والحقيقة أن الطاطر لم يُتح لي وقتاً كافياً لأجهز نفسي من أجل الذهاب معه، ولكنني دخلت في ترتيب مع إدارة البريد، وحددت سفري في اليوم الثالث من الشهر.

منذ بدايات هذا القرن، توجد في تركيا خدمة بريد كل خمسة عشر يوماً، عصبها الأساسي يمضي من بغداد إلى القسطنطينية، مروراً بالموصل، وديار بكر، وتوكات. ويتولى مسؤولية خطوط النقل رجال أعمال يتلقون دعم الحكومة. وهناك خان بعد كل عشرة فراسخ أو اثني عشر فرسخاً، حيث يستبدل الطاطر أحصنته، ويمكن أن يفعل ذلك أيضاً من اتفقوا على السفر معه.

ويتحدث هوميرو عن مئة وأحد عشر نزلاً موجودة بين سارديس

وسوسه؛ وهذا دليل على أن هذه الدروب نفسها كانت في تلك الأزمنة أكثر ارتياداً مما هي عليه الآن.

المسافة من بغداد إلى هنا تقدر بحوالي مئة ساعة بالخطوة القشتالية، أي نحو مئة فرسخ؛ ويُدفع أجر الخيول بمقدار ثلاثة قروش ونصف تركية في الساعة[1]؛ وبما أنه علي أن أستأجر حصاناً آخر للدليل الذي سيرافقني، فقد دفعت مقدماً ستمئة قرش، أي ما يساوي اثنين وثلاثين دورو. وقد أثقلت أجور السرج وعدّة الحصان الأخرى على كيس نقودي بثمانية دوروات أخرى.

اقتصرت التحضيرات على هذه الأمور، ولم أرغب في اتخاذ حراسة معي، لأنني رأيت أنه من الأفضل والأكثر أماناً عدم لفت الانتباه. فأنا، كما قلت من قبل لا أحمل الأمتعة أبداً، وأقل من ذلك الأسلحة؛ ولكنها إذا كانت تبدو لي من قبل مزعجة وغير نافعة بالكامل، فقد تمكنت من إقناع نفسي بأنه ليس من الحكمة التنقل من دونها في هذه البلاد. ولا بد لي أن أضيف، على شرف الحقيقة، أنه إذا كانت تلك الطريقة في السفر مريحة جداً نظرياً، فإنها عملياً لا تطاق، لأن مطالب وتطلبات تبرز في كل خطوة، لا يمكن تذليلها والتغلب عليها إلا بالمال أو القوة، ولا بد من طبع خاص لتجنب الوقوع في مشاجرات خطرة، يكون سببها على الدوام تقريباً هو الافتئات أو الجشع. لقد كنتُ أعرف شيئاً من هذا كله، ولكنني لم أشغل فكري فيه، واثقاً كعادتي من حسن طالعي.

خرجت من بغداد في اليوم الثالث من هذا الشهر، في الخامسة والنصف مساء، بمناخ بديع. وسرت طيلة الليل بين زروع شعير أو قمح، في منطقة منبسطة ومقفرة، بإتباع الطريق الذي تشير إليه أعمدة خط التلغراف. وفي الساعة الثانية فجراً استبدلت الحصان والدليل في

---

[1] القرش التركي يساوي ستة كوارتات.

بعقوبة، وهو مكان لطيف على ضفة دجلة؛ ودون توقف أو استراحة واصلت عدواً عبر نهروان، باتجاه دلّي عباس، وقد وصلتها مع اسوداد الليل. كانت هناك حوالي اثنتي عشرة خيمة بدوية مقرفة، وكان ينام فيها معاً، على الأرض، رجال ونساء وأطفال ودجاج. وبعد كبح الكلاب التي هي حراس هذه المنازل، دخلتُ إلى خيمة زعيم القبيلة. جلست القرفصاء، مثل الآخرين، حول بعض الجمار التي تنفع في الإضاءة كذلك، وأخذت بضعة أنفاس من النرجيلة التي قدموها إليّ، وبعد قليل أحسست بالنعاس يسيطر عليّ، ولكنني قدرت كم هو متعب السير نهاراً في هذا الفصل، فأزحت النعاس عني بالاستحمام في نهر ديالى. ولدى العودة إلى الخيمة، أيقظت الدليل وسرجت حصاني.

وفي الثانية فجراً أعدت استبداله في كاراتاباك، ولم أسترح بعدها حتى كفري، وكان ذلك بعد أربعين ساعة على خروجي من بغداد، وفي حوالي الساعة التاسعة من صباح يوم الخامس من الشهر.

تقع القرية في حقل من الخضرة والأزهار، وقدر رأيت بينها، باستغراب وبهجة، الشمر الشائع جداً في بلادنا إسبانيا. وتحدها من الشمال سلسلة جبلية صغيرة وقاحلة، مشهورة في البلاد بأنها وكر لصوص. ويعيش في كفري نحو ستة آلاف نفس؛ سطوح بيوتها وعلّياتها، كما في كل القرى الأخرى التي مررت بها، مغطاة بطيور اللقلق، وهو حيوان لم أره قط بمثل تلك الكثرة التي رأيتها هنا، والسبب في ذلك أنهم يعتبرونه فأل خير ولا يطاردونه أبداً.

عند الدخول سمعت منادياً يعرض بارة مقابل صبي تائه، وبارتين اثنتين مقابل بغل ضاع للتو؛ لم أستطع فهم ذلك التثمين الذي بدا لي مستهجناً، فطلبت تفسيراً من المنادي؛ فقال إن البغل ينفع في بعض الأعمال بينما لا ينفع الطفل في شيء، ومن المؤكد أنهم سيجيئون بهذا قبل ذاك.

في الساعة الرابعة بعد الظهر كنت أستعد لمغادرة البيت الذي نمت فيه، عندما رفض الدليل مواصلة المسير دون حراسة، من أربعة جنود على الأقل، ترافقنا حتى كركوك. كانت قد بلغته شائعة عن عملية قتل اقتُرفت في الطريق، وعندما ذكّرته بواجبه في مرافقتي، أصر على موقفه؛ فكان عليّ اللجوء إلى السلطات طلباً لفرسان، وأضعت من أجل ذلك ساعتين ثمينتين جداً. نظر القائمقام إلى كتاب التوصية الذي معي، وعلى الفور وضع تحت تصرفي ليس أربعة فرسان وإنما اثنا عشر، وكان علي حسب العرف المتبع أن أعطيهم نصف دورو كل يوم.

كنت قد لاحظت في توقفاتي السابقة أن البعض يتكلمون التركية، ولم أولِ اهتماماً لذلك، معتقداً أنها مصادفة. ولكنني عندما كنت أتدبر أموري مع القائمقام في كفري ومع أشخاص آخرين، تبين لي أنه ليس هناك من بغداد حتى هنا من يتكلم كلمة واحدة بالعربية، وإنما بالتركية، وهي لغة لحسن الحظ أتذكرها أكثر مما هو ضروري لقضاء كل حاجاتي.

عند الغروب خرجت من كفري. الدليل وفرساني الاثنا عشر في المقدمة وأنا خلفهم. وبعد نصف ساعة من المسير، رأيت أنهم يمضون مباشرة باتجاه الغرب، فعزوت ذلك أول الأمر إلى وعورة الأرض، وقدرت أنه قد يكون هناك سبب آخر؛ ومن أجل تقصي ذلك، أمرتهم بالتوقف، ولكنهم لم يطيعوني. وبعد مرور بعض الوقت، ولأنهم لم يبدلوا الاتجاه، لحقت بالجنود وهددتهم بالشكوى ضدهم لدى السلطات إذا هم لم يغيروا الاتجاه، فواصلوا المسير أسفل السلسلة الجبلية التي تنتهي في طوزخورماتو. عندئذ أوضحوا لي أنهم يريدون الالتفاف لساعتين أو ثلاث ساعات ليتجنبوا مكاناً خطراً، وقعت فيه عملية القتل في اليوم السابق؛

ولأنني لم أعلم بذلك، غيروا الاتجاه، وفي الساعة الخامسة فجراً دخلت طوزخورماتو دون أية مستجدات. ولكنني كنت مدفوعاً باللهفة، وقبل أن يتغلب عليّ النعاس، كنت قد امتطيت الجواد من جديد متوجهاً إلى كركوك. وبعد قليل لحقنا بجنديّي خيالة يحرسان سجيناً: إنه القاتل الذي سمعت عنه بالتحديد، وهما يقتادانه إلى محكمة كركوك. يبدو أن هذا المجرم قد استاء من حكم قاضٍ في أحد شؤون أسرته، فأقدم على قتله على طريق كفري.

لم أتوقف في الطريق من بغداد إلى كركوك، فباستثناء النقاط التي استبدلت فيها الأحصنة، وبعض واحات الصفصاف والنخيل والكرمة، كانت تلك الأراضي، حيث يتوافر ما لا بد منه للعيش، مقفرة بالكامل، ترويها دون طائل بعض روافد النهر العظيم. قطعان في أوقات متباعدة، أو عابرون بائسون، أو قافلة طويلة نائية، أو فارس متدثر بعباءته البيضاء ومسلح برمح طويل، هو كل ما أراه مهما قلّبت بصري نحو اليمين أو اليسار، حتى إنني كنت سأنزل مستنفداً في الخان الذي تلهفت لبلوغه طوال ثماني، تسع، عشر ساعات قاتلة. ولكن في اليوم السادس من الشهر، وقبل أن أجتاز نهر Kisseh، تبدل المشهد الرتيب والقاحل تبدلاً تاماً، وتبدى لي مشهد آخر بديع؛ حتى ظننت أنني أدخل عالماً آخر. انفتحت رموشي المتهدلة من شدة التعب والحر لتستمتع بذلك الجمال: جبال السليمانية بثلوجها الدائمة تشمخ من بعيد. وفي وادٍ خصيب بديع يمتد إلى يساري تقع مدينة كركوك، بقلعتها وبساتينها وبيوتها. الخضرة تغطي الأرض أينما اتجهت، والوديان تنسجم مع الجبال، والماء يجري كأنه خيوط الفضة، ناشراً الحركة والحياة.

وفي الساعة الخامسة، كنت أرقد للراحة في النزل خارج أسوار المدينة. نمت اثنتي عشرة ساعة متتالية، وعندما استيقظت، ذهبت

للقاء شخص كان قد أُعلم بمجيئي القريب. وقد قدم لي على الفور ضيافة كريمة في بيته.

كركوك هي موقع يستحق تنويهاً خاصاً. فيها مثل أربيل وحلب دليل لا يدحض على قِدمها: وأعني بذلك ما يسمونه اليوم القلعة، وما كان في الأزمنة الغابرة، ولا يزال اليوم، يمثل المدينة المذكورة نفسها. إنها مخروط مقطوع، محيطه في القاعدة حوالي تسعمئة متر، وارتفاعه أربعون متراً، مكون من الأحجار، والآجر، والطين: وميلان سفحه خمس وأربعون درجة، وهو أملس، والطريق المؤدي إلى البوابة مائل. وفي الأعلى تتجمع البيوت، يحميها سور نصف متداع، وفي الأسفل، في السهل، تمتد أعداد معتبرة من الأكواخ والجنائن والبساتين، وتضم بالإجمال حوالي عشرين ألف نسمة على الأقل، بين أتراك وأكراد ونساطرة ومئتي كلداني.

وكركوك، ومثلها السليمانية، مركزا تصدير مهمين لمنتجات أرضهما. وهناك في المقام الأول جوز الطيب وصمغ الكُثيراء، وهو واسع الاستخدام لتلميع المنسوجات وتصميغ رقاق الكتابة الجلدية. ويتوافر جوز الطيب بكثرة، لاسيما بنوعه المرغوب الضارب إلى الزرقة، غير أن هناك الأبيض والرمادي كذلك؛ ولا يتجاوز سعر كل اثني عشر كليوغرام منه دورو واحداً.

أما صمغ الكُثيراء فيستخرج من نبتة دائمة الخضرة، ثخينة، يصل طولها إلى ثلاثة أقدام، ولونها مائل إلى الصفرة، تخرج منها عدة أغصان متباعدة جداً بعضها عن البعض. تُحدث فيها شقوق مائلة في شهر أيار، وخلال الشهور الثلاثة التالية يخرج منها الصمغ قليلاً قليلاً، على شكل رقائق محدبة، وتُصدّر بهذه الحالة. وتوجد هذه النبتة القرنية كذلك في الأناضول. وقد كانت مجهولة هنا إلى ما قبل ست سنوات، عندما

كشف ألماني أهميتها للوطنيين، ومنذ ذلك الحين أضافوا منفعة أخرى إلى المنافع الكثيرة التي يدينون بها إلى خصوبة أرضهم. وسعر الصمغ ثلاثة دوروات لكل اثني عشر كيلوغرام.

إضافة إلى هذه المنتجات، تصدر البلاد الصوف، والقطن، والكتان، والقنب، والفوّه. وإذا أردنا أن نذكر ما يستخرجه الإنسان ليقيم أوده، فإنني أقول، كي أوجز، إن كل ما يُشتهى يتوافر بكثرة، وخاصة الثمار من كل الأنواع والأحجام؛ فأنا نفسي وزنت بطيخاً الواحدة منها تزيد على ثلاثين كيلوغرام، وهي جيدة مثل بطيخنا. وحدث لي مثل ما حدث في الخليل، إذ لم أستطع حمل عنقود عنب بيدي. أما القمح والعسل والشمع والتبغ فتباع بأسعار بخسة جداً، والبيض يباع بريالين المئة، وهو وضع يمكن أن يكون مصدر ربح عظيم لمن يقيم هناك مصنعاً لتجفيف زلال البيض. ولحم العجل والبقر يباع بخمسة كوارتات لليبرة، والنبيذ بست كوارتات القارورة. لم أر قط بلاداً أشد خصوبة، وأكثر صحية، حتى يمكن لسكانها أن يقولوا بحق إن العيش هناك متعة.

وبشأن الماشية، فإنهم يتاجرون بالخيول، وأثمانها تتراوح من عشرة إلى ألف وخمسمئة دورو، وهذا الأخير هو ثمن الحصان الأصيل، سواء أكان عربياً أم فارسياً. والحصان الفارسي الذي أتيحت لي فرصة تفحصه، أقل رشاقة وأصغر حجماً من الحصان العربي، ولكنه يتفوق عليه بقدرته على المقاومة، لاسيما أنه مناسب لتحمل المشقة والإرهاق. ومع ذلك، يعمد أصحابه إلى استخدام الوسيلة التالية: يحرقون باروداً في الجراح التي تُحدثها المهاميز الطويلة والمدببة في بطنه، مما يسبب له ألماً شديداً، وتكون النتيجة حساسية عالية؛ وفي ما بعد، بمجرد الضغط بالساقين على بطنه يندفع في العدو.

ومن مواد التجارة أيضاً، هناك نوع ممتاز من الحمير البيضاء، وهي قوية كالبغال، ويصل أقصى سعر لها إلى سبعين دورو.

لقد أمضيت يوماً لطيفاً في كركوك؛ ومع أنهم ألحوا عليّ كثيراً، إلا أنني لم أوافق على البقاء، بهدف استغلال تحفز قواي غير الطبيعي، وعدم السماح لجسدي بالتراخي في الراحة والنوم. وفي الساعة الخامسة مساء، بعد أن قمت بزيارة القائمقام الذي أصر على أن يرسل معي عشرين جندياً للحراسة، خرجت من كركوك، يرافقني عشرة أشخاص كنت قد تعرفت إليهم هناك. وعندما ودّعوني خارج المدينة، عانقوني بعاطفة متدفقة كما لو أنهم يعرفونني منذ الأزل.

في الساعة الواحدة ليلاً اجتزت نهر الزاب الصغير، أو *ألتون صو*، كما يسميه الأتراك، أي ماء الذهب، على جسر روماني يشبه الجسور الموجودة في سورية على نهر الكلب، أو على نهر الليطاني، غير بعيد عن صور. وهو نصب يُذكّر بأن النسر الروماني وسع سيطرته حتى هذه الأنحاء. وبعد لحظات قليلة دخلت إلى ألتون كوبري، فاستيقظ أهلها المستغرقين في النوم على نباح الكلاب التي بدت كأنها ستنقض علينا من فوق السطوح.

هناك صرفت الجنود الذين رافقوني، ونمت قليلاً. ثم أخذت أحصنة جديدة، وبعدو سريع متواصل تقريباً، لمحت في الساعة العاشرة من اليوم التالي قلعة أربيل، وهي ليست الآن في منطقة حالمة تحسد عليها، وإنما في حقول لا تقل مواتاً عن المدينة. القلعة مشابهة إلى حد التطابق لقلعة كركوك، وربما هي أكبر قليلاً، وسفحها أكثر انحداراً؛ غير أن مدخلها يوفر هيئة فريدة، حيث لا يوجد سوى برجين ضخمين وغير مستويين، قطر كل منهما خمسة أمتار، وارتفاعه ثمانية أمتار. وعدد سكان المدينة حوالي أربعة آلاف نسمة، نصفهم يعيشون في القلعة

ونصفهم في السهل. ولا بد من القول إن هذه الأرقام تقريبية، لأنهم لا يعرفون الإحصاء هنا؛ ويقولون إن في المدينة تسعمئة بيت، وبإجراء حسابات وسطية بوجود خمسة أشخاص في كل بيت، رجل وامرأتان وطفلان، تكون النتيجة هي الرقم المذكور.

وعلى الرغم من بحثي في كل ما قرأته عن سبب أو أصل تأسيس هذه المدينة، ومدن أخرى، تبدو كمدن معلقة في الهواء، لكونها مشيدة على مناطق مرتفعة وفوق أرض اصطناعية؛ إلا أنني لم أجد أي تفسير. ومع ذلك، يجب عدم الشك في أنها تعود إلى عصر إبراهيم. وهي تثبت على أي حال أن الشقاق أمر قديم بين البشر، ودليلنا إلى ذلك الصينيين الذين يمثلون لتلك الفكرة برسم قلعة. وقد منحت أربيل اسمها للمعركة الكبرى التي هزم فيها الإسكندر، للمرة الثانية، داريوس الفارسي، وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن الأحداث جرت على ضفاف دجلة، فهذا يعني في مكان يبعد اثني عشر فرسخاً عن المدينة الحالية. ولا بد أن تلك الأراضي المتماوجة والمقفرة كانت توفر إمكانات باهرة لتحركات الجيوش، لاسيما الخيالة.

نزلت في أربيل في بيت ابن عم لدليلي. ويتألف ذلك البيت من فناء، يغص بكل أنواع الحيوانات الداجنة، ومن حجرة من الخشب والروث، تستخدم في الوقت نفسه كغرفة جلوس، وطعام، ومطبخ، وغرفة نوم، الخ. وهناك كانت تتكوم الأسرة كلها: الزوج، والمرأة، وخمسة صبيان وثلاث جاريات، فضلاً عن الأقارب والأصدقاء الذين يقضون معهم أوقات الفراغ في التدخين.

ووسط كل أولئك الناس، لم أكد أتمكن من النوم إلا قليلاً؛ فالأصوات التي يطلقونها تكفي لإيقاظ ميت، ذلك أنهم معتادون على التكلم في البرية، ويصعب عليهم خفض أصواتهم في أي مكان آخر.

لقد فاجأني حزن صاحب البيت؛ وعلى الرغم من إلحاحي في سؤاله عن السبب، لم أحصل على أي جواب، إلى أن اقترب الدليل مني، وقال لي مشيراً إلى أحد أركان الحجرة: «زوجته فريدة هناك، وقد أنجبت للتو طفلة». نظرت، ولكنني لم أر سوى كومة من الخرق. فأضاف قائلاً: «هات يدك، وانهض، فلا بد أنك تفهم في الطب»؛ أنهضني من مكاني، وقادني نحو الفراش، حيث بتحريك بطانيات، اكتشفت رأسي الأم والطفلة الوليدة. بدتا لي في حالة جيدة، فتوجهت مسرعاً إلى الزوج قائلاً له أن يطمئن، وإنه لا وجود لأي سبب للقلق. فكان رده إيماءة استخفاف، كما لو أنه يقول إن المرض لا يهمه، وعندئذ تنبهت إلى أن سبب تعكر مزاجه هو أن الوليد أنثى.

أناس فقراء، وهموم حزينة! إنهم يتباهون بإنجاب أبناء ذكور، أما إذا كنّ إناثاً فيشعرون بالعار.

عدت بنظري إلى الأزمنة التي كانوا يتخلصون فيها من الطفلات المسكينات بوأدهن، وربما يرى البعض أنه يتوجب علينا الإطراء على محمد الذي استنكر تلك العادة الهمجية؛ ولكننا نرى أيضاً أنه لو لم يأت النبي إلى الدنيا، لكان العرب اليوم مسيحيين، ولما كانت لهم تلك العادة الهمجية، ولا هذا القلق السخيف.

غادرت أربيل في الوقت الذي كانت الظلال آخذة بالتلاشي بصورة متزايدة، ابتداء من أعلى المدينة. ولم تكن قد انقضت خمس ساعات بعد حين بلغت الزاب، وهي قرية بائسة، وانتظرت نائماً فيها بزوغ الفجر، كي أجتاز نهر أشور العظيم، غير بعيد عن المكان الذي شهد خيانة تيسافيرنيس العظمى لأولئك الرجال الحديديين الذين سيعرفهم العالم إلى الأبد، من أجل مجد اليونان الباقي، باسم *العشرة آلاف*.
والزاب نهر شديد الغزارة والسرعة والعمق والاتساع، لاسيما في الشتاء،

حيث يبلغ عرضه عادة كيلومتر ونصف الكيلومتر في عدة مواضع، وتكثر فيه أصناف لذيذة من الأسماك كبيرة الحجم. وفي حوالي الخامسة صباحاً أمرت بإعداد زورق ركبت فيه، ورُبطت الخيول من أعناقها، لتلحق به سباحة مدفوعة بحجارة تُرمى بها من الخلف.

على الضفة المقابلة، وقبل أن ننزل، اقترب مني ومن الدليل كرديٌ بملامح لا تحمل الود. وكان مسلحاً ويقود حصانين من رسنيهما. وتبين أنه يريد أن نترك له حصانينا مقابل حصانيه. قال له الدليل إننا نستخدم أحصنة البريد؛ وإننا دفعنا الأجر المستحق من بغداد إلى الموصل، وإنه لا علاقة لنا به، وعليه بالتالي أن يتركنا نمضي بسلام. ولكنه أمسك بمرافقي وشدّه من ذراعه مانعاً إياه من الركوب. وكان على وشك أن يفعل الشيء نفسه معي عندما أدخلت يدي في جيب سترتي الطويلة، ورحت أنظر إليه محدقاً، وهددته بالموت. ولحسن الحظ أن ذلك أعطى نتيجة، فتراجع معتقداً أنني سأُخرج مسدساً، بينما لم يكن هناك في الجيب سوى منديلي.

ومن الزاب حتى هذه المدينة [الموصل] احتجت إلى ثلاث ساعات ونصف الساعة من العدو السريع، مررت خلالها بقريتين يمارس فيهما الناس جميعهم الديانة الكلدانية، ولا يتكلمون لغة أخرى سوى الكلدانية، ولا يلبسون شيئاً سوى الجلباب والقلنسوة، مثلما يرسمون المنجمين القدماء؛ ومررت كذلك بقرية أخرى لا يسكنها إلا عبدة الشيطان، وهم لا يتميزون عن سواهم بأي مظهر آخر.

وأخيراً، بعد أن كنت أتلهف لرؤية الموصل بعد كل جبل أتجاوزه، رأيتها تمتد أمامي على مدرج في الجانب الآخر لدجلة.

سعادتي بالوصول دون أية عقبة من تلك التي تقع عادة، أشعرتني بتلاشي التعب، ووجدت في إنهاكي قوة، ومجرد التفكير في أنني

أطأ أرضاً جليلة الشأن شجعني على مشاريع أكبر وأطول أمداً. عسى أن تكون مازالت لدي الأحلام التي كانت لدي آنذاك بشأن هذه المدينة التي سميت نينوى!

الموصل لا تستثير الكثير من الاهتمام. هناك في البيوت إسراف في استخدام الحجر الكلسي المتوافر بكثرة. والأفنية قليلة الاتساع، والحجرات المرتفعة والمربعة حول الفناء مغطاة بخشب الأرز، وفيها نوافذ كبيرة ذات أقواس فسيفسائية. والشوارع ضيقة وقذرة، كما في كل مدينة مسلمة؛ والأسواق بائسة ومختلفة جداً عن أسواق بغداد. وبعض المساجد العشرين الموجودة لا تتمتع بأية أهمية سوى تلك التي توحي بها أسماء الشخصيات التي بنتها.

تحيط بالموصول بقايا أسوار من عصور مختلفة، مع سبعة أبراج، أحدها مائل مثل برج بيزا؛ ولكنها صمدت بالرغم من ذلك بصورة ظافرة، في العام 1743، للحصار الذي فرضه عليها الفرس بقيادة نادر شاه ذائع الصيت. وفيها جسر عظيم مبني من مواد من تلك التي استُخدمت في تأسيس نينوى، يؤجر بستة عشر ألف دورو سنوياً، ويتقاضى المتعهد بالمقابل قرشاً واحداً مقابل كل حمولة، ونصف المبلغ عن كل فارس يعبر الجسر. وهناك الكثير من الحمامات والمقاهي أيضاً. ولكن الموصل، باختصار، تقدم القليل من الجاذبية وهي ذات حياة تجارية واجتماعية شحيحة.

على الضفة الشرقية، وجهاً لوجه، تقوم قرية النبي يونس، حيث يوجد مسجد يعتبر الأقدم في البلاد، يشيرون فيه إلى ضريح يونس. وهناك أبعد قليلاً من ذلك ما يقولون إنه قبر القديس جرجس، ولكنني أرى أن الأمر الأول يمكن أن يكون حقيقياً أكثر من الثاني، لأن يونس مات في نهاية المطاف في نينوى. وخارج المدينة، إلى جهة الجنوب، على

ضفة الماء، توجد السراي، وهي بناء ضخم، أشد مهابة من بعيد مما هو عن قرب، حيث تحصن الباشاوات مرات عديدة في الأزمنة التي كان فيها الإنكشارية هم الذين يأمرون. ولكن، ويا للغرابة! فضفاف دجلة الوارفة الرغيدة والصحية، والمرغوبة بأشجار صنوبرها البري، لا وجود فيها لأي مسكن أو أي دار لهو؛ والسبب في ذلك تقليدي خالص. فمن المعروف أن الفرس قاموا بغارات كثيرة على البلاد، وأدى ذلك إلى عدم وجود من يرغب في السكن على الضفة الشرقية خوفاً من الاختطاف أو القتل في أي يوم لا يخطر على بال. ومازال الحذر من ذلك متواصلاً حتى الآن، وما زال هناك نفور من الموت خارج أسوار المدينة.

أما بشأن الزراعة، فلم أر إلا بعض البساتين، ومن ناحية الأهمية التجارية، يكفي القول إنه في هذه المدينة ذات الخمسين ألف نفس، لا توجد صناعة ولا رأس مال يصل إلى مليون ريال. وسلع الضرورات الأولى التي تستخدم في التموين وللتصدير، تأتي من السهول الخصبة التي تشرف عليها جبال كردستان. ومن تلك الجبال نفسها التي تبعد عشر ساعات، يأتي القمح والذرة، والكثير من جوز الطيب بصورة خاصة، والصوف، والفواكه، وغيرها. كما تُصدر من الموصل كلاب سلوقية مشهورة تُستخدم في صيد غزلان بديعة تكثر في هذه المنطقة. ويرسل سلاطين تركيا في كل سنة زوجاً من سلالة الكلاب الرشيقة تلك إلى ملوك فرنسا، منذ زمن الملك فرنسيس الأول.

وبسبب تسمية المدينة، يظن البعض أنها تعمل في صبغ حرير الموسلين أو طبعه؛ لكنني تقصيت وتوصلت إلى أنها لم تعرف هذا الفن قط، وهو فن خاص بالهند؛ ولا شك أنه في العصور الوسطى، عندما كانت تمر منها كل تجارة الشرق الأقصى، كثرت فيها هذه السلعة، ومن هنا نشأ الخطأ. وسكان الموصل خليط من الأتراك والعرب

والكرد واليهود. وفيها ألف كاثوليكي، وعشرة آلاف ما بين نساطرة وكاثوليك كلدانيين، وكان هؤلاء الأخيرون ينتمون إلى الطائفة النسطورية حتى بدايات القرن الأخير، حيث حوّلهم اليسوعيون إلى الكاثوليكية. وهناك دير كبير للآباء الكرمليين الحفاة، دعاني رئيسه لسماع قداس فيه. وما إن علم بطريرك الكلدان الكاثوليك بوجودي حتى سعى لمقابلتي والاستفسار مني عن أحوال أوروبا، وخاصة ما يتعلق منها بروما والبابا. وبالرغم من أن الكلدان يستخدمون لغتهم في الطقوس الدينية، والبطريرك يعرف اللاتينية، إلا أنه تبادل الحديث معي، عموماً، بالعربية. إنه عجوز موقر، في الخامسة والثمانين من العمر، له لحية بيضاء طويلة، ويرتدي عباءة قرمزية واسعة ذات طيات، مثبتة بحزام عريض مشغول من الحرير والذهب، ويعتمر على رأسه قلنسوة اسطوانية طويلة، ويمسك في يده عكازاً طويلاً. مظهره جدير بأن ترسمه ريشة فنان، وحديثه العذب يعكس طمأنينة روحه.

فرنسا ممثلة هنا بقنصل موظف، وإنكلترا بقنصل وطني يبدو أنه قدم خدمة ما للبروتستانتية. ويمثل إيطاليا قنصل هو تاجر يوناني ثري.

ولكن من لفتوا انتباهي أكثر من سواهم هم *عبدة الشيطان*، ولكي ترى إلى أي حد يمكن أن يصل ضلال مخيلتنا، سأورد ما استطعت معرفته عنهم.

إنهم يشغلون سبعين قرية على مقربة من الموصل، كل قرية منها تضم من عشرة إلى ستين بيتاً، وقرى أخرى باتجاه بحيرة أرومية. وهم قليلو العدد في هذه المدينة، لأنه يحظر عليهم إقامة معابد. أما مقر الزعيم الروحي الذي يعاملونه كأمير، فهو في جبال سنجار، حيث يقيمون كل عام احتفالات كبرى في شهر أيلول. وتتميز درجات كهنوتهم في سبع مراتب، ويقتصر السماح بمعرفة القراءة والكتابة

على زعمائهم، وبالتالي دراسة كتاب ديانتهم العظيم الذي يقال إنه موجود في مدينة حلب. ويملك الأمير في بيته سبعة طواويس من الصفيح، بالحجم الطبيعي، ترجع إلى أوثان كثيرة أخرى، ويقال إن من صنعها هو سليمان؛ ومن سماتها العديدة، افتقارها إلى إحدى العينين. وتتمثل إحدى طرق عبادتها في إشعال صمغ الصنوبر أمامها، نهاراً وليلاً، دون توقف. وفي آذار ونيسان، يأخذ أكبر الزعماء سناً أحد تلك الطواويس، ويحمله ليلاً في موكب عبر مختلف القرى؛ ولدى رؤيته قادماً، يخلع العامة عمائمهم ويقبلون الأرض، ويضربون صدورهم ويقدمون له القرابين التي تسمح بها إمكاناتهم؛ ومن يقدم أكثر ينال امتياز الاحتفاظ به في بيته بقية الليل.

وعبدة الشيطان جميعهم من الفلاحين. يصومون ثلاثة أيام في بداية رمضان ويمارسون الختان، ويحظر عليهم قص الشعر واللحية، ولا يمكنهم الدخول إلى حمام للاغتسال، ولكنهم يستطيعون الاستحمام في نهر؛ ولا يتفوهون أبداً باللعنات، خشية أن تقع على الشيطان. ومن غير المسموح لهم نطق كلمات تبدأ بحرف الشين، لأنه الحرف الأول من شيطان، سواء بالعربية أو التركية أو الكردية. ويحظر عليهم أكل اللوبياء، والديوك. ويحظر عليهم بصورة خاصة شرب الخمر؛ ولكن المصادفة شاءت أن يكون أمير الطائفة الحالي طوال الوقت مخموراً أو *intoxicated* مثلما يقول الإنكليز الذين يكثرون من إراقة الخمر على شرف باكو. ويمكن لهم أخيراً امتلاك ما يشاؤون من النساء، ومثلما هي الحال لدى بعض الشعوب القديمة، وبعض الشعوب الحديثة أيضاً، يعتبرون العدد سبعة مقدساً.

لقد حصلت على هذه الملاحظات من اثنين من عبدة الشيطان، واكتفيت بذكر ما بدا لي معقولاً. وقد يكون السبب الذي قادهم

إلى مثل هذه العبادة الغريبة واضحاً وجلياً في نظرهم. فهم يقولون: «إننا واثقون من رحمة الله، ولكننا لسنا كذلك بشأن رحمة الشيطان؛ ومن العدل إذاً توسلها منذ هذه الحياة».

ومهما يكن أمر هذه الممارسات، لا بد لي من القول الآن إنني لم آت لرؤية الموصل ولا ساكنيها، وما كنت لأقوم بهذه الرحلة لمثل هذا الهدف، لأن ما جذبني إليها هو سبب آخر؛ وقد أُحبطت آمالي تماماً، ولكن ذلك لن يصرفني عما يشكل تلك الأحلام: آثار نينوى.

سأتحدث أولاً عن المكان الذي تشغله.

قد يجد رجال علم راسخون صعوبة في بعض الأحيان في حلّ إحدى المسائل وهم في مكاتبهم، بينما تجد الحلَّ على أرض الواقع وجهة نظر شديدة التواضع. أقول هذا لأن جدلاً كان يدور حول مسألة إذا ما كانت مدينة نينوى تقوم على الضفة الشرقية أم الغربية لنهر دجلة، وهذا يعني، في آشور أم في ميسوبوتاميا.

إن تفحص الموقع الذي تحتله بابل، تلك المجموعة من تلال الطين المفتت التي وصفتها في رسالة أخرى، أتاح لي بكل تأكيد التعرف على موقع نينوى عند وصولي إلى هنا. بما أن المدينتين كلتيهما مشيدتان من الطوب، بالرغم من وجود عدة محاجر في هذه الأنحاء، فمن الطبيعي أن تخلفا الآثار نفسها، وقد كان الأمر كذلك بالفعل؛ فإلى الشرق، وجهاً لوجه مع الموصل، تمتد مجموعة من التلال يصل ارتفاعها إلى عشرين أو خمس وعشرين متراً، تغطي مساحة متقطعة أحياناً، تصل إلى ثلاثة فراسخ طولاً وفرسخ ونصف الفرسخ عرضاً. في الجزء الغربي، وعلى امتداد يصعب تحديده، تتواجد أيضاً تلال مبعثرة، منفصلة بعضها عن بعض. ولكن أينما اتجهت تظهر الأطلال. ومدينة الموصل نفسها مبنية فيها، فوق أرض مرصوصة، غاطسة بفعل ثقلها نفسه. والدليل على

ذلك أن أساسات الكنيسة التي بناها الآباء الكرمليون للتو توجد على عمق عشرة أمتار تحت مستوى النهر، وعلى عمق خمسة وثلاثين متراً تحت أرضية المعبد. وقد عُثر على عمق بضعة وعشرين متراً في هذا المكان على آجر، ومكعبات منحوتة من حجر متين، وقطع حجر أبيض تكشف بصورة واضحة عمل يد الإنسان فيها. مما يشير إلى أن نينوى كانت تمتد على كلتا ضفتي *المجرى الحالي* لنهر دجلة. وبالتمعن جيداً، فإنها حاضرة أصغر قليلاً من بابل، إذ تبلغ مساحتها 216 ميلاً مربعاً، بينما تلك 225، ولا بد أن النهر العظيم كان يجري في منتصفها، أو أنها، بكلمة أدق، لم تركز حياتها كلها على ضفة واحدة. ولو نظرنا إلى المدن الحالية الكبيرة القائمة قرب مياه حية، نلحظ أنها راحت، شيئاً فشيئاً، تجعل ذلك الماء في وسطها.

تحدثتُ أعلاه عن *المجرى الحالي*، لأنه على بُعد ساعة إلى الشرق، يوجد قاع نهر جاف بعرض ذاك الذي يجري أمام الموصل. لم أتفحص بنفسي الاتجاه الذي يتخذه، ولكن البعض يعتقدون أنه كان المجرى الأولي لنهر دجلة. ومن هنا الفرضية القائلة بأن نينوى كانت تقوم في ميسوبوتاميا. ولكني قلت من قبل إن من عادة دجلة أن يبدل مجراه أحياناً، بل أن يشكل جزراً معتبرة الحجم إلى هذا الحد أو ذاك.

ثلاثة مواقع هي التي يتوجب زيارتها في نينوى: *قوينجق وخرسباد*، على بعد نصف ساعة إلى الشمال الشرقي، *وتل نمرود*، على بعد أربع ساعات إلى الجنوب من الموصل. الموقع الأول يمتد قبالة الموصل، مقدماً لعيني الناظر عدة تلال ضاربة إلى الحمرة، تقطع رتابتها بين مسافة وأخرى حفرة هنا أو هناك، استُخدمت مدخلاً لحفريات تنقيب متعددة أُجريت أول مرة قبل عشرين سنة، وقام بها قنصلا فرنسا وإنكلترا، السيدان بوتا ولايارد. وقد عثرا هناك على مجموعة حجرات كبيرة

ومرتفعة، مغطاة بصفائح من الحجر الأبيض، مع وفرة من النقوش الغائرة والكتابات التي تشير إلى حملات سنحاريب الحربية (680 قبل الميلاد) ضد أرض الميعاد، وتكشف أنه كان في قوينجق قصر ذلك الملك المشهور الذي بدأ بإعادة إعمار نينوى بعد أن دمرها الميديون والكلدان. وكلما اكتُشف شيء من هذه الذخائر الثمينة وغيرها، كان يُرسل إلى المتحف البريطاني وغيره من أهم المتاحف في أوروبا.

الأروقة كلها قد انهارت تقريباً، وقد وجدتها في هذه الحال. وفي أروقة تُرى بروزات من الآجر في الجدران مماثلة لتلك التي في بابل، مع قار وكتابات مسمارية. وتوجد في غيرها بروزات دعم من أحجار الصوان أو الحجر الأبيض، وهو حجر شائع في هذه البلاد ويستخدم في صنع الكلس.

في اثنتين من تلك الحجرات توجد منحوتات، سأقوم بوصفها. إحداها هي حفر غائر على حجر كلسي، طوله خمسة أمتار وارتفاعه متران، يمثل شخصاً واقفاً في عربة حربية تجرها أربعة أحصنة تعدو، يقودها الشخص نفسه. وإلى الخلف يتوالى عدد من الأسرى مكبلي الأيدي. وبما أن قواعد المنظور لم تكن معروفة جيداً في تلك الأزمنة، فإن ارتفاع الجبال يبدو ضعف ارتفاع الشخوص، والحقول تلامس الغيوم، وتبدو الأشجار، أكثر من أي شيء آخر، أشبه بالنبتة المائية المسماة نيلوفر أو البشنين. والوجوه جميعها تظهر جانبية بملامح جدية، وللشخوص شعور غزيرة ولحى مستعارة، مشغولة بأسلاك، في محاكاة للجدائل، وتبدأ من فتحات الأنوف. هذه الملاحظة، ومثلها دقة التفاصيل، سواء في الملابس أو العضلات، هي عامة في كل هيئات الشخوص التي وجدت في نينوى القديمة. وألاحظ كذلك أنهم يضعون خاتماً كبيراً في السبابة. وبدلاً من الخوذة، يعتمرون قبعة مخروطية أو شبيهة

فـي شـكلها بقبعـات الكهنـة الأرمـن، أي أنهـا أقـرب إلى الأسـطوانية، أكثر اتساعاً فـي الأعلى مما هي في الأسفل. ويرتـدون معطفـاً قصيراً، وينتعلـون صنـادل جلديـة يمـر أحـد أحزمتهـا بـين إبهـام القـدم وسـبابتها، ويعلقـون بـأحزمتهم سـيوفاً قـصيرة. ويـشكل المجمـوع منحوتـة جيـدة ومتقنة، ولم يكن نقله إلى أوروبا ممكناً بسبب ضخامة حجمه.

وفـي حجـرة أخـرى منحوتتـان أحاديتـا الحجـر، متشابهتان تمامـاً وسليمتان، وقد اكتشفهما منذ نحو شهرين سـكرتير حـاكم بغـداد العام. وأبعادهمـا سـتة أمتـار طـولاً، وأربعـة أمتـار ارتفاعـاً، ونـصف متـر سماكـة. وتنتـصبان متـوازيتين، تفـصل إحـداهما عـن الأخـرى مـسافة ثلاثـة أمتـار، ممـا يجعلنـي أميـل إلى الاعتقـاد بأنهمـا تـشكلان مـدخل قصـر أو معبد. وفـي سماكـة الحجـر يوجـد، بحفـر غـائر إلى النـصف، نوع من أبي الهـول المجنـح، لـه مـلامـح صـارمة وجيـدة الرسـم، وقلنـسوة تزينهـا عدة شرائط مفلتة، ولحية مستعارة. ويبدو أنه يمثـل مـن الخـصر إلى أسـفل، حيوانــاً صـوفياً لــه قـوائم ثـور. وعلـى الجـانبين هنــاك تشخيص، فـي حفـر غـائر، لرجلين بـالحجم الطبيعـي، تغطـي رأسيهمـا قلنـسوتين مخـروطيتين، واليـد اليمنـى ممـدودة بكـرمـة. وفـي أقـصى الجانبين كتابة مسمارية فـي حالة سليمة تماماً.

وقوينجـق هـي المكـان الـذي عثـر فـيه الـسيد لايـارد علـى بقايـا المكتبـة الأشـورية المـشهورة الـتي أسـسها أشـوربانيبال، وأسـهمت مـساهمة كـبيرة فـي معرفـة حالـة المجتمـع الأشـوري الفكـريـة. ويـضم ذلك الأرشـيف العجيـب مقـاطـع مـن النحـو والقـوانين والتـاريخ والعلـوم، ويتألف من صفـوف رُقم طينية كانت تُنقش عليهـا وهـي لا تـزال طـريـة، رموز كتابة دقيقة جداً.

وفـي خرسباد، على الرغم من كل ما نُقل منهـا، مـازال هنـاك عـدد

من أعمال الحفر الغائر التي تمثل شخوصاً بكامل قاماتهم، مع اللحية المعروفة والكرمة في اليد اليمنى، أو تماثيل نصفية فقط، مع كتابات متراصة حولها؛ أو ثيران مجنحة بوجوه بشرية، في تجسيد للسلطة الإلهية، بدمج القوة المادية مع الذكاء. وقد بقيت كذلك أجزاء من أعمدة، ولها كما يبدو شكل نخلة، وبقايا قنطرة ماء من القرميد في قبة على شكل عقد قوطي. ولكن ما يفاجئ أنه في مقصورة إلى الشمال، حيث مازال سواد لون المرمر يدل على الحريق الرهيب الذي التهم المدينة، وقد بقيت، مختلطة بالأنقاض، قطعة من الأرشيف مطلية بالمينا، طولها حوالي عشرين سنتيمتراً وعرضها ستة، مع زهور ورسوم بخطوط مستقيمة، بالألوان الأبيض والأحمر والأزرق الفاتح. ومنتصف القوس التي هي فيه، يبلغ نصف قطره متر ونصف المتر.

وفي تل نمرود هناك مزيد مما يمكن رؤيته. لقد ذهبت على حصان، ولكنني أسفت بعد ذلك لأني لم أذهب في طوف نزولاً في النهر. القرية التي تحمل بفخر اسم تل نمرود تتألف ببساطة من حوالي عشرين كوخاً بائساً يسكنها أكراد تعساء. وعلى بعد كيلومتر من القرية تقريباً، توجد المواقع التي أمر السيدان بوتا ولايارد الحفر فيها. غير أن الحجرات التي اكتشفوها قد قُوضت ويكاد لا يمكن التعرف عليها. ويبدو أن العرب قد تعلموا منهما، إذ أنهم كشفوا في مواقع كثيرة بعض أعمال النحت الغائر، سيكون من الإطالة وصفها كلها، ولكنني لا أستطيع عدم التحدث عن اثنين منها يمثلان مشاهد مازالت تُرى في زمننا الحالي. في واحد منها رسم لاثني عشر رجلاً، طول قاماتهم قدم ونصف، منهمكين في سلخ ستة رجال آخرين، هم دون شك من أسرى الحرب. يشقون البطن ويشدون الجلد إلى اليمين واليسار بسهولة كبيرة، وهذا الأمر بالضبط مازال الأكراد يمارسونه الآن.

والمشهد الآخر يمثل عدة أشخاص يتنزهون في زورق، وتظهر في النهر بسذاجة أعداد كبيرة من السمك. لكن الشيء الخاص هو المراكب، فلها شكل وحجم تلك التي رأيتها أثناء صعودي في دجلة، يقودها مراكبي واقف، بمجداف واحد، يحركه إلى اليمين واليسار بالتناوب. والأكثر خصوصية من ذلك هم الناس الذين يظهرون على الضفة، بعضهم مشغول بطلي الزوارق بالقار، وآخرون يملوؤن بالهواء القرب التي يضعونها تحت الأطواف، مثلما يُمارس اليوم دون زيادة ولا نقصان.

لقد اكتشف السيد لايارد في تل نمرود الردهات الفسيحة التي كانت تشكل قصر أشورناصربال الدموي (950 قبل الميلاد)، مترعة بأشياء ثمينة ورُقم حفر غائر عليها كتابات مسمارية أتاحت إعادة تركيب تاريخ ذلك الملك الذي يقول هو نفسه عن نفسه إنه «يطمئن بين الأنقاض ويطرب حين يشفي غليله». هذا الاكتشاف الذي قام به القنصل الإنكليزي الذكي في الموصل سهّل للعلم المعطيات الوحيدة المتوافرة لنا حتى الآن حول العصور السابقة لسنحاريب.

هنا، كما في خرسباد وقوينجق، عثر على كثير من اللقى الصغيرة، مثل الخواتم والطلاسم والأحجار التي عليها كتابات، وغيرها.. ولكن لا علم لي بأنه عثر على أي ختم أسطواني بابلي.

وبإيجاز، أظن أن نينوى تمثل اليوم أهمية أكبر من أهمية بابل، بالرغم من أنه لا يمكن رؤية النصب التي وصفها أول المكتشفين، والتي كنت آمل في مخيلتي أن أراها على سطح الأرض لدى اقترابي من المدينة. وإذا كان سيجري انتهاك حرمة كلا الأرضين، فإن هذه توفر حوافز أكبر، لأن دراسة المتخصصين المحدثين بالأشوريين للكتابات الكثيرة التي تُكتشف كل يوم، ستتوصل إلى استدراك وإصلاح الفقدان الكبير من *تاريخ الأشوريين* الذي وضعه هيرودوت.

أما من يريد تقدير فن تلك الشعوب القديمة والاستمتاع بها، فلا يحتاج للمجيء إلى هنا؛ لأنه سيرى في باريس ولندن أكثر بكثير مما يمكن أن يراه هنا، وإن لم يشعر بالانفعالات التي سيشعر بها وهو يجول بين آثار نينوى في أرضها.

لقد أوردت ما كنت أعتقد أنه يتوجب عليّ ذكره عن هذه البقعة من الأرض الأشورية. ويبدو أن الريشة تأبى صياغة بعض عبارات المشاعر في أرض تتحدث عنها الكتابات المقدسة وتمتدحها الكتابات الدنيوية، ولكن ذلك لأنها تخشى أن لا تخط ما هو منصف. هناك بالفعل أشياء بالغة العظمة، واسعة الشهرة، شديدة التألق في الخلود، بحيث يمكن لأي إطراء وأي تقويم أن يقصر في حقها؛ ونينوى هي واحدة منها: إذ يمكن أن تُقوض هنا مئة حاضرة، واحدة بعد أخرى، ويمكن أن يأتي اليوم الذي ينسى فيه البشر التقاليد كلها، ولا يتكرر فيه شيء، ولا يؤمن فيه بشيء، ولكن اسم نينوى سيظل يدوي في العالم.

VII
من الموصل إلى ديار بكر

ديار بكر، 24 تموز 1869

بعد أن رأيت وتفحصت آثار حواضر الكلدانيين والأشوريين الكبرى، لم تعد لدي رغبة أخرى سوى الوصول إلى هدفي والانكباب على مهماتي النظامية. ولو كان بمقدوري الذهاب من الموصل إلى ديار بكر في وثبة واحدة، لفعلت ذلك، ولكنه أمر مستحيل؛ ففي وسط كردستان، وفي كل الاتجاهات، تمتد أمامي مئات الفراسخ، ويمكن لي في المحصلة أن أختصر بعضها باختيار أقصر الطرق، ولكن لا يمكن لي بأي حال تجنب الإرهاق والحرمان اللذين يمكن لهما إخافة آخرين أقوى مني بنية.

كنت أحمل معي رسالة من حاكم بغداد إلى زعيم إحدى العشائر، عشيرة *العنزي*، كي يتيح لي مواصلة الطريق بخط مستقيم بين الموصل وأورفه؛ ولكن الحظ شاء ألا أتمكن من تحديد مكان ذلك الزعيم، وأن تُبَيّن لي سلطات الموصل كذلك بأن الرحلة إلى أورفه في فصل الربيع هي «أشبه بنزهة في حديقة»، أما في الفصل الحالي فإن المصاعب التي سأواجهها هي مثل مصاعب الرحلة من بغداد إلى دمشق. وبأسف شديد تخليت عن القيام بهذه الرحلة الأخيرة التي كانت ستوفر لي متعة رؤية تدمر، وبالإحساس نفسه تخليت عن إتباع طريق آخر كان سيتيح لي التعرف على رأس العين، حيث منابع نهر الخابور.

ولعدم قدرتي على الذهاب إلى أورفه مباشرة، لم يبق لي إلا البحث عن أفضل طريقة لاجتياز التسعين فرسخاً التي تفصلني عن ديار بكر،

وهي بكل المعايير مدينة مهمة وجديرة بأن تُرى. وفجأة خطرت لي فكرة قطع هذا الطريق بالوسيلة نفسها التي قطعت بها الطريق من بغداد إلى الموصل؛ ولكنني قدرت، من جهة أخرى، أنني اجتزت هذه المسافة بفارق تسع ساعات فقط عما يحتاجه *الطاطر*، فقررت الذهاب برفقته. وبهذه الطريقة سأجد عدة فوائد: فللطاطر، باعتباره ناقل بريد وأموال وحلي، الحق بطلب ما يُقدِّر أنه بحاجة إليه من حرس لتوفير أمنه؛ فإذا ما تعرض لخطر يتولون حمايته، أما إذا حدث وواجهني أي خطر، فإنني سأكون بلا حماية في الغالب. وتقديم إكرامية مسبقة للطاطر - وهو شخص مستبد برأيه، يختار حسب نزوته أماكن التوقف - يتيح لي الاعتماد على أنه سيوفر لي أفضل الجياد دون أن أضطر إلى البحث عنها بنفسي، وهو ما كنت أقوم به دوماً دون نجاح. وباختصار، السفر مع الطاطر مشروع جيد، باستثناء أنه سيكون علي أن أسير عشرين أو اثنتين وعشرين ساعة في اليوم. وهكذا دفعت أجرة حصاني، ودفعت للطاطر المبلغ الذي وفرته من عدم الاستعانة بدليل، ووضعت في يده خمسة دوروات أخرى، مع الوعد بمثلها إذا ما أحسن التصرف. وهكذا خرجت من الموصل يوم السبت، السابع عشر من الشهر، الساعة الثالثة بعد الظهر.

كان خادم الطاطر يمضي في المقدمة، ممتطياً بغلة محملة كذلك بكيسين ضخمين من الجلد ممتلئين بالرسائل، ينطلق بصوت حاد ومديد، ينتهي بما يشبه النحيب مع انتهاء النَّفس، وهو علامة متفق عليها للإعلان في القرى عن وصول البريد، كي يفسح له الجميع الطريق. يتبعه الطاطر الذي يبدو كأنه مصنوع من خشب؛ فهو يلتف بكثير من الأحزمة واللفائف، وهذا احتياط صائب لجعل معاناة الجسم أقل من حركة الحصان. وبعده أمضي أنا بحماسة كبيرة للمواصلة، ممتعاً نظري بمشهد الناس الواقفين فاغري الأفواه، ولكنني في حالة من التأثر، نتيجة شيء من الحزن الذي يسيطر عليّ كلما خلّفت ورائي قرى

لن أعود إلى المرور بها، وأشخاصاً أخرج مديناً لهم بكل أنواع الرعاية، ودون أمل في أن تتاح لي فرصة ردّ الجميل لهم.

بعد اجتياز الجسر، وجدنا خمسة جنود خيالة، انضموا إلينا: وسرنا بمحاذاة الضفة للحظات، وأنا أرى حفريات التنقيب التي كنت قد دخلتها متلهفاً. وبعد قليل وجدنا أنفسنا في أرض قفر، وواصلنا باتجاه الشمال، وبصرنا مصوب إلى حقول فسيحة بعيدة، تظهر أمامنا بين هضاب بديعة.

بعد سبع عشرة ساعة من المسير بخطوات مديدة، لمحنا جبال زاخو المرهوبة بسبب الكمائن والهجمات التي يشنها الأكراد بكثرة هناك. والحقيقة أنه لا يمكن لمكان أن يكون أكثر ملاءمة لمثل تلك الأعمال: إنها سلسلة من الرؤوس الجبلية الصوانية المنتصبة، من المحال اجتيازها على صهوة جواد، حيث كل خطوة عثرة، وكل وقوع يعني رضوضاً خطرة، ويمكن لرجلين أو ثلاثة مستحكمين جيداً أن يتصدوا لاثني عشر رجلاً ووقف تقدمهم.

باجتيازنا ذلك الدرب الجبلي الضيق، نزلنا بعد ثلاث ساعات إلى زاخو، وهي قرية من ألفي نسمة، يعيش فيها عبرانيون وأكراد، مستقرة بلطف بين ذراعي نهر يمضي ليصب في دجلة؛ وفيها مراعٍ وفيرة في السهول التي تمتد لأربعة فراسخ، عند سفوح سلسلة جبال خودي، وهي أعلى جبال في آشور، ذات حواف وألوان مهيبة. ويقطن تلك المناطق، حتى بحيرة فان، أكراد مستقلون عن الحكومة، إن لم يكن حقوقياً، فعملياً على الأقل. وزاخو نفسها لا تشكل جزءاً من ولاية بغداد، وإنما تتبع ديار بكر.

بينما نحن نصعد مع دجلة، لاحظت بين الناس الذين في المركب رجالاً بقامات عملاقة، وتقاطيع متناسقة، ومظهر على شيء من الشراسة؛ وباختصار، أناس يبدو واضحاً أنهم من عرق مختلف.

وعرفت أنهم من قرية تل كيف، التي كنت قد خلّفتها إلى يساري عند خروجي من الموصل؛ فضلاً عن أنني كنت قد التقيت في دالهون، حيث كانت المحطة الأولى، وبعد ذلك في زاخو، المحطة الثانية، برجال ضخام مشابهين لأولئك، فاستنتجت، مثلما تبين لي بالفعل، أنهم يمثلون النموذج الكردي بكل نقائه.

وعند انطلاقنا خارجين من زاخو صدمتني أعداد الدجاج الاستثنائية التي تجول في القرية. وحول هذا الأمر قيل لي إن حضانة البيض تتم هناك بأساليب اصطناعية، وقد لفت انتباهي أن بلاداً بمثل ذلك التخلف تستخدم أساليب تتباهى بها أكثر مدن أوروبا تحضراً، وهي أساليب لم تنتشر بعد للأسف في إسبانيا. بعد قليل رأيت تقدم قوة من حوالي ستمئة رجل، عائدة دون جدوى من حملة تأديبية لبعض قبائل الجبال؛ وكان الجنود المساكين يعودون شبه عراة، جائعين ومستنفدين من المسيرات التي قاموا بها في مناطق شديدة الوعورة، وتغص بالأعداء.

اجتزنا عدة قرى يسكنها أكراد ويهود بائسون، بدا أن حالة الخبل التي يعيشون فيها، تؤكد أنهم من نسل أولئك الذين ظلوا قبل ألفي وخمسمئة سنة مهجورين هنا.

وفي يوم الأحد، الساعة الثانية عشرة ليلاً، دخلت في شِعب كلسي ضيق، حيث تشير كثرة الأحجار والرمال بوضوح أنه وادي نهر؛ وقد كان كذلك فعلاً، ذلك أن مياه دجلة الكبرى تخرج عن مسارها إلى الشمال قليلاً، وتنسكب في تلك الأراضي. في الساعة الواحدة اجتزت النهر على جسر بالغ السوء، نصفه من الأحجار ونصفه من القوراب، وبعد قليل كنت أستريح في جزيرة ابن عمر، وهي مدينة مهدمة اليوم، لكنها ذات شهرة لا تُنسى في سجل الكنيسة، لثبات سكانها على إيمانهم الكاثوليكي، وللعناد والبسالة اللذين دافعوا بهما عن إيمانهم في مواجهة غزوات العرب والكرد، والفرس والأتراك.

لم أكن قد استلقيتُ بعد على السجادة التي قُدمت إليّ في المحطة، عندما صاح الطاطر طالباً المسير؛ اعتبرتُ الأمر مزاحاً للوهلة الأولى، لأنني بالنظر إلى حالة جسدي كنت أخمن كيف هي حال جسده أيضاً؛ ولكنني حين تأكدت من نيته غير الإنسانية، رجوته أن ينتظر ولو ثلاث ساعات، ننام ساعتين منها، ونستغل الساعة الثالثة في رؤية الآثار التي لا بد من وجودها هناك. وافق على طلبي، ومع بزوغ فجر يوم الاثنين التاسع عشر من الشهر، أيقظني، فتناولت قهوة، وخلال نصف ساعة كنت قد رأيت البلدة وامتطيت الحصان.

يبلغ عرض نهر دجلة هناك حوالي ثلاثمئة متر، وهو يحيط بجزء كبير من المدينة، ولهذا السبب تطلق عليها تسمية جزيرة. لون المياه الأزرق وشى لي بعمقها الكبير. ومع أنها تبدو ساكنة لا تتحرك، إلا أنه يمكن لأي شيء يُلقى فيها أن يمضي مندفعاً كسهم ناري. يعيش في الجزيرة ثمانية آلاف نسمة، معظمهم من الأكراد؛ ولها سور ضارب إلى السواد فيه فتحات لإطلاق السهام، كان يوفر لها في الماضي حماية كبيرة. وبيوتها مبنية من المواد التي استُخدمت في بناء كنائس، وكل حجر يُرى هناك، بل وفي محيط المكان كله، يشكل دليلاً على ذلك. وما تزال قائمة ردهات ثلاثة معابد، وسقوف جملونية، ودعامات بارزة في جدار، وأقواس، وبعض الأعمدة التوسكانية. أما في موضوع الفن فلا وجود لأي أثر مهم كامل، ولا تكشف البقايا عن وجود ما يستحق تلك الصفة. هناك في الغرب ينبوع يسمى نبع *الشياطين*، وحول هذا الينبوع تروى سخافات غير قليلة، لكن مياهه تروي منطقة بساتين بديعة، حيث تمتع البصر أصناف متنوعة من الياسمين، وبعض أشجار البرتقال، وأشجار صنوبر خضراء.

ويعرضون في المسجد مدفن طفل، يقولون إنه ولد ميتاً في

سفينة نوح. وهذه السفينة توقفت، حسب اعتقاد المسلمين، على إحدى قمم جبال الخودي، وقد أروني إياها من أعلى السور.

لقد منحت الجزيرة اسمها إلى عدد كبير من العلماء العرب الذين ولدوا فيها. وقد رأيتُ هنا، بين مخطوطات أخرى، مخطوطة *جامع الأصول في أحاديث الرسول* للجزري المتوفى عام 607 للهجرة: ومخطوطة *الكامل*، أو التاريخ العام لعز الدين ابن الأثير الجزري (630 هـ) ومخطوطة *الفلك الدائر على المثل السائر*، من تأليف ضياء الدين الجزري (638 هـ).

ومن المعروف أن كلمة جزيرة هي من أكثر الكلمات استخداماً في الجغرافية العربية. وأعرف أنه في هذه البلاد وحدها توجد خمس أو ست مدن تحمل هذا الاسم. وفي إسبانيا، إذا لم تخني الذاكرة، لدينا ثلاث: *الجزيرة الخضراء*، حيث نزل طريف، بالقرب من جبل طارق، ووصل إليها بعد قليل من ذلك طارق نفسه؛ وجزيرة *الشكر* في الجانب الشرقي من الأندلس، وأخيراً *الجزيرة* أي جزر البليار.

كان عليّ الذهاب من الجزيرة إلى ماردين. ولأنه لم يكن بالإمكان إتباع طريق مستقيم بسبب سوء حالة الدروب، فقد قمت خلال اثنتين وعشرين ساعة بالالتفاف عبر بَسبرين إلى نصيبين مندفعاً في العدو على هواي في مناطق ميسوبوتاميا تلك، حيث سمع البشر أول مرة صخب المعارك، وروتها جيوش كثيرة بدمائها. فيها ازدهرت مدن خالدة الذكر؛ وتشتت شمل غزاة أرض الميعاد وبكى أبناء إسرائيل. وفيها دار الصراع بين الكلدانيين والأشوريين، والأشوريين والميديين، والإغريق والفرس، والفرس والبارثيين. وإليها جاءت لتنتصر أو لتفنى كتائب القناصل والأباطرة الرومان، وجيوش أرمينيا، والبيزنطيين، والفرنجة، والصين، والعرب، والأتراك إلى أن أُنهكت الأرض، واتشحت برداء الأسى والخراب، وقبعت مستكينة بصمت القبور.

تقع نصيبين في سهل، عند السفوح الجنوبية لجبال قرجه؛ وهو موقع باهر الجمال، مختفٍ بين بساتين أشجار مثمرة وياسمين، تخترقه في كل الاتجاهات غدران كثيرة، حيث يتموج الماء متقافزاً. ولا يستمتع بكل هذا البهاء إلا حوالي تسعة آلاف نسمة، ما بين أكراد وعرب وبعض المسيحيين!

ومع أن الوقت كان بعد منتصف الليل، إلا أننا وجدنا جماعات كثيرة من الناس، يبدو من خلال أصواتهم ونوعية إيماءاتهم أنهم يتحدثون عن حدث خطير. وجاؤوا إلى النزل ليوضحوا السبب للطاطر؛ لكنني لم أفهم شيئاً للوهلة الأولى، إلى أن أخبرني هو نفسه بأن رجلاً تركياً قد قتل للتو يهوديين اثنين خارج القرية، وأنهم اقتادوه فوراً إلى السجن، وهناك محاولة لمعاقبته بالعقوبة القصوى. وأضاف: إنه ظلم كبير، لأن المسلم، حسب القانون التركي، لا يستحق عقوبة الإعدام إلا إذا قتل عشرة يهود. لم أكن جاهلاً بالقانون، وبدا لي أن تذمره غير منصف؛ ولكنني رأيت مع ذلك أن الحذر يستدعي عدم معارضته، وأعطيته كامل الحق منقاداً لمثل عربي شائع يقول: ***يتوجب على الرجل، وفقاً للظروف، أن يكون أسداً أو كلباً أو هراً أو قرداً***. وقد كانت تلك المدينة، مثلها مثل الجزيرة، ضحية غضب أتباع النبي، لاسيما المدعو عمر الذي دمر أكثر من أربعة آلاف كنيسة أقيمت في بدايات القرن الرابع في أمكنة مختلفة من ميسوبوتاميا.

ولكنني كنت متعباً عند الوصول إلى نصيبين، حتى إنني فكرت في البقاء، ولو أدى ذلك إلى المجازفة بسفري وحيداً. غير أن الطاطر أمر بالبحث في القرية كلها عن حصان يناسبني، وقد كان الحصان مريحاً بالفعل. يمشي بخطوات أسرع من سواه في العدو، وأكاد لا أشعر بأنه يتحرك. هذا النوع من الخيول يسمونه رهوان (خفيف الخطو)، ولن يكون حديثي عن كيفية تربيتهم له خروجاً عن السياق.

عند بلوغ الحصان الثالثة من عمره يعلقون في رسغ كل قائمة من قوائمه قطعة رصاص وزنها أونصتان أو ثلاث أونصات، الهدف من حركتها الدائمة ترك أربطة قائمتي الحصان الخلفيتين طليقة؛ ويوضع على متنه سرج خفيف من قطن مغلف بقماش، ويركب فارس على ردفه، وهو وضع يجبر البهيمة على الاستعانة بكثرة بقائمتيها الأماميتين. وبإعداده على هذا النحو، يطلقون الحصان في أرض محروثة، ويجبرونه بالسوط على الجري، بينما اللجام مشدود جيداً. وبعد اثني عشر أو خمسة عشر يوماً من تجديد هذا التمرين، يصبح الحصان قادراً على الجري بسرعة وبالخطوات الناعمة التي أشرنا إليها، وهي مشية الحصان الذي نسميها في إسبانيا «أندادورا».

وهكذا استطعتُ بفضل عناية رفيقي واهتمامه أن أواصل المسير في الساعة الرابعة فجراً عبر تلك السهوب الشاسعة التي تبدو لي، حيثما وجهت بصري، لا متناهية. وما لبثت أن لمحت في البعيد، إلى يساري، قلعة نصيبين، حيث تُوقر على صخرة هناك آثار نوح، وعزرا، ويونس. لقد كانت عاصمة ميسوبوتاميا عندما غزاها تراجان، وتحولت بعد ذلك إلى معقل للفرس. وفي آخر مرة هاجموها، في القرن الرابع، حوّل أهالي نصيبين مجرى نهر دجلة، فتدفقت المياه بسرعة على مسطح فسيح، محولة المدينة إلى جزيرة. ولكن هذا العائق لم يكن السبب في نجاة أولئك السكان، إذ مخر شابور الثاني عباب تلك البحيرة في أسطول صغير مع جنوده وعتاده وخيوله وفيلته، واثقاً من أنهم سيسلمونه المدينة. ولكن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح. فقد غرق عدد كبير من الخيول، بينما كان النبالة ينقلبون وتدوسهم الفيلة، أو يموتون، أو يغرقون، أو يهربون من سهام أعدائهم الذين بث فيهم الحماسة ما رأوه من اضطراب وفوضى في صفوف الفرس. وقد كان وضع المعتدين سيئاً إلى حد أطلقوا معه على نصيبين تسمية «جنستان» (بلاد الجان)، وهو

اسم لا يزال شائعاً بطريقة ما،ذلك أن أهلها مازالوا يسمونها حتى اليوم «*بلاد الشكلين*»، ويعنون بذلك كما يُفترض البشر والجان.

وفي الوقت نفسه الذي رأيت فيه نصيبين تقريباً، لمحت في مواجهتي، بصورة غائمة، في أعلى أحد جبال سلسلة جبال قرجه، مجموعة البيوت المعلقة التي تسمى ماردين. ولكنني بدلاً من مواصلة الطريق المستقيم، رجوت دليلي الطيب (والنقود في يدي، وهي الطريقة الوحيدة لجعل هؤلاء الناس يستجيبون للتوسل) أن نضحي بساعتين من الوقت ونمر عبر دارا التي خلّفناها إلى يسارنا، وتبعد مسير أربع ساعات عن ماردين.

الحقيقة أنني كنت بحاجة إلى كل الهمة التي تمنحها أوهام الشباب كي أستمر في رحلة، لم تكد تنقطع، طوال ثلاث وخمسين ساعة؛ ولكنني على الرغم من ذلك كله، مررت بأناستاسيوبوليس القديمة التي يكفي ذكر اسمها كي لا يعرف آخرون أن من أسسها هو داريوس. وعلى الرغم من خرابها العظيم، إلا أن أسوارها العالية التي يبلغ ارتفاعها عشرين متراً وسماكتها ثلاثة أمتار ونصف المتر، وركام الأحجار الهائلة، والتي قبل أن تُستخدم في بناء كنائس استُخدمت في قصور وأبراج، تقدم للفضولي فكرة دقيقة عن الطريقة التي كان الرومان يشيدون بها مدنهم الحدودية المتاخمة لنهر الفرات.

وفي أثناء مواصلتي الرحلة، أطفأت ظمئي في الواحدة ظهراً في غول هاري، الواقعة عند نهاية منحدر جبل ارتفاعه سبعمئة متر، وفي منتصفه تبدو معلقة بيوت مدينة ماردين التي كانت موضع نزاعات متكررة بين الفرس والتتار.

وعلى الرغم من أن المدينة كانت موجودة في أزمنة يسوع المسيح، فإن بالإمكان اعتبارها اليوم جديدة تماماً، بسبب عادة سكانها في

تبييضها مرة كل عام، ولأن في كل بيت منها بئر ماء محفورة في الصخر، حيث يظل ماء الشتاء بارداً جداً خلال شهور الصيف.

ولكن الأبرز هناك هي القلعة التي ساهمت يد الإنسان، بعد الطبيعة، في تشكيلها كفوهة بركان محاطة بصخور مشطورة، وصمدت لكل الهجمات التي تعرضت لها حتى بدايات القرن الرابع عشر، حين استولى عليها السلطان سليم. ويقدم الكاتب الفارسي أحمدي أربزاده، صاحب مؤلف عن تاريخ تيمورلنك، الوصف التالي لذلك الحصن المهيب والمنطقة المحيطة به:

«هذا الحصن هو طائر، عشه شاهق الارتفاع لا تبلغه رمايات الصياد. إنه أمير لا يجرؤ أحد على طلب يد ابنته التي في سن الزواج، فتظل عذراء. لا فرق بين سقفه والسماء سوى أن هذه الأخيرة تتحرك دون توقف بينما ذاك يبقى راسخاً بثبات. يطل من الجنوب على سهل فسيح مثل أرواح العادلين، تقطعه غابات كثيفة تنعشها مروج وافرة وتوشيها جداول رقراقة. تنتصب حوله صخور متوعدة لا يتجرأ أشد الرجال جسارة على تسلقها، وتنثر أشكالها المتشابكة أبجدية حجارة من المحال فك رموزها».

ومازال بالإمكان في يومنا هذا تحويل ذلك الحصن، المخرب تماماً، إلى أشد الحصون مناعة في تركيا.

يعيش في ماردين نحو عشرين ألف نسمة بين أرمن، وكاثوليك، وكلدان، وأكراد، وأتراك. ولغة هؤلاء الأخيرين هي التي يتكلمها الجميع. ويوجد في المدينة، منذ قرابة قرن من الزمان، ديرٌ للرهبان الكبوتشيين، وفيه يقيم الممثل الرسولي للطائفة الذي تشمل سلطته الدينية ميسوبوتاميا وأرمينيا وبلاد فارس. ويشغل هذا المنصب السامي حالياً راهب كتلاني، وهناك بين رهبان الدير شخص آخر من مواطنيه.

وفي خط مواز لأسفل المدينة، الذي يأتي في منتصف الجبل، أي

على ارتفاع حوالي ثلاثمئة متر، رأيتُ حفراً عديدة، فظننت لأول وهلة أنها مدافن قديمة؛ ولكنهم أخبروني أن الأهالي تمردوا قبل خمس وثلاثين سنة ضد السلطة، فاستعانت للدفاع عنها بمنطقة الموصل الدنيا. ووضعت في تلك الحفر ألغاماً متنوعة وهددت السكان بنسفهم جميعاً.

السهول الفسيحة «مثل أرواح العادلين» التي تمتد قبالة ماردين، تمونها بكل ما تحتاج إليه، وخاصة من الحبوب التي تشكل مع القطن والصوف مادة تصديرها وثرائها. والحياة رخيصة، وأرخص بكثير مما هي عليه في كركوك، بالرغم من أن أسعار المواد، منذ حرب القرم، قد تضاعفت في جميع أنحاء تلك البلاد التي يمكن اعتبارها من أهم أهراء الحبوب في العالم.

ولابد لي من التذكير بأن ماردين هي ماردس القديمة، اسم أولئك الناس الذين هزمهم الإسكندر في آسيا، وأرسل أرسيس الخامس الفارسي عدة جاليات منهم إلى ميسوبوتاميا ولبنان، واعتبرهم كل من بلينيو واسترابون جامحين لا يمكن ترويضهم.

مازالت أمامي عشرون ساعة من ماردين إلى ديار بكر. قطعتها في عدو سريع وأنا مستنفد من الإنهاك وأكاد أسقط عن الحصان. ولحسن الحظ أن الطريق مريح بصورة كافية، بفضل الأعمال التي تحققت فيه منذ شهور، وحتى إنه ممتع بفضل نضارة الخضرة، والزروع، وأشجار التوت التي تغطي المنطقة. ومع ذلك، لم أر خلال الطريق سوى القليل من القرى. فباستثناء بلدة جَباكي، حيث استبدلتُ الحصان، لا وجود إلا لقبائل أكراد رُحَّل، تحمل الاسمين غير العاديين: ساشلو، أي كثيفو الشعر، أو سيكيسبيسلو، وهذا لمن له *لحية من ثمانية فروع*، وهي كثيفة إلى أقصى الحدود، ويعدونها هكذا: فرعان يتدليان من الشفتين، وفرعان يُرفعان فوق العينين، وفرعان يخرجان من فتحتي الأنف، وآخران من الأذنين.

وأخيراً، في يوم الأربعاء فجراً اجتزت نهر دجلة للمرة الثالثة منذ خروجي من الموصل، وبعد ساعتين من الخبب في حقول وفيرة الحصاد، دون أن نلتقي ولو ببيت واحد يشير إلى قرب مركز كبير. وعند وصولنا إلى ذروة جبل، اكتشفتُ مشهداً، مثل مشهد كركوك وبندر عباس، لا يمكن نسيانه أبداً، لأنه يظل محفوراً إلى الأبد حتى في مخيلةٍ أقل قابلية للتأثر.

على بعد ألف متر، فوق جبل أشبه بمخروط مبتور، وعلى ارتفاع حوالي سبعين متراً، بدت لي مدينة ديار بكر، يحيط بها سبعون برجاً ضاربة إلى السواد، وتبرز فوقها المآذن المنتصبة كأنها سهام بيضاء. وفي أسفل الجبل تجري مياه غزيرة تروي أشجار توت وحور وصفصاف ومشمش هندي وجوز وكرمة وتين، لتصب بعد ذلك في دجلة الذي يحيط بها من كل الجهات؛ هذا النهر الذي رأيته في مصبه، وأُعجب به الآن في بدئه، إذ على بعد عشرة فراسخ إلى الأمام تشمخ جبال طوروس حيث منبع النهر. وإلى اليمين واليسار تظهر للعيان في الأرض المتماوجة بساتين وجنائن، ومروج عشب وفيرة، تسحب من أرض مكورة وعميقة رحيق حياة متألقة. برودة صباح بلا غيوم، وجو انقشعت منه أبخرته، يحوّلان السماء الزرقاء إلى قماشة مشدودة أشبه بلوحة بالغة التشويق والتنوع، وتسكب في فيض من السعادة والفضول والأمل.

عند الدخول إلى المدينة أعربت للطاطر عن رغبتي في الاستراحة حيث سينزل هو نفسه، إذ كنتُ منهوكاً إلى حدّ لو حاولت معه البحث بنفسي عن مكان أنزل فيه، فإنني سأنام في وسط الشارع بكل تأكيد. أجابني بأننا سنتوقف في دار البريد، حيث يعلمون دون شك بخبر وصولنا، لأن الأصوات التي يطلقها خادمه لدى دخول البلدات، تذيع خبر وصوله بسرعة. وقد كان الأمر كذلك بالفعل: يخرج الناس للقائنا، وتفتح النوافذ على مصارعيها، وتوجه تحيات الترحيب من كل

الجهات؛ ويعترض سبيلنا آخرون طالبين أخباراً عن الطريق التي انتهينا من اجتيازها ، وإذا كانوا من أصدقاء رجل البريد ، يقبّلون يديه وقدميه. وكنت أنا استرعي الانتباه بصورة خاصة ، ليس لأني أجنبي وحسب ، وإنما لاستغرابهم من قدرة *إفرنجي* (هكذا يسمون الأوروبيين في الشرق) على مجاراة الطاطر ، لأن ذلك مرادف للمجازفة والشجاعة.

في حوالي الساعة السابعة دخلتُ إلى دار البريد ، وسارعت إلى التمدد على أول فراش وجدته. وعلى الرغم من الضجيج الذي أثاره الأشخاص الآتين للبحث عن الرسائل، فقد نمت أربع ساعات، غير أن ذلك لم يحل دون أن ألحظ طريقة توزيع الرسائل، وهي تشير في الحقيقة إلى طيبة هذا الشعب. فعندما يصل الطَاطر ، تحييه جماعة من الناس، ويتولى اثنان أو ثلاثة من أشد المتلهفين حمله إلى الديوان، حيث تقدم له القهوة وهو يستريح متكئاً. وعندما ينتهي من تناولها ، يبسطون سجادة أمامه، ويقوم هو، بكل ما يستطيع إبداءه من مهابة، بإفراغ أكياس رسائله. وعلى الفور تمتد عشرات الأيدي لتصل إلى كل ما يمكنها الوصول إليه، وتدوي أصداء مئة اسم في الحجرة: يسمع أحدهم اسمه، ويطلب أن تعطى له الرسالة؛ فيتناقلونها من يد ليد. ويجد آخر رسالته في كومة الرسائل، فينسل بها مبتعداً ، ويفسح المكان لمن هو بجواره. والغريب في الأمر أن الرسائل تكاد لا تضيع أبداً.

بعد أن استيقظت من نومي القصير، إنما العميق، فكرت في الذهاب لطلب الاستضافة عند كاهنين كبوتشيين من منطقة نابارا الإسبانية ، جاءا إلى هنا منذ ما يزيد على ثلاثين سنة. والحديث عن الاهتمام الذي أبدياه بالإسباني الوحيد الذي يريانه منذ ذلك الحين، وإيراد كل الأحاديث التي تبادلناها عن التاريخ المعاصر، تحتاج إلى مجلدات كاملة.

وبعد الاستقرار في الحجرة التي خُصصت لي، ذهبت

للاستحمام مثلما هي عادتي عند الانتهاء من كل رحلة، لأن الحمامات العربية تُحدث تبدلاً كاملاً في الجهاز العضلي، لا ينشّط الجسم ويخففه وحسب، بل يضفي مزيداً من التألق على قدراتنا الذهنية، وهو ما كنت بحاجة ماسة إليه.

وإذا كان القارئ لم يختبر أحاسيس من هذا النوع، فمن الملائم أن أقدم له وصفاً للوقائع التي يشتمل عليها الحمام العربي أو التركي، أو ما شئت تسميته.

في محيط قاعة فسيحة مقنطرة، توجد على ارتفاع معين أسرَّة وآرائك متنوعة، وفي وسط القاعة بركة فيها عدة نوافير تقذف الماء إلى ارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام. وصلت إلى هناك، وبينما أنا أخلع ملابسي اقترب مني عامل في الحمام وهو يفرد منشفة كي يخفيني عن نظرات الزبائن، ثم حزم بها خصري، وأحاط بواحدة أخرى رأسي، ثم أنعلني قبقاباً عالياً وقادني ممسكاً بذراعي عبر قاعتين أو ثلاث قاعات تتزايد فيها كثافة البخار، حتى بلغنا حجرة حجمها ثلاثة أو أربعة أمتار مكعبة، فيها تمديداتها الخاصة من المياه الباردة والساخنة، وأرضها مرصوفة ببلاط من المرمر، حيث لا تقل درجة الحرارة عن خمسين درجة مئوية. وبعد دقائق من الوقوف هناك، يسيل من البدن عرق غزير. عندئذ مددني المعلم على الأرض التي يبلغ طولها طول قامتي، وألبس كفه قطعة قماش سوداء كأنها قفاز، وبدأ يفركني بكل الاتجاهات مرفقاً ذلك بضربات واثقة وماهرة بطريقة يمكن الاعتقاد معها أنه قد درس التشريح. وكان يعرض عليّ بين حين وآخر الدهن أو أخلاطاً دهنية متراكمة على القفاز، كما لو أنه يؤكد على ما يبذله من جهد لجعل بدني نظيفاً «مثل البلور». وبالانتهاء من ذلك يستخدم المرء طاساً ليسكب بنفسه على بدنه ماءً ساخناً بدرجة الحرارة التي تروقه، ويبدأ على الفور عملية الفرك بالصابون.

ففي جفنة من النحاس، وبوساطة ليفة من القنب، تُصنع كمية كبيرة من رغوة الصابون، وبها يفرك المستحم رأسه وبقية جسمه حتى القدمين، ويفعل ذلك مرة أو مرتين، أو ما يشاء من المرات.

بعد الانتهاء من ذلك الفرك، اقتادوني إلى حوض مربع كبير من الحجر، طول ضلعه متران وعمقه متر واحد، مملوء بماء حرارته ستون درجة مئوية، قمت بالغطس فيه ست مرات كي أتخلص من كل أثر للصابون، ثم وُضعتُ إلى جانب صنبور، وراحوا يسكبون ماء بارداً على قدمي، وماء دافئاً على بقية البدن.

وجرى بعد ذلك لف رأسي وجذعي وخصري بمناشف قطنية، وأخرجوني إلى القاعة التي دخلت منها لأستلقي على أريكة. وما كدت أجلس حتى استبدلوا المناشف الثلاث، ثم عادوا بعد دقيقة واحدة لاستبدالها بثلاث أخرى، وبهذا يجف الجسم تماماً. عندئذ قدموا لي النرجيلة، وكأساً من الليمونادة، وفنجان القهوة المعهود، وكلها أشياء بدت لي أكثر متعة في ذلك الظرف مما هي عليه في أية ظروف أخرى. وبعد الاستلقاء لبعض الوقت، يشعر المرء براحة لا توصف، وبرشاقة في الجسم وصفاء فائق في القدرات الذهنية.

وبعد وقت قصير يعودون مرة أخرى لاستبدال المناشف، ويبدؤون تدليك الجسم بما يشبه التمسيد. ويشدون أصابع القدمين واليدين، ويرفعون الذراعين والساقين ويلوونها، وكل ذلك بهدف إراحة أربطة المفاصل. وأخيراً رشوني بماء الورد وفركوا باطن القدمين بحجر خفان لتنعيم الجلد. وهم يقصون شعر من يرغب في ذلك، وبهذا تنتهي العملية.

وهناك من يفعلون في الحمام ما يمكنهم عمله في صالون الحلاقة؛ أعني أنهم يحلقون ذقونهم، ورؤوسهم، وسيقانهم وأذرعهم، وغيرها...، ويطلبون انتزاع شعر الأنوف، وهذه عملية كانت تدفعني إلي الضحك على الدوام لما تسببه من تكشيرات في الوجه.

وليس للحمامات تسعيرة محددة، وإنما تُدفع الأجور حسب مقام الأشخاص ومكانتهم، ذلك أن لدى العرب قول يمكن تلخيص معناه كالتالي: «الرجل يُظهر نفسه بطريقته في دفع ثمن القهوة، والحمام، و...» شيء آخر لا أريد تسميته. وهم يحممون الرجل العادي بريالين، وأنا بدورو واحد. والحقيقة كذلك أن الوسائل تختلف من شخص إلى آخر، فهناك من يتركونه يستحم وحيداً ولا يكادون يستبدلون له المناشف، أما أنا فشغلتُ رجلاً لمدة ساعة، واستخدمت دزينتين من المناشف الموشاة أطرافها بالذهب والمعطرة بخلاصة الورد؛ وتناولت مرطباً ودخنت نرجيلة مع القهوة. أما الباشا فيدفع مئة ريال، ويدفع الوالي مئتي ريال أو أكثر، حسب أهمية الشخص ومكانته.

فلنعد الآن إلى قصة رحلتنا. إنني في هذه المدينة منذ ثلاثة أيام، ولا بد من السفر في الغد، وهو موعد خروج الطاطر العامل على خط حلب. ولكنني قادر مع ذلك على تقديم فكرة كافية عن المدينة، لأنني تجولت فيها بمعدل ست ساعات في اليوم.

إنها من أفضل مدن الشرق. وما يدفعني إلى قول ذلك هو الانتظام والتجانس الذي ألحظه في كل مكان: البيوت لا تتألف، عموماً، إلا من طابق واحد، ولكنها مبنية من حجارة جيدة، وهي مشيدة ومنظمة بتناسق هندسي. والشوارع نظيفة، ولها العرض نفسه تقريباً في كل مكان. وأحجار الرصف التي تكون سيئة عادة، تضاهي في هذه المدينة رصف شوارع مدن الأقاليم عندنا. وهناك ضمن حرم ديار بكر نفسها ثلاثة ينابيع، غير أن ماء الشرب الذي يُستخدم عموماً يأتيها من أحد فروع نهر قرجه الذي يمر على بعد عشرة فراسخ.

وفيها ثلاثة عشر مسجداً، كانت في زمن سابق كنائس، وقد لاحظت ذلك من بناء مآذنها المربعة، لأنها لو كانت إسلامية الأصل لجعلوها دائرية كما هي عادتهم على الدوام. الجامع الكبير فسيح

جداً، ويحتفظ برواقي أعمدة كورنثية، كل عمود منها منحوت من حجر واحد من الغرانيت الأحمر، وبارتفاع أحد عشر متراً. وتوجد هناك أيضاً مدافن حكام هذه الولاية الذين ماتوا على أرضها.

وأعتقد أن اهتمام من يزور هذه المدينة سيتركز على السور المحيط بها. فهو يشكل مربعاً بطول ألف متر في كل جانب، وفي منتصف كل جانب بوابة، وتسمى البوابات الأربع على التوالي: باب القسطنطينية، وباب ماردين، وباب حلب، والباب الجديد، أو أنها تسمى ببساطة بأسماء الجهات الأربع الأصلية. وهذه الأسوار، مثلما هي أسوار ماردين، تستند إلى قاعدة من الصخور البركانية، وقد شُيدت بعد الغزو التركي في أواخر القرن الثاني عشر. لكن تفحصاً دقيقاً يبين أنه كانت توجد قبلها تحصينات أخرى من مواد مختلفة، تكشف عن عصور أقدم بكثير. فقد رأيت في عدة نقاط، على سبيل المثال، من الجهة الداخلية، نسيج غرانيت وآجر من مختلف الأحجام والألوان، ورأيت في نقاط أخرى كتلاً كبيرة من الحجر الكلسي الأبيض تتخللها أخشاب وحدائد وأعمدة، ولكنها مكسوة على الدوام تقريباً بأحجار مستطيلة منحوتة أو مشذبة. أما في الأبواب بالمقابل، فتُلحظ آثار العصر الروماني. إذ تُقرأ فوق باب حلب كتابة تقول إنه رُمم من قبل تيتو، ابن فيسباسان، ورأيتُ على بوابة أخرى نقش النسر الروماني.

وتُختزل التحصينات في جهة الشمال بصخور بازلتية ارتفاعها عشرون متراً مشذبة بالفؤوس، ولا يوجد فيها شيء صناعي سوى شرفات وفتحات رماية السهام.

ويوجد عدد كبير من الكتابات بالخط الكوفي وخط النسخ، وبالكتابة التركية واليونانية والفارسية والكردية، كما توجد كتابات أخرى حروفها مربعة لا أعرفها. وقد رأيت هنا وهناك نقوش ثيران ونمور بحجم قدمين أو ثلاثة أقدام.

وبينما أنا أجول حول الأسوار، بصعوبة في الحقيقة، بسبب كثرة المياه وشدة انحدار الأرض، رأيت شلالاً يهوي من ارتفاع أكثر من ثلاثين متراً، حيث كان تُرمى، حتى بداية هذا القرن، الزوجات الخائنات. وفي الاتجاه المعاكس بعض البرك الراكدة التي يؤخذ منها الجليد في الشتاء، ويُحفظ بعد ذلك للصيف في أماكن معدّة خصيصاً لذلك تحت الأرض.

أما بشأن المنتجات الطبيعية، ففي ديار بكر كل ما يمكن أن يشتهيه المرء في هذه الأنحاء، بما في ذلك الرز. غير أن القمح هو المحصول الأساسي الذي يشكل ركيزة التصدير، وسعره يتراوح بين 14 و16 ريالاً للمد الواحد. ويُزرع هذا الصنف من الحبوب في مساحات فسيحة؛ ويمكنني القول إنه من نصيبين حتى هنا، وأينما وجهت نظري، كنت أمضي بين زروع قمح. وهذا هو السبب في غلاء مواد ضرورية أخرى، مثل الزيت والحطب على سبيل المثال؛ غير أن هناك بالمقابل وفرة من الفاكهة وكل أنواع الخضار، لاسيما الفليفلة التي لم أرها قط في الشرق. أما بشأن مملكة الحيوان، فقد لفتت انتباهي الخراف، ليس بسبب كثرة أعدادها، إذ رأيتها بقطعان هائلة في كل مكان، وإنما بسبب نعومة صوفها وثقل وزنها الذي يصل إلى ما يزيد على خمسين كيلوغراماً للخروف الواحد، ويكاد بعض الخراف يعجز عن المشي لضخامة إليته. ويختلف سعر الخروف من 70 إلى 100 ريال. وللبغل أيضاً مواصفات جيدة جداً، فهو أصغر حجماً من بغالنا، لكنه أقوى منها، وأكثر أماناً وسرعة، ويتراوح سعره بين 500 و3000 ريال.

ومشغولات الذهب والفضة مشهورة هنا، وخاصة الصياغة السلكية. ويعمل قسم لا بأس به من السكان في صناعة الأخفاف والصنادل من جلود الغنم والبقر، بينما يعمل قسم آخر في حلج القطن، وغيرهم في غسل الصوف.

يعيش في ديار بكر أربعين ألف نسمة، أي ثُمن عدد سكانها في العام 1756، عندما اجتاح الجوع والبرد والطاعون هذه البلاد. نصف السكان من الأتراك والأكراد، والنصف الآخر من الأرمن والأرثوذكس واليهود، والجميع معرضون لإحدى جائحتين: حبة ميسوبوتاميا والعقارب.

والعقارب هنا على ثلاثة أنواع: العقرب الصغير الأبيض، والمتوسط الرمادي، والكبير الذي يصل طوله أحياناً إلى اثني عشر سنتيمتراً، وهو أسود بالكامل ويشبه عقرب الألكران[1] عندنا. وهذا النوع الأخير هو الأكثر رهبة، إذ يمكن لإثني عشر عقرباً منها أن تستنفر حياً بكامله. والفترة التي تظهر فيها بكثرة تمتد من شهر حزيران حتى أيلول، وهي الفترة التي يتيح فيها جفاف الجو للأهالي النوم على السطوح، مثلما هي الحال في بغداد.

وقد تسببت كثرة العقارب في نشوء فئة من المداوين الشعبيين الذين يعالجون لدغتها القاتلة. فمقابل بيزتتين اثنتين ينتقل المداوون من بيت إلى بيت لممارسة مهنتهم التي تتلخص في تناول رشفات من اللبن الحامض ومص السم، ليبصقوه بعد ذلك مع اللبن.

وقبل أن أنتقل قُدماً، سأتحدث عن مشهد جديد بالنسبة إلي.

بينما كنت أشتري قميصاً، وصلت إلى مسمعي من بيت مجاور أصوات أنثوية، تشير إلى اجتماع عدد كبير من النساء. وعندما سألت عن السبب، قيل لي إنه قد وصل للتو بائع جوارٍ. وبما أنني لم أر هذه التجارة عن قرب من قبل، فقد رغبت في الاطلاع. أخبرت البائع أنني راغب في اقتناء جارية، ورجوته أن يعرض عليّ ما لديه. وبأقصى ما في

[1] تسمية ألاكران (alacrán) آتية من «عقرب» العربية، وهو اسم جنس يطلق على كافة أنواع العقارب بالعربية وبالتركية أيضاً.

الدنيا من برود سألني إذا ما كنت أريدها كزوجة أم كخادمة؛ وهل أريدها سوداء أم بيضاء، فأجبته بأنني أريدها بيضاء، وكزوجة.

وبعد نصف ساعة من الانتظار في قاعة سفلية، جعلوني أصعد إلى الطابق الرئيسي، حيث رأيت حوالي عشرين امرأة تعيسة من كل الألوان، محشورات في ثلاث حجرات مختلفة. وقد قُدمت إلى ثلاث شركسيات، نصف عاريات، لا تزيد أعمارهن عن خمس وعشرين سنة. كن جميلات، وإحداهن شديدة البياض، لها عينان سوداوان وشعر فاحم، رشيقة ولطيفة، إنها باختصار النموذج الكامل للجمال في بلادها. وأكثر ما أستثار إعجابي هو أن طريقتها في التصرف بعيدة بُعداً شاسعاً عن الوضع المزري الذي هي فيه. قال الوكيل إنها ستُرسل إلى بغداد، ولا شك في أنه فعل ذلك لتحريضي، لأنه أضاف إن ثمنها ألف ريال. والحقيقة أنها تساوي ذلك الثمن؛ غير أن فضولي لم يكن ليصل إلى ذلك الحد، فقلت للسيد إنني عندما أقرر دفع مثل ذلك المبلغ سأعود إليه. ودون أن يأخذ الأمر على محمل السوء، أجابني: «مثلما تشاء». ولاحظ أن لدي رغبة في رؤية الجاريات الأخريات اللواتي لديه، فراح يقول: «هذه أقدمها لك بكذا... وتلك، وهي سنديانة حقيقية كما ترى، بكذا...»، وكانت النساء عاثرات الحظ، على أمل تحسين مصيرهن، يبذلن جهوداً تفوق طاقة البشر لاجتذاب اهتمامي وإعجابي؛ وكنت قد علمت أن العرب بدلاً من إساءة معاملة جواريهم، يعاملونهن كأفراد من الأسرة، ويصل الأمر بأبناء السادة أحياناً إلى التآلف معهن إلى حد تخف به أحزان أولئك التعيسات في سنوات حياتهن الأخيرة. والجميع يعلمون أن الجارية حين تصير أماً تنال حريتها، ويكون لابنها مثل حقوق أبناء السيد الشرعيين.

قبل أن ننتهي سنعيد النظر إلى التاريخ، ذلك أن لديار بكر تاريخاً مشوقاً، ولكنه مازال موزعاً في حشد كبير من الكتب.

وكنت قد استخرجتُ من بعض تلك الكتب عدداً من الملاحظات، سأستنسخها بإيجاز من دفتر ملاحظاتي.

في أزمنة الأشوريين، كانت المدينة تسمى كاركاتوجيرتا. وتُذكر في التاريخ الروماني واليوناني تحت اسم آميد، وقد غزاها بعد ذلك الفرس. وعندما حاصرها كوباد في العام 505، تنبأ له السحرة بالنصر، وتفاءلوا بعدم حياء نساء آميد اللواتي كن يكشفن أنفسهن من أعلى الأسوار عاريات أمام أنظار المحاصِرين. وبالفعل، تمكن الفرس في إحدى الليالي من تسلق أحد الحصون، تحت حماية كهنتهم المخمورين، وذبحوا ثمانين ألف يوناني. وقد سقطت آميد في ما بعد بأيدي قبائل بكر العربية التي منحت اسمها للمدينة وسائر الإقليم المحيط بها. ثم سقطت بعد ذلك بأيدي الأكراد، والأمراء التركمان من أتباع أورطاك والخروف الأبيض؛ ثم عادت إلى أيدي الفرس، ولكنها سرعان ما خضعت لأحفاد عثمان الذين اعتادوا على تسميتها كذلك كرا آميد، أي آميد السوداء، وهي تسمية يجد القارئ ما يبررها بتذكر الوصف الذي قدمته لها حين رأيتها.

وبينما كنت أتصفح في الموصل الكتاب المطبوع على نفقة الحكومة الفرنسية حول آثار نينوى، قرأت ترجمة كتابة مسمارية على رُقم حفر غائر يمثل سنحاريب وهو عائد من غزوة قام بها شمالي نينوى. ويبدو أن المكتوب على اللوح بإيجاز ذلك العصر هو الكلمات التالية: «استوليت على كاركاتوجيرتا التي قاومتني، وصلبت ثلاثة آلاف من رجالها».

VIII

من ديار بكر إلى حلب

حلب، 3 آب 1869

صدق من قال إن العادة هي طبع آخر. ومع ذلك، وعلى الرغم من التعب الذي كنت أشكو منه عند وصولي إلى ديار بكر، إلا أنني كنت مستعداً بعد أربعة أيام من ذلك للعودة إلى امتطاء الحصان ومواصلة الرحلة مع الطاطر. ربما ساهم في ذلك التفكير في أن الطريق الذي سأقطعه هو الأخير، حتى وإن كانت حلب ليست منتهى رحلتي، إلا أنني صرت في أماكن معروفة لي وآمنة نسبياً. قمت بمفاوضاتي وإعداداتي المعهودة للسفر. ولكن الطاطر لم يسعَ فقط إلى تحميلي نفقات كافة نزواته، مثلما فعل خلال الطريق من الموصل إلى ديار بكر، بل كان ينتهز أية فرصة سانحة لإرضائي، من أجل أن يعتصر على أحسن وجه جراب الليرات الإسترلينية التي تزودت بها في الهند. قررت أن أخفي عن الطاطر الجديد صفتي الرسمية، مظهراً له أني وسيط مؤسسة تجارية في بغداد. وكيلا أتخلى عن الفوائد التي يجنيها أي أوروبي على الدوام، أضفت أنني *إسبانيولي*، وكان لذلك في مسمع الطاطر كالقول إنني صيني أو ياباني، لأن الاعتقاد الشائع في هذه البلدان أن أوروبا لا تضم إلا الفرنسيين والإنكليز والروس.

بهذا التصميم خرجت من ديار بكر في الخامس والعشرين من الشهر الماضي، الساعة الثامنة صباحاً، مقتنعاً مسبقاً بأنه خلال الثمانين فرسخاً التي عليّ اجتيازها، لا وجود إلا لنقطة أو اثنتين

جديرتين بالتوقف عندهما في هذه السهوب الفسيحة التي لا يمكن لمخيلة أن تقيسها أو تستوعبها كاملة، والتي تعاش في عزلاتها حياة القرون الغابرة، وتُستحضر بتقدير ظلال رجال مميزين وبارزين.

بما أنه مضى عليّ شهر في ممارسة التحدث باللغة التركية، فقد توصلت إلى اكتساب شيء من المهارة العملية شجعتني على تبادل الحديث مع أول من أقابله؛ وهكذا، ما كدنا نغادر المدينة حتى دخلت في محادثة مع رفيقي الجديد، فكان أول ما سألني إياه هو كم رصاصة في مسدسي، فأجبته بأنني لا أحمل أسلحة أبداً، وخاصة عند أكون مسافراً مع شخص سمعت عنه في العشية الكثير من الثناء. أعرب الرجل عن شكره، لكنه واصل قائلاً إنه إذا كان احترامي له حقاً هو مسوغ ذلك الحذر، فإنني بحاجة دائمة على أي حال إلى الدفاع عن النفس في الحالات الطارئة. ورداً على كلامه هذا، قلت له إن معنا ستة جنود خيالة، بمكن لهم أن يفعلوا من أجلنا أكثر بكثير مما أستطيع فعله حتى لو حملت مثل تلك المسدسات والخناجر التي يتزنَّر بها. انفجر ضاحكاً من سذاجتي، واقترب مني ليقول بصوت خافت إن أولئك الحراس الذين يتولون حراسة النفائس المحملة على ثلاثة بغال، يتوجب عليهم بالفعل أن يضحوا بأنفسهم من أجله، ولكن هناك أمثلة مع ذلك عن حراس اتفقوا في ما بينهم على قتل الطاطر وسرقته؛ وهو ما يدعوني إلى تصور الخطأ الكبير الذي ارتكبته بالمجيء غافلاً.

أقنعتني تلك المسوغات، وأجبت بما يقال عادة بالعربية والتركية عندما لا يجد المرء ما يمكنه قوله: *الله كريم!*

مشينا خمس ساعات على طريق افتتح قبل سنتين، ولتميزه عن الدروب الأخرى التي يمكن تسميتها بالبدائية، أُطلق عليه اسم ***طريق الحديد*** أو *temue yol*، كما يقال بالتركية. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى قارباكجه، وهو اسم جدول صغير يسيل بين مئات

الخيام التابعة لقبيلة من الأكراد الساشلو (كثيفي الشعر)؛ عزمنا على الاستراحة حتى غياب الشمس، ولكننا سرعان ما شعرنا بضرورة الرحيل إلى مكان أكثر متعة، وذلك لجهلنا أنا والطاطر باللغة، وأظن أنها لغة الميديين القدماء. فاستبدلنا الخيول، وواصلنا التقدم في الصحراء حتى الثامنة ليلاً، وهو الوقت الذي سمعنا فيه عدة طلقات نارية سببت لنا الذعر، ولمحنا في البعيد أربعة مواقد كبيرة تضيء حشداً من الناس يجلسون تحت خيام. توقف الطاطر وأرسل جنديين للاستطلاع. وقد رجعا بعد قليل وقالا له إنه ليس هناك ما يستدعي الخوف، وقالا لي إن هناك حفلة. يبعد ذلك المكان أربع ساعات عن سوريك، حيث سنُجري الاستبدال التالي؛ ولكن الاستقبال الجيد الذي لقيته من شيخ البدو المخيمين هناك، وهداياه وعنايته، جعلتنا نقرر البقاء برفقته لبعض الوقت، وليس دون جدال مسبق مع رفيقي الذي يجهل اللغة العربية ويفضل الاستراحة في سوريك، حيث لن ينقصه بكل تأكيد أصدقاء يتبادل الحديث معهم، لأن الناس هناك محدّثون لا يكلون أكثر من سواهم في البلدان الأخرى. أما أنا، فأعتبر الوقت القصير الذي أمضيته مع ذلك البدوي أحد أكثر الأوقات متعة في رحلتي، وأرجو أن تكون كذلك بالنسبة لقارئ الرواية التي سأقدمها عن ذلك اللقاء.

فحسب العادات، وقبل الدخول تحت الخيمة التي يستقر فيها شيخ القبلية، محاطاً بعشرين أو ثلاثين من رفاقه، جالسين على الأرض، يضيئهم قنديل معلق بعمود، هتفتُ: «السلام عليكم»، فردوا معاً «وعليكم السلام». وقمتُ بالطبع بحركة احترام للشيخ، ملامساً الأرض بيدي اليمنى، وبصدري، وفمي وجبهتي، وهي حركات يبين فيها الشرقيون أنهم يعرضون الصداقة، وأنهم سيمتدحون ويتذكرون مدى الحياة ذاك الذي يتوجهون إليه. ولكنه حين رآني، نهض مسرعاً

لتحيتي، ولأن هذا النوع من التحية خاص بالعرب، فمن المناسب التعريف به. ومن أجل مزيد من الوضوح سأطلق «ش» و «ر» على المتحاورين، أي الشيخ وأنا:

ش: أهلاً وسهلاً.

ر: بالمؤهل.

ش. تحياتي، حفظك الله.

ر: تحياتي، حفظك الله.

ش: تفضل، استرح.

ر: غمرني فضلكم.

ش: بيّض الله يومك مثل الحليب.

ر: بارك لك الله فيه.

ش: كيف صحتك؟

ر: بخير، حماك الله من كل سوء.

ش: وكيف روحك؟

ر: الحمد لله، بخير، بعناية نظرتك الكريمة.

ش: وكيف الحال؟

ر: أحمد الله وأنا في حضرتك.

ش: كلنا في حضرة الله. يحزنني بعدكم عن دياركم.

ر: لا أحزنك الله بالبعاد.

ش: إن شاء الله.

ر: ونعم بالله.

بعد الانتهاء من هذه التحيات التي لا بد لي، باعتباري راوية نزيهاً، من أن أنقلها ولو مرة على الورق، وبعد أن عرفت أن تلك القبيلة تنتمي إلى إحدى أكبر قبائل شمر عدداً، وأن اشتداد حرّ الصيف دفعهم للانتقال من منطقة استقرارهم المعهودة التي تقع في محيط هيت، سألت عن

سبب السعادة والاحتفال الذي يبدو أن 1500 رجل يشاركون فيه حول تلك المواقد المشتعلة. فأجاب الشيخ أنهم ختنوا «طهروا» أحد الشباب، وأنه يأمل منا بهذه المناسبة أن نشرفه بالبقاء لتناول العشاء معه. أسفتُ لأن عملية الختان كانت قد أُجريت، وبالرغم من أنهم شرحوا لي ذلك بالتفصيل، إلا أنني كنت أفضل لو رأيتها.

فخلافاً لما هي عليه العادة في المدن، يُجري بدو هذه الأنحاء الختان عند البلوغ، وبحضور الأقارب والأصدقاء. يجلس غير المختون على مقعد، ويمسك رمحاً في كلٍّ من يديه، ويثبت الرمحين شاقولياً على مقدمي قدميه كي يكبح حركاته. يقترب «المُطَّهِر» حاملاً سكيناً محماة ويمسك بأصابعه الخمسة المغطاة بكشتبانات جلدية، طبقة الجلد التي يتوجب إزالتها، ويضعها على حافة صفيحة معدنية يمسك بها شخص ثالث، ويقطعها بضربة واحدة. وقبل بدء العملية بقليل، يقول الشاب بصوت عالٍ: «اقطع، اقطع، لا تخف. فأنا ابن فلان ابن فلان، الخ...» ويأخذ بتعداد أجداده لخمسة عشر أو عشرين جيلاً. وإذا ما أنَّ الشاب أو صرخ قبل العملية أو بعدها، فلن تقبل أي امرأة الزواج منه، ويعتبره الجميع قليل الشجاعة. وتُعلق قطعة الجلد تلك، وقد رأيتها، على رأس رمح مزينة بألف نوع من الأقمشة والأغصان والأزهار. ويطلق الحاضرون طلقات رصاص على شرف بطل الحفلة، وبعد ذلك يبدأ العشاء. وقد وصلت قبل دقائق من تقديم العشاء، ومع أن شهيتي كانت ضعيفة، لأني شربت في الطريق إبريقاً من حليب النوق، فقد قبلت الدعوة رغبة مني في حضورها، ومضطراً في الوقت نفسه، لأن رفض الدعوة يعني إهانة كبيرة للمضيفين.

حول طبق من الصفيح، محيطه حوالي بارا[1]، مملوء برز أبيض

---

[1] وحدة لقياس الطول تساوي 835 سم.

وشرائح من لحم الخروف، ومزين بأرغفة من خبز البلاد، اجتمعنا خمسة عشر شخصاً نجلس القرفصاء. وبعد أن شمّر كل منا كميه، وقال باسم الله، سكب عبدان يحملان أبريقاً وطستاً الماء على أيدينا، وتناول محسن ـ زعيم القبيلة ـ حفنة رز من الجرن الضخم، فغمسها في الزبد الذي يشكل الذروة، وكان مذاباً في حفرة صغيرة، وراح يعجنها، معرباً في الوقت نفسه عن مشاعر سعادته بالتآخي مع شخصين بارزين مثل الطاطر ومثلي. سال السمن على طول ذراعه كثيف الشعر، فكان يلحسه بين حين وآخر من المرفق حتى الكف. وهكذا بدا أن كرة الرز قد تُبِّلت تماماً، فوضعها في فمي، كدليل على الأخوة التي ستربط بيننا منذ الآن. ثم فعل الشيء نفسه مع الطاطر، ورددنا بدورنا على لطفه بالطريقة نفسها. وبانتهاء طقس المجاملة هذا المسمى أُخوَّة الخبز والملح، وهو يمثل تبجيلاً في نظرهم ورابطة مقدسة تربطهم بمن يمارسه معهم، انقضضنا جميعنا بالقبضات على كومة الرز الضخمة، محدثين في قاعدتها مجموعة من المغاور، إلى أن تزعزع فجأة أساس البناء المتماسك.

ولأن يديّ الضعيفتين كانتا تحترقان بسخونة الطبق، فقد اعتادوا هم على تقديم شرائح من اللحم لي ينتزعونها بأنفسهم؛ وكنت أرغب في تجنيبهم ذلك العمل، لكنني كلما ألححت عليهم ألا يزعجوا أنفسهم، كانوا يسرعون أكثر في وضعها أمام فمي.

عندما استنفدت هذه الملاطفات شهيتي بالكامل، التفتُ نحو الشيخ قائلاً له: شبعت. حذا الآخرون حذوي، ونهضنا ونحن نحمد الله، تاركين المكان لمن كانوا وراءنا ينتظرون متلهفين. غسلنا على التوالي أفواهنا وأيدينا بالصابون، ولكن بمرافقة تف وتفل وتجشؤات استثنائية يمكن لها أن تسبب حرجاً وضيقاً عظيمين حتى لأولئك الذين يوصفون بانعدام اللباقة. هذا الأمر الذي قد يبدو فظاظة للقارئ، يمر هنا كشيء

عادي وشائع. ولا بد من الإشارة إلى أن استخدام الصابون وتناول مأكولات فاترة أو باردة، يسهم بقوة، على ما أظن، في الحفاظ على أسنان العرب سليمة، ذلك أن لهم جميعهم أسناناً بديعة.

وفي أثناء ذلك، كانت جفنة الرز الهائلة لا تزال فريسة ورديات آكلين جديدة ومنهمكة، إلى أن جاء دور زمرة الصبيان الذين انتهوا إلى انتزاع الأجزاء الأخيرة القاسية من الخروف الأكثر من ممزق، وتنازُع حبات الرز المتفرقة في الطبق الذي ما إن وضع أولئك الولدان أيديهم فيه حتى كان يلمع بنظافة صافية.

بعد تلك الوليمة، اضطجعت على سجادة، ورحت أتودد إلى مضيفي البدوي العجوز، وبينما كنت أحدثه عن الهند والموصل وبغداد، وحتى عن إسبانيا، كان هناك زنجي يحضّر القهوة، وهو عمل مهم عند العرب. فمن جراب معلق على العمود الذي يستند إليه منتصف الخيمة، أخرج أربع حفنات من حبوب البّن، ونظفها بعناية شديدة ثم ألقى بها في مقلاة وراح يحركها على الجمر دون توقف إلى أن بدأت تتصاعد الرائحة، فوضع على النار إبريقاً متوسط الحجم ممتلئاً بالماء، وهو ليس ماء عادياً وإنما نقيع قهوة آخر، من قدرٍ موضوعة على الجمر. وبعد تبريد بذور البّن قليلاً، ألقى بها الزنجي في هاون خشبي كبير (مهباج). وعلى وقع الضربات الموزونة التي يدق بها الزنجي يد المهراس، بدأ الحاضرون ينشدون مقاطع مغناة على شرف قدومي. وتقول إحداها: «لسان المحبة يتكلم في قلبي، يقول أحبك؛ ودليلي نار تتوقد في صدري، ودموع العين تنسكب على خدي، تقول إني أفكر فيك دوم».

وقد رددت عليهم بأبيات من ألف ليلة وليلة، تمتدح البيت وكرمه، وتتمنى لساكنيه الأمان والعافية، انتزعت بها تصفيق الجميع.

وفي أثناء ذلك كانت تفوح رائحة البن المطحون، ولكن دون

تحويله إلى ذرات ناعمة مثلما نفعل نحن؛ فألقى به الزنجي في الإبريق الذي كان ماؤه قد بدأ بالغليان، وصار يهزه بين فينة وأخرى متوخياً ألا يفور ويندلق أثناء الغليان، ثم أبعده عن النار بعد خمس دقائق، وألقى فيه قليلاً من الزعفران والزعتر البري ليمنح القهوة رائحة عطرة ويجعلها أكثر نفعاً في الهضم؛ ولكنه لم يضف إليه السكر، لأن فعل ذلك في عرفهم تدنيس للقهوة. وبعد أن يركد السائل، يتناول «*القهوجي*» فنجاناً له شكل نصف قشرة بيضة، ويشرب منه أولاً، كيلا يخامر المدعوون الشك بأن يكون الشراب مسموماً، ثم يسكب في الفنجان نفسه للضيوف مقدار نصف سعته من القهوة، وفق التقليد العربي. كان يمكن لي أن أرفض تناول الشراب، مثلما كان يمكن لي رفض تناول كرة الرز التي وضعها الشيخ في فمي؛ ولكنني كنت سأقترف في الحالتين إهانة بالغة، يمكن أن تجر عليّ نتائج وخيمة.

بانتهاء هذه العملية، ومعها غناء البدو الذين ظلوا يتنافسون على شرف الترحيب بي وبالطاطر، قال الشيخ بصوت عالٍ، مستغرباً عدم حملي أسلحة: «الله يعلم كم يشرفني أن أستقبل في خيمتي أمثالك ممن يضعون ثقتهم بالله، ويطلبون الضيافة، لا بالسلاح والتهديد، بل بالذوق والكلام الجذاب».

وشكرتُ كلماته من جانبي كيفما استطعت، وحاولت أن أعتذر كذلك عن أولئك الذين لا يعرفون جيداً طبيعة هؤلاء البدو، مقدمين لهم عادة مسوغاً للشكوى، ويستفيضون في معظم الأحيان في تذكر أحكام مسبقة من الرحالة غير المؤهلين جيداً. فالاعتقاد الغالب في أوروبا عن البدو أنهم متوحشون، وأنهم مستعدون دائماً للسطو والقتل، ربما لأنهم لم يعرفوا التلغراف والسفينة البخارية، دون الأخذ في الاعتبار أن الحكم على الناس في أي مكان يجب أن

يستند إلى المفهوم المزدوج للمعرفة والمشاعر التي تكون أكثر عرضة للحرج حين تكون أقل ذبولاً في ميدان الأهواء والانفعالات المتعارضة. والأوروبيون الذين يسخرون من العرب عند تعاملهم معهم وينتقدونهم، يمكن مقارنتهم بأولئك الأشخاص المتعبين من العيش، ويريدون ممن هم ليسوا كذلك أن ينظروا إلى العالم بمنظارهم نفسه.

وحول إذا ما كان أبناء الصحراء أكثر أو أقل سعادة منا، وهو سؤال وُجه إليّ مرات كثيرة، فإنني أجيب بأن السعادة في نظر كل شخص، سواء أكان أوروبياً أم آسيوياً، هي في بيت جاره دوماً. وأسمح لنفسي بأن أضيف أنني توصلت إلى القناعة بأن محصلة عواطف الإنسان وأهوائه هي نفسها في كل مكان.

إحدى خصائص شخصية البدو التي لا تتفق مع الرأي السائد الذي نتلقاه، هي الوفاء. فاليوم بالذات، أكد لي عدد من التجار أنهم عندما يأتي البدو من الصحراء بهدف التمون بالبضائع ولا يكون لديهم ما يكفي من المال للشراء، لا يجدون غضاضة في إعطائهم ما يحتاجون إليه بالدين، واثقين من أن الثمن سيُدفع لهم بالتأكيد عاجلاً أو آجلاً.

عندما حان موعد الرحيل، وقفت حائراً حول الطريقة التي أستطيع بها مكافأة من احتفوا بي بكل تلك الطيبة. صحيح أنني لم أكن مضطراً إلى أن أدفع لهم، لأنهم حين استضافوني في مضاربهم لم يفعلوا ذلك كأصحاب نزل، وإنما لممارسة كرم الضيافة، وهي فضيلة طبيعية وبالتالي واجب في هذه البلاد، حيث الانتقال من مكان إلى آخر يشكل حدثاً لا يُنسى في حياة الإنسان. لابد أن تقديم النقود سيكون أفضل شيء بالنسبة إليهم، على ألا يعتبر ذلك ثمناً لما قدموه، وإنما بالقول للشيخ ورفاقه «تفضل هذا لفنجان قهوة»، وهي صيغة مستعملة في الشرق لتقديم أي مبلغ إلى الصبية أو الكبار دون حرج في أن

يأخذوا ذلك على محمل السوء؛ ولكن الطاطر قد يستنتج من مثل هذا التصرف أن لدي فائضاً من النقود، مما يوقظ جشعه. وقد خرجتُ من المأزق بإهدائي إلى الشيخ مرآة صغيرة وزجاجة ماء كولونيا، وهي أشياء مجهولة لديه، ولهذا فإنها تُقابل بالتقدير والشكر الجزيل، حتى إنه أمر أربعة فرسان بمرافقتنا مسافة فرسخ عن خيامهم. أردت أن أجنبه هذا الإزعاج؛ لكنه ضمني بين ذراعيه، طالباً من الله أن يسهل لي الطريق وألا يتخلى عني حتى وصولي إلى نهاية رحلتي. ثم ساعدني على ركوب الحصان وهو يقول: «الوداع، أنت الآن أقرب إلى دمشق وديارك من قربك مني، لأنك سترى تلك الديار، أما نحن فلن نعود إلى اللقاء أبداً.»

غادرنا بدو شمر في الحادية عشرة ليلاً، بعد ثلاث ساعات من وصولنا إليهم، وتابعنا طريقنا وسط ضباب كثيف حتى سوريك، وهي مدينة مأهولة بكثير من السكان لم تتح لنا رؤيتها بسبب ظلمة الليل وتوقفنا لدقائق قليلة فيها، إذ اقتصر وجودنا على الوقت اللازم لاستبدال الخيول.

ومن سوريك ذهبنا إلى مشمش Michmich، وهي مكان بائس، ويبدو أن لا وجود فيه إلا للنساء، لأن الرجال الستة الذين رأيتهم، أقل واحد منهم لديه خمس زوجات. ومع ذلك، قررنا الاستراحة هناك ساعتين، وكنا بحاجة ماسة إلى الراحة، وطلب شيء نأكله. جاؤونا بخبز وتمر، وشيء آخر لم أعرف أول الأمر ما هو؛ ولكنني عندما دققت النظر، رأيت أنه جراد مجفف. استهجنتُ مثل ذلك الطعام الغريب، وسألت رب البيت إذا كان يحبه، فأجاب إنه يأكله عادة على شكل عجة، بخلطه بقليل من الدقيق. وإذا كنتُ لم أتذوق شيئاً منها، إلا أن الطاطر بالمقابل التهمها كلها، وبكثير من التلذذ.

ومن مشمش انتقلنا إلى أورفه، مروراً ببلاد بديعة المناظر تتوافر

فيها كل أنواع الحبوب أينما وُجد خيط ماء يمكن له أن يغذي ويمنح الحياة للوحات الخضراء التي تشجع المسافر وتبعث فيه الحماسة بين فترة وأخرى.

وفي يوم الاثنين، الساعة التاسعة ليلاً، بدأتُ التوغل في البساتين الوارفة المحيطة بمدينة إيديسا أو كاليروي القديمة، برفقة جداجد كثيرة لا تُصدق. المدينة تقوم في مدرج على سفح سلسلة جبلية صغيرة تمتد موازية لنهر الفرات. فيها مياه جيدة ووافرة، وتحيط بها أراضٍ شديدة الخصوبة. وتحدد الروايات الإسلامية ذلك المكان على أنه الذي كان فيه الفرن المشتعل الذي ألقي فيه النبي إبراهيم، وفي الأزمنة الأولى للمسيحية كان المكان مشهوراً بقداسة واسعة الشهرة أضفاها عليه ملوكه الأفغار. وبعد أن غزاها العرب، جعل منها بالدوينو إمارة، ولكنها عادت بعد خمسين سنة إلى أيدي أسيادها الطبيعيين.

الشيء الوحيد الذي يذكّر اليوم بأصلها القديم هو أطلال تُطلق عليها تسمية قصر النمرود: عمودان كورنثيان وثلاثة جدران. في الجزء العلوي تظهر دالية كرمة منقوشة بدقة. وفي الجهة الشرقية تظهر كتلة صخرية نُحتت فيها بالفؤوس سراديب مدافن تشبه المدافن الإغريقية التي عُثر عليها في لبنان. وفي ذلك الاتجاه نفسه توجد بركة، أسماكها تحظى، حسب ما يقوله الأكراد، بحماية النبي إبراهيم، إذ في تلك النقطة بالذات انبثقت حديقة الورود التي حلت محل المحرقة التي أمر النمرود بإلقاء النبي فيها.

أورفه، كمدينة، لا تقل في شيء عن ديار بكر: بناء عادي، مدينة نظيفة، وفرة مياه، مناطق شديدة الخصوبة، وارفة ومتنوعة الزراعات، يسكنها ثمانية وعشرون ألف نسمة. والمتصرف الذي يحكمها يتبع لوالي حلب، وفيها كما في هذه المدينة الأخيرة، قنصلان فخريان

لفرنسا وإنكلترا. الصادرات تتمثل بالقمح، والصوف، والقطن، والقنب، والسمسم، والسمن، والقار الذي يوجد بكثرة في الأراضي الواقعة إلى الجنوب من أورفه. وسعرها ريال واحد لكل رطل.

وجدتُ المدينة مضطربة لأسباب مالية لن يكون من غير المناسب ذكرها، بهدف إظهار بعض تصرفات الحكومة التركية لمصلحة رعاياها، عندما يفتقرون إلى الدعم الذي توفره الهيبة الأوروبية لسكان الساحل.

فمنذ أربعة شهور حتى الآن لا يجري سوى تداول نقود معدنية غير ثمينة، إلى حدّ تحولت معه المعاملات التجارية إلى حالة بالغة الحرج. فاستغلت الحكومة النحاس الكثير المستخرج من مناجم توكات، وكانت قد اكتُشفت في زمن المصري إبراهيم باشا، وقررت دفع كل التزاماتها بعملة من ذلك المعدن؛ ولكنها لا تقبل بالمقابل سوى الذهب أو الفضة. فأدى ذلك إلى اجتماع المعدنين الثمينين كلهما بين يديها. فالليرة التركية التي يجري تداولها عموماً بمئة وعشرين قرشاً، تساوي مئة وخمسين قرشاً بالعملة المعدنية غير الثمينة. وأقول عموماً لأن للعملة الذهبية التركية ثلاثة أسعار مختلفة: فالحكومة على سبيل المثال تقوّم الليرة بمئة قرش، مع أن قيمتها في ذاتها خمسة وسبعون قرشاً فقط؛ وهذه الليرة نفسها يجري تداولها في التجارة بقيمة مئة واثني عشر حتى مئة وعشرين قرشاً. وفي الأسواق، يصل سعرها في بعض الظروف إلى مئة وثلاثين قرشاً. ويمكن تقدير التعقيد الذي عليه المعاملات التجارية هنا. أما في سورية بالمقابل، فقد اضطر التركي إلى الحفاظ على قيمة الليرة بسعر مئة وخمسة عشر قرشاً، وعدم إصدار عملة نحاسية وإنما ذهبية أو فضية فقط.

مكثتُ في أورفه حتى السادسة من مساء يوم الثلاثاء، وكان

السبب في ذلك أن الطاطر سمع أخباراً سيئة حول أمن الطريق، فأراد ترتيب الأمور قبل مواصلة المسير. ذهبنا عندئذ لمقابلة القائمقام، وهو شخص تدور أقاويل كثيرة حول الطريقة التي توصل بها إلى منصبه؛ وبينما ثلاثتنا نجلس في الديوان، بدأنا حديثنا بكل تحفظ وتكتم واحترام مثلما هي طريقة الأتراك. جاؤونا بنرجيلات بديعة وليمونادة، والقهوة المعهودة التي تناولها الطاطر في رشفة واحدة، محافظاً بذلك بصرامة على التقاليد، وبعد أن أنهى القائمقام تناول قهوته. هكذا كانت الأمور في السابق؛ ولكن، بما أن العادة تقتضي أيضاً من كل من يزور السلطة في البلاد أن يقدم عند خروجه *بقشيشاً* أو إكرامية إلى الخدم، فإن هؤلاء يعمدون إلى تقديم قهوة تغلي للأشخاص الذين تجاهلوا في زيارة سابقة تقديم الإكرامية المعهودة.

وخلال الحديث أكد القائمقام أنه جرى بالفعل السطو على قافلة في منتصف الطريق إلى بيرجيك؛ ولكنه اتخذ الإجراءات لتأمين حركة المرور، وبدا له بالتالي أنه لا حاجة إلى حراسة من خمسة وعشرين رجلاً على الخيول طلبهم الطاطر. ومع ذلك أصر هذا الأخير، وبالاستناد إلى امتيازاته، على أن يقدموا إليه، وقد فعل ذلك بعبارات تنم عن فظاظة، مما جعل الحاكم يومئ كي يقدموا لنا القهوة مرة ثانية، وهذا يعني عند العرب أن وجودكم صار غير مرغوب فيه.

كان وضعي حرجاً بعض الشيء، لأنني إذا ما لجأت إلى استخدام كتاب التوصية يمكن لي أن أجبر القائمقام على إعطائي الجنود الذين أطلبهم، ولم أفعل ذلك كيلا أُغضب الطاطر، حين يرى أن القائمقام يفضلني عليه، لاسيما وأنني كنت أظهر لعينيه على أنني تاجر من بغداد، وهي مكانة أدنى بكثير من مكانة الطاطر، بهدف تجنب مطالباته.

استنفدت كل ما أعرفه من اللغة التركية كي أصالح المتحادثين؛ وحين لم تُجدِ مساعيَّ، غادرنا المكان، الطاطر غاضباً وأنا محزوناً، ولكن ليس دون الوعد من القائمقام بأن يرسل لي، «كرمال لحيتي وعيني»، حراسة معتبرة، مما زاد من حدة غضب الطاطر.

وحين صرنا خارج الأبواب، عند الغروب تقريباً، اقترب شرطي ليقول إنه على بعد مسير ربع ساعة سنجد الفرسان الذين أمر العمدة أن يرافقونا إلى بيرجيك. وبالفعل، على مسافة قريبة من هناك وجدنا تحت شجرة تين فارسين، ولكنهما سيئا التسليح. وبالنظر إلى الخطر المفترض، فإنهما يحتاجان إلى مساعدتنا أكثر من حاجتنا إلى مساعدتهما. سألهما الطاطر عما سيفعلان في حالة الخطر، فأجاب أحدهما بجدية بالغة: إنهما سيذهبان لتقديم تقرير إلى الحاكم عما سيحدث لنا. ولم يكن زميلي بحاجة لأكثر من ذلك كي يوقن بأنه قد خُدع، فصرفهما بغضب وهو يمسك المسدس بيديه: «فليخرب الله بيوتكم! ويلعن أهلكم ومن تخدمون! يا أبناء كذا... وأبناء كذا...»؛ وفي شأن السباب والألفاظ النابية هذه ليس هناك من يمكنه منافسة الشرقيين الذين ندين لهم نحن الإسبان، ولابد من قول هذا بصورة عابرة، بسلسلة الألفاظ الطويلة من السباب الفاحش.

وبانقضاء تلك الحادثة، واصل الطاطر مسيره، وأنا ملتصق به تحسباً مما يمكن أن يحدث.

سرنا معاً طوال تلك الليلة الكئيبة، باتجاه غرب، وجنوب غرب، دون أن نلتقي بنفس واحدة، ولكن مسيرنا لم يعد في أراض خصبة، بل في أراض تزداد قحولة وتكلساً. وعند الساعة الرابعة والنصف فجراً، رأيت نهر الفرات يمتد في البعيد، مشكلاً حداً فاصلاً بين صحارى ميسوبوتاميا وصحارى سورية، وبعد ساعة من ذلك كنت

أنزل إلى بير أو بيرجيك التي تقع أسفل ثلاث هضاب بيضاء كالثلج تحد هناك مياه النهر.

وقبل أن أنام، أطفأت ظمئي بشراب يسمونه بالتركية «*عيران*» وبالعربية «**مخيض**»، ويُحضّر من لبن النوق، هو الغذاء الوحيد الخفيف والمغذي الذي لم أتناول مثله طوال رحلتي كلها، اللهم إلا في تلك الحالات التي كنت أجد فيها قليلاً من الرز في متناول يدي، وهذا هو أساس الغذاء الشرقي، لكونه مادة سهلة الهضم. ويتم الحصول على «*العيران*» بالطريقة التالية: يُسكب الحليب الدافئ في قربة من جلد النعاج، ثم تربط بالحبال بين عمودين متوازيين ويبدؤون هزها لمدة ساعتين. وبعد ذلك يفرغون السائل ثم يكشطون السمن الذي يظل عالقاً بالجلد؛ ويطبخ السائل مع قليل من اللبن الحامض، فيتحول إلى الشراب الذي أتحدث عنه، ويخلط عند تناوله بمقدار من الماء يزيد أو ينقص حسب ذوق كل شخص؛ ويستخدم كغذاء كما أنه يطفئ الظمأ في الوقت نفسه.

وبير هي مدينة بيرجا القديمة التي يتحدث عنها جينوفونتي ولوشيانو. ومازالت تحتفظ بتحصينات تترية، ومسرح روماني كبير بخمس شرفات. وتوجد إلى الشمال أحجار تشي بأنه كانت هناك أبنية فخمة. أما عدد سكانها فيبلغ ستة آلاف نسمة، وهم شديدو التعصب.

وبالرغم من نوعية أراضيها، توجد في بيرجيك بعض البساتين، وهناك إلى الشرق من المدينة أراض خصبة جداً، ولكنها كئيبة المظهر، إذ اجتاحتها قبل وقت غير بعيد أسراب الجراد التي تظهر بكثرة في هذه الأنحاء وتخرب المزروعات تماماً.

ومن أجل تكوين فكرة عن نهم وشراهة هذه الحشرات التي شهدتُ غزوها عدة مرات في سورية، خلال ثلاثة أيام متتالية، من الساعة الثانية عشرة حتى الثانية بعد الظهر، ظننت خلالها أنني أشهد

احتجاباً عظيماً للنور. يكفي القول إن كثافة أسرابها المتراصة بلغت حد إظلام الشمس، بكل معنى الكلمة، لبضع ثوان. والاعتقاد الشائع هو أن هذه الحشرات تأتي من عمق جزيرة العرب، بعد شتاءات دافئة، أو بعبارة أخرى، عندما لا يكون البرد شديداً بما يكفي لإتلاف بيوضها. غير أن الطبيعة التي توازن عادة في الميزان نفسه بين منافعها ومضارها، تخفف بين حين وآخر من أضرار هذه الجائحة، فتحقق القضاء عليها بطريقتين مختلفتين: في بعض الأحيان تحملها الرياح الشرقية أو الجنوبية الشرقية وتدفعها بقوة نحو البحر حيث تغرق، وفي أحيان أخرى تلحق بها سحابة كثيفة من العصافير التي تسمى بالعربية سمرمر (*turdus seleucis* باللاتينية)، تخفق بأجنحتها، وتندفع فوق الجراد، فتطرحه على الأرض حيث لا يعود بمقدور الحشرات النهوض، وتأكلها هناك. وتبدو مذهلة حقاً السرعة التي تهضم بها تلك الطيور طعامها وتفرزه. وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات من هذه الممارسة النهمة، يحتاج طائر السمرمر إلى الشرب، فإذا وجد ماء، فإنه يسترد طاقته خلال لحظات ويعود للهجوم وقتل آلاف من تلك الحشرات؛ أما إذا لم يجد الماء قريباً، فإنه يموت دون مفر. وهناك طائر آخر يدمر الجراد، ولكنه أقل وطأة عليها من السمرمر، ويدعى الزرزور، غير أنه لا يلتهمها، بل يقتلها بمنقاره. ويحدث في أحيان كثيرة ألا تهب الرياح المنقذة، وتتخلف العصافير المدمرة للجراد عن المجيء، وفي هذه الحالة، يأمر الباشا الناس بالخروج من المدينة وقتل ما يستطيعون قتله؛ وقد بلغ الأمر حد دفع دوروين اثنين مقابل كل قنطار من الحشرات الميتة.

وفي الحقول المستوية، يكون لمدافع البارود فعالية كبيرة أيضاً؛ فالجراد يسقط دائخاً على الأرض، ويتم الإجهاز عليه بعد ذلك بالعصي.

وبينما أنا في بيرجيك، سمعتُ أنهم ينتظرون بين لحظة وأخرى وصول سفينة بخارية قادمة من بغداد؛ فإذا ما قيض لها الوصول دون

مصاعب، فهذا يعني أنه سينتظم خلال فترة وجيزة اتصال مباشر بين بغداد وحلب التي تبعد ثمانية عشر فرسخاً عن الفرات[1].

في الساعة الثالثة بعد الظهر انطلقنا في المسير. ودون أن أترجل عن الحصان، اجتزت النهر الذي يبلغ عرضه مئتي متر في زورق مسطح القاع، وسرعان ما غابت عن عيني أراضي آرام، موطن الأحبار التوراتيين، ومسرح أولى نكباتنا وعذاباتنا المسيحية، وباختصار: موطن أعراق وممالك مشهورة.

خلّفت إلى يميني قرية نزيب، والتي كان سيقضى في سهولها على المارد التركي لولا سياسة الإنكليز غير الواعية. ففي العام 1840 ، كان إبراهيم باشا المعروف بعبقريته الحربية والإدارية قد سيطر على سورية، وصار يهدد القسطنطينية. توجست إنكلترا منه لأنه تمكن، بقوة السلاح، من تشتيت شمل مئتي ألف تركي كانوا ينتظرونه، معسكرين ومتموِنين، في نزيب. وقد وصلها هو بخمسة وثلاثين ألف رجل، فانتظر اللحظة التي يكون فيها أعداؤه مستريحين وغافلين، فانقض عليهم وشتت شملهم في ليلة واحدة، واستولى على كل ما كان بحوزتهم، ثم واصل التقدم ظافراً نحو بغيته. حينئذ رأى الإنكليز إمكانية وقوع حدث يقلب أحوال أوروبا كلها، فبدلوا مواقفهم، وهددوا إبراهيم باشا بقصف مدينة الإسكندرية إذا هو لم يتوقف عند حدّ حكمه لسورية.

في الساعة الثامنة توقفنا عشر دقائق في معسكر للتركمان والشركس لنطلب منهم قليلاً من «العيران». والشركس الذين كنت قد رأيتهم في عدة أماكن أخرى، هم أولئك الذين هاجروا جماعياً قبل نحو عشر سنوات. وقد استخدمتهم الإمبراطورية التركية في شرطتها في

---

[1] علمتُ في ما بعد أن سفناً بخارية عديدة قد تغلبت على مجرى الفرات؛ وعلى الرغم من ذلك، لم توجد بعد خدمة منتظمة.

بعض المدن، غير أن معظمهم عاشوا حياة عادية مع القبائل المزارعة، وهام آخرون منهم على وجوههم ليزيدوا بذلك أعداد الأشرار.

في الساعة الثانية فجراً استرحنا في بيجربغلو، وهي قرية يقطنها حوالي ألف تركماني وتركي، حيث أجرينا آخر استبدال للخيول؛ ولكن سقطة تعرض لها زميلي، بانزلاقه في بركة حاول أن يشرب منها، اضطرتنا إلى التوقف لسوء الحظ حتى الثامنة صباحاً. وكان هذا العارض سبباً في مسيرنا خلال اليوم التالي تحت لهيب الشمس، خبباً أو عدواً على خيولنا المسكينة، وطوال الوقت عبر قفر مستو تغطيه الحجارة، لا يقطع صمته ورتابته سوى أسراب بعيدة من الغربان أو كوم من الحجارة هنا أو هناك، هي الضريح الوحيد لأناس عاشوا وماتوا مجهولين. وفي حوالي الساعة السادسة مساء لمحنا قلعة مدينة حلب العظيمة.

ومع انقضاء النهار، حيث صار بالإمكان تنفس هواء منعش من البساتين الكثيفة وأشجار الحور السامقة، وسماع صرخات قوات الجند المصطفة في معسكر فسيح، يرددون ثلاث مرات: «نصر من الله! نصر من الله! نصر من الله!»، وفق العادة المتبعة في كافة مدن الإمبراطورية. وكانت الشمس قد تجاوزت خط الأفق عندما رأيت في البعيد البيوت التي سأجد فيها الراحة، والأصدقاء والمعارف الذين سيسلمونني رسائل، وسيخبرونني بالأخبار الجديدة التي افتقدها منذ بعض الوقت. وأخيراً سمعت الجميع يتكلمون بالعربية، وكان ذلك بالنسبة لي كأنني أسمع التكلم بالإسبانية.

IX

من حلب إلى دمشق

دمشق في 25 آب 1869

بضعة أيام من الراحة في هذه المدينة كانت كافية لأن تنتزع مني اندفاع الطاقة الذي لم يفارقني لحظة واحدة طوال خمسين يوماً متوالية. فخمود همتي من مشقة كل ذلك الترحال الاضطراري، جعلني أكاد لا أجد القدرة الكافية على إمساك الريشة من جديد لكتابة ما هو ضروري عن حلب، وعن مجيئي من تلك الحاضرة إلى هذه، هدف رحلتي التي امتدت لألف وثلاثمئة فرسخ ومنتهاها.

والحقيقة أنه يمكن للقارئ الآن أن يتساءل، ما لم يكن قد فكر في ذلك من قبل، عن الضرورة الملحة التي اضطرتني إلى السير نهاراً وليلاً مع الطاطر، وإنهاك قواي بتلك الطريقة. وأجيب على ذلك بالقول إنني فكرت في تلمس طبيعتي، كي أعرف إلى أي حدّ يمكنني الاعتماد عليها في رحلات أرغب في القيام بها، وفيها سأحتاج إلى طبع قوي جداً وقادر على تجاوز كل المصاعب؛ لأن السفر براحة أكبر لا يمكن تحقيقه إلا بتنظيم قافلة خاصة، مع خيام وجِمال وموكب من الخدم، مما يتطلب نفقات باهظة؛ ولأن التجوال في هذه البلاد، دون أن يكون هناك من نتواصل ونتحدث معه حول الانطباعات والمشقات، يضاعف من هذه المشقات، ويصير الزمن ثقيلاً لا يطاق. أما الحرمان واللحظات الحرجة التي يكشف عنها بمتعة كبيرة بعض الرحالة، فأعتبرها ضرورية لتقوية الجسم وتمتين الشجاعة، وأستمتع بها مقدراً

أنها تقطع رتابة الحياة؛ لأنه ليس هناك من يتحمل مشقة حقيقية، تستحق الشفقة، إلا التعيس الذي ليس له في العالم قريب أو صديق يلتفت إليه ببصره، أو ذلك الذي يجد نفسه وهو في أرض غير مرتادة، وبالتالي بالغة الخطورة، مستغرقاً طوال الوقت في المخاوف والقلق، سواء في أحلامه المليئة بالكوابيس المفزعة، أو في أرقه وكروبه.

ولكن، أياً يكن الأمر، سوف أتكلم عن مدينة حلب وعن الولاية التي هي عاصمتها بتوسع أكبر، لأن لدي ملاحظات كثيرة جمعتها منذ سنتين، ولأنه لم تعد تشغل تفكيري مدن تالية، ولا مسوغ لدي لأن أكون ضنيناً بالوقت المتوافر لي.

حلب، أو «*بريا*» القديمة، كانت في البدء مدينة شبيهة بكركوك وأربيل، أي أنها كانت تقتصر على ما يسمى اليوم الحصن أو القلعة، وهي عمل باهر لما يتطلبه بناؤها من أعمال هائلة، تتلخص في كتلة ترابية على شكل مخروط مقطوع، قطرها في القاعدة 250 متراً، وارتفاعها 50 متراً. وهي مكان محاط بالحكايات والأساطير، سأكتفي برواية واحدة منها فقط: يبدو أنه كان لإبراهيم هناك الكثير من قطعان الماعز، وأنه كان يحلبها ليقدم حليباً للفقراء والغرباء الذين كانوا يجتمعون كل يوم ليطلبوها من النبي، ومن هنا جاءت تسمية *حلب إبراهيم*، و*حلب* هي التسمية الحالية للمدينة، وهي في الوقت نفسه كلمة عربية، وعبرية أيضاً، تعني الحليب الطازج. وذلك المخروط المقطوع ليس على المستوى نفسه الذي تقوم عليه بقية المدينة، مثلما هي الحال في كركوك وأربيل، بل هو منخفض حتى ستة أو ثمانية أمتار تحت مستوى المدينة عموماً، ويحيط به خندق محاط بدوره بما يمكننا تسميته حاجزاً أو رصيفاً. ويتم الوصول إلى القلعة عبر جسر متحرك، وفي قمة القلعة تظهر أنقاض مدينة صغيرة، وأطلال تحصينات، وبئر

عمقها مئتان وخمسون قدماً وقطرها متران، فيها ماء جيد وصالح للشرب. والمثير للفضول أن هناك كتابات لاتينية، ويونانية، وعربية، وتركية؛ كما توجد بعض السهام المسمومة من تلك التي أطلقتها جيوش تيمورلنك. ومن فوق ذلك الارتفاع تظهر للعيان حلب كلها. مئات المآذن وقباب الحمامات، وأراض مقفرة في جانب، وفي جانب آخر بساتين وحقول شاسعة ضاربة إلى الحمرة، حيث تكثر أشجار الفستق الحلبي.

المدينة الحالية تنتشر حول القلعة. وتتألف بيوتها من طابقين، وهي مشيدة من حجر جيد، وجميعها تكاد تكون جديدة، ذلك أن أكثر من ثلثي بيوت مدينة حلب قد انهارت ودُمرت في الهزة الأرضية الكبيرة يوم 13 آب 1822، وكان لا بد من إعادة تعميرها. أسواقها فسيحة جداً وتسودها الرطوبة، وهي مسقوفة بالخشب أو القباب، وشوارعها عريضة ونظيفة ومستقيمة، وهو أمر نادر في المدن الإسلامية وفي هذا المناخ. ويحيط بها من كل الجهات سور مرتفع ومتين، فيه اثنا عشر باباً منذ الفتح العربي، وهو جدير باهتمام علماء الآثار مثل سور ديار بكر. وخارج السور توجد مقابر لكل الديانات، وبعض البيوت والآجام، والجنائن والبساتين المشهورة بالشمام والخيار الذي يروج استهلاكه بين العرب، والقرع، والعنب، والتين، وغيرها. وإلى الشمال هناك مساحات فسيحة من مزارع أشجار الفستق الحلبي التي تشكل خضرتها ضداً لتربة تلك المنطقة شديدة الحمرة. ويروي مدينة حلب نهر قويق الآتي من كيلس، وكان يسمى من قبل *جالوس*، غير أن مياهه، وإن كانت تغذي أسماك حنكليس جيدة، تضاهي بوفرتها تلك التي في نهر منثناريس عندنا؛ إلا أن هناك مياهاً أخرى تأتي في قناة رومانية، وقد بقيت منها بقايا غير قليلة، يُعثر عليها بسهولة وفي حالة جيدة على عمق مترين تحت الأرض.

وبعد القلعة، كان أكثر ما استدعى انتباهي هو جبل أو تلّ على

بُعد نصف ساعة إلى الشمال، يسمى *جبل العظم*، مع أن ما فيه ليس عظاماً في الحقيقة وإنما هي أصداف قواقع وحيوانات بحرية متحجرة. وهناك أيضاً يوجد مقر الإقامة الذي كان يختبئ فيه الباشوات القدماء في أزمنة الإنكشارية، وهي قوات ارستقراطية ومشاغبة، قُضي عليها تماماً في بدايات هذا القرن.

وبالرغم من أن حلب أقرب إلى البحر من بغداد، إلا أنها مدينة يؤمن ساكنوها ببعض الخرافات، حتى إن المتحدرين من أوروبيين، وأعني الشرقيين منهم، يؤمنون بالإصابة بالعين، ويحتمون منها بالطلاسم. ومن هذه الطلاسم التي تتواتر بكثرة رسم كف مفتوحة على أبواب البيوت يسمونها «*خمسة*»، استناداً إلى عدد أصابع اليد. وهناك بيوت لا وجود لمن يقبل السكن فيها خوفاً من الأشباح والعفاريت، ولا يتمكن أصحابها من العثور على من يأخذها ولو بالمجان. وقد رأيت في الشوارع أيضاً بعض المجانين، وهم في حالة مزرية، يلبسون الأسمال أو يمضون شبه عراة. لقد كان في المدينة قبل الهزة الأرضية مبنيان لإيواء هؤلاء التعساء، مازالت جدرانهما منتصبة، أحدهما للرجال والآخر للنساء، حيث كانت تُعزف الموسيقى، فضلاً عن أمور أخرى، منذ الصباح حتى الليل، بهدف إبقاء أشدهم عصبية هادئين، مع أنه يمكن لتلك الموسيقى أن تحول العاقلين في أوروبا إلى مجانين.

عدد سكان حلب، الملقبة *الشهباء* ـ وإطلاق ألقاب على المدن شائع في الشرق ـ يتجاوز المئة ألف نفس. ثمانون ألفاً منهم محمديون، وأربعة عشر ألفاً مسيحيون، وخمسة آلاف يهود، وثلاثمئة مسيحي شرقي، وأربعون أوروبياً فقط. وفي سوريا يطلقون على ذوي البشرة البيضاء تسمية «*شلبي*» باعتبارهم أناساً لطيفي المظهر والمعشر، جيدي الكلام والملبس، وهو ما تأكدت منه بالفعل في مناسبات

عديدة، منها تلك المناسبة التي حضرت فيها وليمة أقامتها لي أغنى أسرة في المدينة، حيث قُدمت لي أفخر أطباق المطبخ العربي، فضلاً عن إمتاعي بالموسيقى والغناء والرقص؛ وهي حفلة وصفتها قبل سنوات، بعد قليل من وصولي أول مرة إلى سورية، عندما كان كل شيء أراه جديداً عليّ.

في العام 1865، وباقتراح من فؤاد باشا، قدمت الحكومة التركية للإمبراطورية تنظيماً إدارياً جديداً. فبدلاً من الباشويات التي كانت سائدة من قبل، أقرت الولايات، ووضع على رأس كل ولاية حاكم عام بصلاحيات تكاد تكون غير محدودة. وتنقسم الولاية إلى ألوية، يحكم كل لواء منها متصرف، وتنقسم الألوية بدورها إلى وحدات أصغر يقوم على حكمها قائمقام.

لكن هذه اللامركزية الكبيرة للسلطة العليا لم تحسن مصير الأهالي، بل زادته سوءاً، إذ خلّفت المجال مفتوحاً لإساءة استغلال السلطة أكثر من أي وقت آخر. فوظيفة الوالي التي تعتبر من أعلى الوظائف في الولاية وتُكافأ براتب يتراوح بين ثلاثين ومئة ألف دورو سنوياً، يتم الحصول عليها في معظم الأحيان بتقديم تضحيات، ومن الطبيعي أن تؤدي التضحيات إلى زيادة سوء الأحوال بوقوعها على كاهل الشعب. فلو كان الولاة مستقلين عن الباب العالي العثماني، يدفعون له، مثلما هي الحال مع نائب الملك المصري، إتاوة معينة، سيكون ذلك أفضل. ولكن ما يحدث هو العكس: فالوالي، فضلاً عن فرضه كل أنواع الضرائب حسب مشيئته في الأراضي التي أوكلت إليه، يستطيع أيضاً فرض قروض بنفسه وعلى نفسه، يتحملها رعاياه، ويكون له الحق كذلك في اللجوء إلى القسطنطينية لطلب المساعدة. فالميزانية في هذا الإقليم أو ذاك تكون ألفاً، على سبيل المثال، بينما تكون النفقات

ألفين؛ فيحسب الوالي الفرق ويطلب ألفاً من الباب العالي. وعلى هذا السبيل، ستصل تركيا بالطبع إلى الإفلاس في زمن قصير.

ونظام فؤاد باشا، وفق الرأي الشائع، مستوحى من رغبته في أن يكون حاكماً لسورية.

وعقبة أخرى في هذا التنظيم تتمثل في أنه يوجد في كل ولاية قائد عام (مشير) للقوات المسلحة، يعتبر نفسه نداً للوالي، لأن له سلطته الإدارية المنفصلة. وقد تمكن الحاكم في بعض الأماكن، مثل بغداد والدانوب، من إخضاع المشير لسلطته، غير أن الموظفين كليهما في أماكن أخرى يمثلان سلطتين متناقضتين ومتخاصمتين.

يحد ولاية حلب من الشمال ولاية سيواس، ومن الجنوب ولاية دمشق، ومن الشرق تحدها ولايتا ديار بكر وبغداد، ويحدها من الغرب البحر المتوسط. وهناك إلى جانب الوالي مجلس إداري واسع، مؤلف من قاضي القضاة، و*المكتبجي* (مدير المراسلات)، و*الدفتردار* (مدير المالية)، ومدير الشؤون الخارجية، ومتصرف العاصمة وقائمقامها. وتتحمل هذه الشخصيات مسؤولية البت في المسائل الهامة.

وقد بدا لي أن مختلف المحاكم، وخاصة المحاكم التجارية، تتمتع بنوع من الاستقلالية وليست خاضعة بصورة قاطعة للأعمال الحكومية. وتنظر محكمة الولاية في قضايا مدينة حلب بصورة أساسية، وتشكل في الوقت نفسه محكمة استئناف للمحاكم المحلية الأخرى في الولاية؛ ولا يعلو على أحكامها إلا قرارات مجلس العدل الأعلى في القسطنطينية. وهي تتألف، مثل محاكم بيروت ودمشق والقدس وغيرها، من قاض يعينه كل عام السلطان، براتب يتراوح بين ألف وألفي ريال شهرياً، ومن المفتي المتعمق في شؤون الدين والقانون، ويساعد القاضي بآرائه الدينية والعلمية؛ وراتبه

حوالي ستمئة ريال في الشهر. ويضاف إلى هذين الشخصين عدة قضاة فخريين لا يتقنون القراءة والكتابة عموماً، ذلك أن الاعتقاد الشائع في تركيا هو أن الحياد «ابن الجهل».

وهناك قضايا أو نزاعات تُحل بالتصويت إذا ما طالت المحكمة، فيحتسب صوتا القاضي والمفتي بصوتين لكل منهما، أما القضاة الآخرون فلكل منهم صوت واحد. وبالنسبة إلى نفقات القضاء، لا توجد تعرفة ثابتة. فالخصوم يدفعون حسب أهمية القضية المتنازع عليها والثروة التي يمتلكونها. ويتمتع القاضي بعدة امتيازات تجعل منصبة محط حسد: فعقد زواج يوفر له مبلغاً يتراوح بين عشرين وألف ريال؛ وشراء أو بيع عقار، أو بناء بيت يوفر له نسبة واحد ونصف بالمئة من رأس المال المستثمر؛ ويتوجب أن يُدفع له مقابل جنازة مبلغ مماثل لما يدفع للزواج، ولكنه يكاد لا يتقاضى هذا المال؛ وهو ما يحدث بالنسبة لحقوق أخرى يصعب عليه تحصيلها، ولكنه يُعَوَّض بالمقابل بإفراط حيث لا وجود لأجور شرعية.

القوانين العربية، أو التركية بعبارة أدق، تستند إلى قوانين جوستانيان المدنية، إضافة إلى مراعاة واسعة للدين والتقديرات المختلفة التي ينظر بها العرب إلى بعض الأمور، مما أوقع تلك القوانين في الإهمال، وصارت اليوم تتألف من مجلدات تمثل على أفضل وجه نمطاً من اللغة العربية، أسلوبها بالغ الغموض والتفخيم، لا يستطيع فهمه إلا قلة من الناس. وهكذا، بغياب الشرط الأول الذي يجب أن تتضمنه القوانين، فإنه يمكن تطبيقها، دون شك، حسب الأهواء والنزوات.

وتنقسم المساهمات الضريبية المفروضة على ولاية حلب إلى نوعين: الحكومية والمناطقية. وتنقسم المساهمات الحكومية بدورها إلى مباشرة وغير مباشرة. الأولى تصل إلى مليوني دورو، وتأتي بصورة

أساسية من الضرائب العقارية، والضرائب المفروضة على الثروات الحيوانية، والإعفاء من الخدمة العسكرية، ومن الجدير بالملاحظة أن الشبان المتعلمين إلى حد يستطيعون معه تجاوز اختبار بنحو اللغة العربية يعفون من هذه الخدمة التي تلحق الضرر بصناعات متعددة، ومن التقدمات السنوية لتجهيز موكب الحج إلى مكة، وتتألف من عشرين جملاً محملة بالزيت، وخمسين ثوباً ثمن كل منها ثلاثون ألف ريال، وطول الواحدة ستة أذرع وعرضها ذراع واحد، مزينة ومرصعة بتطريزات ذهبية وأحجار كريمة، وأخيراً من عُشر كل ما تنتجه الأرض. وهذه الضريبة الأخيرة هي دون شك أشد الضرائب إرهاقاً، لأن الجباة المكلفين بجمعها يجبرون الفلاح الفقير على التنازل لهم عن جزء منها. أما الضرائب غير المباشرة فتأتي من الجمرك فقط. فكل المواد والسلع المستوردة أو المصدرة من الإمبراطورية يدفع خمسة بالمئة من قيمتها، ويتحول إيرادها إلى خزانة القسطنطينية. أما الضرائب المناطقية فتختلف حسب الظروف ونزوات الحكام.

وتضم ولاية حلب، بما في ذلك قبائل البدو ضمن سلطتها، حوالي 1,200,000 نسمة. وفيها أربعمئة مدرسة: واحدة منها في عاصمة الولاية والأخرى في تارسو تتبعان للحكومة، وهما أشبه بما نسميه عندنا المدرسة الرسمية، ولكنها أقل مستوى بكثير. أما بقية المدارس الأخرى فهي خاصة، حيث يتلقى الأطفال، مقابل خمسة أو عشرة أو اثني عشر ريالاً، تعلم القراءة والكتابة وتفسير القرآن. كما أن لكل الطوائف الدينية مدارسها الخاصة بها.

كان لا بد للزراعة في هذه البلدان من أن تكون معيناً للثروة لا ينضب، غير أن انعدام الأمن، وهو ركيزة الازدهار، وانعدام وسائل الاتصال وشح الأموال، وكبر الفائدة الربوية، يجعل الأرض لا توفر

سوى ما هو ضروري بالضبط، وبدلاً من أن يكون الشعب غنياً ومزدهراً، فإن كل شيء عكس ذلك تماماً. وبالتحول إلى شأن آخر، يبدو لي أنه يمكن تصنيف منتجات ولاية حلب على النحو التالي:

الحبوب: ـ تتوزع على خمس وعشرين وحدة، عشر وحدات منها للقمح، وخمس للشعير، ووحدتان للذرة، ووحدتان للعدس، ووحدة واحدة للحمص، وخمس وحدات للسمسم. ويشكل المجموع عشرة ملايين كيس، يصدر نصفها.

الفستق الحلبي: ـ ويأتي حصراً من حلب ومن روم قلعة، ويُجمع منهما ثلاثة آلاف قنطار سنوياً، تصدر إلى إيطاليا وفرنسا وإلى مقاطعات مختلفة من تركيا. وأفضل أنواعه، أي الذي تنتجه حلب، يباع بثلاثة ريالات للرطل الواحد. وبما أن هذا النوع من الفستق غير معروف خارج هذه المنطقة، فمن المناسب أن أوضح طريقة زراعته.

في أواخر شهر كانون الثاني توضع البذور في علب، وتُسقى سقاية خفيفة عند غروب الشمس. وبعد ثلاث سنوات تنقل الغراس إلى التربة، ويفضل أن تكون التربة أقل طينية ما أمكن، وتُحفر من أجل ذلك حفرة مخروطية عمقها متر ونصف متر، تتيح سقايتها دون أن تنزل الرطوبة بصورة عمودية، لأن ذلك يتلف الجذور. وتردم الحفرة بالتناسب مع نمو النبتة، وعندما تصل إلى مستوى سطح الأرض، يبدأ تطعيمها من خلال قشرتها؛ وبعد ثلاث سنوات من ذلك تظهر أولى الثمار.

أما منتجات بقية أنحاء الولاية فتتلخص في الشمع، وجوز الطيب، والحرير، والتبغ، والرز، والزيت، والملح الذي يتوافر بكميات كبيرة في بحيرة الجبول. ويمكن أن نضيف كذلك الصوف، وإن يكن أقل شهرة من صوف بغداد والموصل، إلا أنه يدخل ضمن قائمة التصدير.

أما في ميدان الصناعة، فتشتهر حلب بجمال منسوجاتها

وتنوعها، وبدقة نسج خيوط الذهب. وفي القرى تُدبغ جلود الجواميس والجمال والعجول والماعز والأغنام، وكثير منها يأتي من بغداد وأرضروم ومن مصر. ويبلغ ثمن جلد الجاموس أو البقر المدبوغ خمسة وعشرين ريالاً، وتباع جلود الماعز والغنم بثمانية أو عشرة ريالات.

لقد ظلت حلب مزدهرة حتى بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، ولكن ما إن سهّلت السفن البخارية الاتصالات، ووجد منتجو بلاد فارس مخرجاً عبر طرابزون (على البحر الأسود) وعبر الخليج الفارسي، حتى أصاب الشلل حياة حلب، ولا تزال على هذه الحال، وربما إلى الأبد.

القوى العظمى ممثلة في المدينة بقناصل موظفين. والدول الأخرى، مثل إسبانيا، يمثلها قناصل فخريون.

على مسافة عشرة فراسخ باتجاه الغرب، عند أقدام جبال الأمانوس التي تفصل كيليكية عن سورية، والمعروفة اليوم باسم *شابور داغ*، أي جبل شابور، توجد البحيرة البيضاء الغنية بكل أنواع الأسماك، ويوفر احتكارها كل سنة للدولة في مزاد علني مبلغاً يصل إلى اثني عشر ألف دورو. وعلى مسافة مساوية من حلب، باتجاه الجنوب الشرقي توجد ممالح الجبول الممتدة على مساحة فرسخين مربعين، مثل ملاءة بيضاء فسيحة، من المستحيل التمكن من النظر إليها في ضوء النهار بسبب قوة انعكاس أشعة الشمس عليها.

لقد زرت هذه الأماكن منذ حوالي ثلاث سنوات، عندما زرت حلب أول مرة. ولم أنسَ في الحقيقة أنني وأنا في طريقي من حلب إلى الجبول، توقفت في منتصف الطريق في قرية قيل لي إن الجميع فيها، رجالاً وصغاراً، يتقنون لعب الشطرنج، أرقى الألعاب وأكثرها نبلاً. ولكي أتأكد من ذلك الأمر الغريب، عرضت اللعب على أول شخص صادفته. وحسب ما هو معهود، حركنا بيادق الملك، وتقدمنا

بحصانينا، وعند الحركة الثالثة بدأ خصمي يضحك، كما لو أنه صار واثقاً من أنه قد كسب اللعبة، وقد كسبها بالفعل.

العرب شغوفون جداً بهذه اللعبة الهندية الأصل التي تعلموها من الفرس، ومنهم أخذوا تسميتها *schahtranch* (لعبة الشاه) التي يميزونها بها. غير أن تلك الظروف، وكوني لاعباً من الدرجة الثالثة، لا يكفيان لتفسير كيف تمكنوا من التوصل إلى تلك المهارة في إتقان اللعبة وسط الصحراء. وهناك تفصيل آخر لاحظته في أحجار اللعب، فالفيل عندنا منحوت على هيئة تريد التشبه بذلك الحيوان، وهو ما يحدث في الهند أيضاً. وكلمة *mate* أو *mât* التي تنتهي بها اللعبة، تعني باللغات السامية *مات*.

من أجل الذهاب إلى دمشق كان بإمكاني أن أجتاز في يومين مسافة الخمسة والعشرين فرسخاً الفاصلة بين حلب وإسكندرونة ثم الالتفاف بعد ذلك عبر بيروت، أو أن أذهب مباشرة، حيث الطريق أسهل للمسير، لاسيما وأن العرب يقولون «سهل ومنبسط مثل الطريق من حلب إلى دمشق». وقد اخترت الطريق الثاني، وهدفي أن أرى إن كانت هناك فرصة مناسبة للذهاب إلى تدمر، ولكي أحيي في طريقي كذلك حماة وحمص.

وبعد ثمانية أيام من الإقامة المريحة في بيت صديقي القديم السيد أندريس ماركوبولي، الذي هو قنصل البرتغال، وفي الوقت نفسه التاجر الأول والأغنى في حلب، ذهبتُ إلى إدارة البريد لأتفاهم مع الطاطر الذي سينطلق إلى دمشق، على الرغم من استياء كل من يعرفونني، وقد كانوا يخشون أكثر مني أن أصاب بضربة شمس تبقيني على الطريق. ولكنني أصررت على قراري، كنت متلهفاً من جهة أخرى للوصول إلى هنا (دمشق)، وقطعت الستين فرسخاً المتبقية

لإنهاء رحلتي خلال أقل من ثلاثة أيام، بدلاً من العشرة أو الاثني عشر يوماً التي تتطلبها الرحلة عادة.

في يوم الثاني عشر، الساعة الثامنة صباحاً، بدأنا المسير. الطاطر، وخادمان يمتطيان بغلتين محملتين بالرسائل، وخمسة خيالة وأنا. كانت الشمس قد بدأت تشتد، وتُبخر رطوبة الأرض، مما يُحدث فوق السهب الفسيح النسيم الحاصل عن تمدد الجزيئات، وفي الوقت نفسه ذلك التماوج الخادع للبصر. تأثيرات انعكاس الضوء، وهي مزعجة جداً في مثل هذا الوقت، كنت قد تجنبتها حتى الآن بوضع نظارة ذات زجاج أزرق؛ ولكنني أضعتها لسوء الحظ في بيرجيك، ونسيت شراء نظارة أخرى في حلب، مما أصاب عيني بتهيج شديد مازلت أشعر حتى الآن بحرقة فيهما. والحقيقة أيضاً أن هذه لم تكن الذكرى الوحيدة التي أحتفظ بها من تلك الرحلة، إذ على الرغم من أنني كنت أُبقي وجهي ملفوفاً طوال الوقت بكوفية، وهي منديل حريري يستخدم لهذا الغرض، فإن بشرة وجهي مازال مسلوخة حتى الآن.

بعد أربع ساعات من الخبب، أمر الطاطر بالتوقف، وفرش عباءته على الأرض ليصلي صلاة الظهر، وأكمل بصرامة الركعات العشر والسجدات العشرين التي أمر بها محمد. ولم يكن الخادمان والحراس ينوون الصلاة، ولكن خوفهم من أن يعتبروا كافرين جعلهم يحذون حذوه، واجتمع السبعة، أحدهم إلى جانب الآخر، وراحوا يصلون بصوت عالٍ.

بعد دقائق قليلة واصلنا المسير، متوحدين وصامتين، عبر أراض صلصالية جيرية هي الأفضل للزراعة والمناسبة لكل أنواع الزراعات؛ ولكنها غير مستغلة إلا قليلاً مع ذلك. وفي البعيد، إلى اليمين، كنت أرى ظلال جبال إنطاكية وجبال النصيرية التي اجتزتها قبل سنوات،

وتظهر هنا وهناك بعض القرى البائسة، أو مخيمات قبائل البدو المزارعين. وفي الساعة الثامنة ليلاً دخلنا مدينة المعرة، وهي مدينة تضم خمسة آلاف نفس، وتشكل الحد الفاصل بين ولاية حلب وولاية دمشق، وتؤلف مع حماة وحمص لواء حماة الذي يصل حتى حدود ولاية دمشق.

بعد دخولنا الاستراحة التي علينا أن نستبدل فيها خيولنا، جاء صاحب المحل بصينية عليها كؤوس خمر، وخيار وحمص محمص، وحين رأى الخادمان والحراس ذلك، هتفوا مبتهجين: «تبارك الله!». ولكن الطاطر الذي قُدم إليه الشراب أولاً رفض تناوله بإيماءة استياء واضحة المغزى، فامتنع الآخرون عن تناول الشراب في حضرته. أما أنا، وبما أنني لا أشرب إلا الماء، فقد رفضت الشراب دون انزعاج، فلاحظ الطاطر ذلك، وكان يخلع نعليه من أجل الوضوء، ولا شك في أنه أراد تأنيب الآخرين حين قال لي: «يوجد مسيحيون يستحقون أن يكونوا مسلمين، ويوجد مسلمون حرام أن يكونوا مسلمين». فرددتُ عليه بابتسامة كيلا أُغضب أحداً.

خرجنا من المعرة في الساعة العاشرة ليلاً، وسرنا مسرعين طوال ما تبقى من الليل وشطراً من الصباح، حتى الوصول إلى حماة في حوالي الساعة السابعة من يوم الثالث عشر.

وحماة هي عاصمة اللواء الذي يحمل الاسم نفسه؛ وتضم خمسة وأربعين ألف نسمة، وتتوزع بيوتها على ثلاث هضاب محاطة بأشجار حور سامقة وبساتين وارفة، هي أروع كلما كانت قليلة الارتفاع، حيث يمكن إمتاع البصر في كل أنحاء ذلك المكان؛ ويرويها نهر العاصي المشهور وكثير من القنوات والسواقي التي تجري فيها مياه تحملها إليها اثنتا عشرة ناعورة ضخمة من مجرى النهر العميق، ويبدو أن صرير تلك النواعير صار ضرورياً من أجل راحة أولئك السكان، فهم معتادون عليه إلى حد شعورهم بالضجر إذا ما توقف.

وقد كانت المدينة مشهورة باسم أفاميا، وبالمجد الأدبي لحاكمها الأيوبي الثاني وقبل الأخير، المدعو منصور وأبي الفداء الذي يُعتقد خطأ أنه ولد في دمشق.

خرجنا من حماة في الساعة الثانية عشرة ظهراً، وواصلنا في عدو سريع طوال الوقت تقريباً، وفي الساعة الثامنة صرنا على مرمى حجر من حمص، وحيينا من بعيد ذرى جبل لبنان التي كانت أشبه بوطن ثانٍ لي، إذ عشت في عزلاتها فترات طويلة وبهيجة.

ذهبنا في حمص للاستراحة في بيت أبوي الطاطر، وما إن رأتنا أخواته وجارياته ندخل البيت حتى دوت زغاريدهن وأصواتهن، وهذا من السمات الخاصة بالبلدان الإسلامية للإعراب عن الابتهاج. ولكنني لم أتوقف لسماع تلك الجوقة المتنافرة، بل رطبت بدني بأكل بطيختين، وذهبت فوراً لزيارة القائمقام بهدف الاستفسار منه إذا ما كان بإمكاني الذهاب إلى تدمر، ذلك أن ذكرى المعركة التي قادها الإمبراطور أوريليان ضد زنوبيا بالقرب من أسوار حمص، زادت من رغبتي الطبيعية في الذهاب لزيارة عاصمة تلك الملكة البطلة.

وشاءت الصدفة أن يكون القائمقام صديقاً قديماً لي، كنت قد تعرفت عليه في القدس عام 1867، وبعد أن استدعى بعض شيوخ القبائل الذين تصادف وجودهم في حمص، تداول معهم، ثم قال لي إنه من المستحيل تماماً القيام بتلك الرحلة دون التعرض لخطر المجازفة بالحياة، لأن لديهم أخباراً مؤكدة عن أن القبائل المستقرة في محيط تدمر تخوض حرباً في ما بينها منذ خمسة أيام. وكان لا بد بالتالي من التخلي عن المشروع المرغوب، وتأجيله إلى فرصة أفضل.

ولكن زيارتي للقائمقام كانت مثمرة بعد ذلك، إذ لم أحصل فقط على معلومات عن لواء حماة، بل حدثني كذلك عن واقعة كنت أجهلها

حتى ذلك الحين، ولكنها صارت معروفة اليوم على نطاق واسع. وأعني مشروع الإنكليزي أوريللي (حسن بك) الذي جاء في العام الماضي للقيام بثورة، كان الهدف الجلي منها انتزاع سورية من الأتراك.

كما أن المعلومات والأخبار التي قدمها لي عن لواء حماة مهمة إلى حدّ لا يمكن لي تجاهلها في كتابتي هذه.

فمحافظة حماة، وهي الرئيسية في ولاية دمشق، تشمل مثلما قلت من قبل كل الأراضي المتضمنة من المعرة حتى هذه الحاضرة، ومن الشرق إلى الغرب ابتداء من جبال النصيرية حتى الصحراء، في امتداد يصل إلى خمسين فرسخاً.

ويبلغ عدد سكان اللواء المذكور مئتين وسبعين ألفاً. مئة وثلاثة وثمانون ألفاً منهم محمديون، وثمانية وأربعون ألفاً نصيريون، وخمسة وعشرون ألفاً من أتباع الديانة اليونانية، وسبعة آلاف كاثوليكي. وهم يتوزعون في ثلاث مدن هي: حماة (خمسة وأربعون ألف نسمة)، وحمص (خمسة وثلاثون ألفاً) والمعرة (خمسة آلاف)، وفي خمسين قرية وخمس وعشرين قبيلة. ولا بد أن يضاف إلى هؤلاء الأخيرين ثمانية عشر قبيلة من البدو، وهي قبائل كبيرة العدد بحيث يمكنها إنزال أربعة عشر ألف مقاتل إلى الميدان.

وهذه الأراضي خصبة جداً، وربما هي الأفضل استغلالاً. بفضل نهر العاصي الذي يمر بمحاذاة حمص ويخترق حماة، وبفضل الجداول التي تجري في الجهة الشرقية والينابيع التي تنساب من سلسلة الجبال، تنتج السهول القمح والذرة والشعير والعدس والفول والسمسم والقطن والصبار، وغيرها. ويُربى في المرتفعات دود القز، وتكثر الثمار والحبوب، وتغذي الغابات قطعان من الماعز، كما يتولى البدو الرعاة والرحل تربية قطعان من الأغنام والجمال التي تنتج كميات كبيرة من الصوف والسمن.

وتُصنع في حماة وحمص والمعرة تشكيلة متنوعة من المنسوجات الحريرية، والقطنية والصوفية، يُصدر قسم منها إلى مصر. وفي جبال النصيرية يصنعون سجاجيد مشهورة من القطن والصوف، يصل ثمنها، حسب الحجم، إلى خمسين دورو للسجادة الواحدة.

وتتاجر المدن الثلاث مع أوروبا عن طريق طرابلس وبيروت وحلب، وفي المدينتين الأوليين يقيم قناصل فخريون محليون لفرنسا وروسيا وفارس.

ويدفع لواء حماة لولاية دمشق نصف مليون دورو كضرائب من كل الأنواع، بينما تدفع مختلف قبائل البدو ما مجموعه ستين ألف دورو.

ومازالت شهادة المسيحي في محاكم اللواء ضد المسلم باطله، مثلما هي الحال في مدن الداخل، ولكن الأمر ليس كذلك في مدن الساحل. أما عدد القوات المسلحة فيصل إلى ثلاثة آلاف وثلاثمئة رجل، خمسمئة منهم في حماة، ومثلهم في حمص؛ وجميعهم يعيشون في حالة مزرية وتثقل عليهم الديون، ذلك أنهم لم يتلقوا رواتبهم منذ سنتين، وهم يدينون بالتالي بأكثر من مليون ريال لمونيهم.

بعد زيارة طويلة، لم تغب عنها عدة جولات من القهوة والمرطبات والنرجيلة، ودّعت القائمقام وذهبت للنوم في منزل الطاطر، وكنت بأمس الحاجة إلى ذلك.

وفي الساعة السابعة صباحاً كنت قد نهضت من جديد، ورحت أتمشى على السطح، أتأمل تلك المدينة الكئيبة التي يسكنها خمسة وثلاثون ألف نسمة، المحاطة برمال الصحراء، وأتذكر مفتوناً أنه قبل أزمنة داود كانت تقوم هناك بالذات عاصمة مملكة أشورية، كان فيها معبد للشمس، يقوم على الخدمة فيه هيليوغابال الشهير، حيث كان يتوافد جمهور غفير لعبادة الحجر المخروطي الأسود الذي

يقال إنه نزل من السماء، مثلما يقال عن حجر مكة، ويظهر عادة على بعض النقود الرومانية.

وفي حمص، كما في حماة، مازالت هناك بعض الأطلال من القرن الثاني عشر: أسوار، أبراج وبقايا تحصينات قوضتها هزات أرضية متعددة.

خرجنا من حمص يوم الرابع عشر الساعة الثامنة صباحاً، وكنا أنا والطاطر مصممين على عدم التوقف حتى دمشق، اللهم إلا من أجل استبدال خيولنا في بساتين ربلة ويبرود الغناء البهيجة. وفي الساعة الثانية عشرة من ليل ذلك اليوم بالذات كنا عند أطراف غرناطة المشرق، نجتاز سلسلة صخور غرانيتية، وعلى سفوحها الملساء وشبه المنحوتة، لا أكاد أدرك كيف واتتني الجرأة على قيادة حصاني عدواً، لأنه كان يمكن لأدنى عثرة أن تلقي بي في هاوية سحيقة.

ولكن بالطريقة نفسها التي نصل بها إلى نهاية سعيدة لمهمة صعبة، فإننا لا ننسى فقط كل ما واجهنا من منغصات ومشقات في إنجازها، وإنما نتذكرها كذلك بابتسامة على شفتينا، لأنه مكتوب أن الجيد، لكي يكون جيداً، لا بد من بلوغه عبر طريق وعر وقاس؛ وهكذا أنا، في كل خطوة نحو نهاية رحلتي، كنت أبدو كأنني أستعيد قواي، وأشعر بتضاؤل التعب، وقد بلغ حدّ التلاشي الكامل عندما رأيت من أعلى جبل على الضوء الخفيف للغيوم التي تخفي نجم الليل، حديقة هائلة «باتساع أرواح العادلين»، حيث تربض مدينة دمشق الشهيرة، وحيث خرير المياه الوفيرة، والنسمات العليلة الباردة، كانت بشائر ونذر فأل واضحة للطمأنينة التي سأنعم بها أخيراً.

هنا تنتهي رواية الرحلة من سيلان إلى دمشق، والتي رأيت أنها جديرة بالنقل إلى الورق، لأنها غير معروفة إلا لقليلين.

والآن، عندما أتفحص الخريطة وأستعيد في المخيلة الأراضي التي جبتها؛ وعندما أتتبع بنظري شواطئ تلك المناطق الكهنوتية في الهند؛ وعندما أتوغل في المياه التي ساد الفينيقيون على ضفافها، وعندما أصعد دجلة البديع كي أجتاز من جانب إلى آخر تيار الذكريات هذا الذي يسمونه ميسوبوتاميا، مدفن حضارات عريقة مغرقة في القدم، والفراش الذي تحتضر فيه المحمدية اليوم؛ وعندما تنتقل المخيلة بإعجاب من منطقة إلى أخرى، متذكرة أزمنة وعصوراً، حتى الوصول إلى دمشق وإلى أيامنا هذه، أشعر بأن روايتي تنقصها فصول وأحداث كثيرة أضاءت هذا الجزء من العالم. غير أن ذلك الإغفال يستجيب إلى الهدف الصارم الذي سعيت إليه عند إمساك الريشة، وصغته في القول العربي المأثور: *أفضل وصف يُروى هو ذاك الذي يجعل من الأذن عيناً*.

X

آثار تدمر

سعادة السيد المحترم إدواردو سابيدرا

تدمر (بالميرا) في 17 أيلول 1870

سيدي المحترم، لك مني أسمى آيات التقدير.

عندما بلغني أنه، بتدخل من جنابكم، جرى تعييني عضواً مراسلاً في الأكاديمية الملكية للتاريخ، فكرتُ، مثلما هو طبيعي، في أكثر الطرق جدارة بالإعراب لكم عن عميق شكري. وكان بمقدوري صياغة مشاعري بسهولة، مكتفياً بالرد على ما تلقيته من تكريم، ومركزاً على صاحب الفضل فيه؛ لكنني فضَّلت الانطلاق من هذا المكان الذي لم تره قطٍ عيون مواطنينا، في محاولة مني لأن أصهر في ذاكرة حضرتك، إذا كان ذلك ممكناً، صورة تدمر مع ذكرى شكري المخلص والعميق.

عندما اصطحبتُ حضرتك إلى مصر العليا، ورأينا معاً تلك الأوابد الضخمة العجيبة، واحدة فواحدة، حيث تمضي جرأة الفكرة وصرامتها جنباً إلى جنب مع إفراط الاستثنائي في دقة العمل وكماله، ظننت أنني فقدت بعدها الحماسة لرؤية نُصبٍ وأوابد أي عصر أو شعب آخر؛ ولكن ذلك لم يحدث لحسن الحظ، ولا يمكن له أن يحدث، لأن تنوع الفن لا حدود له، وأينما يظهر، تنكشف مرحلة من الزمن والمجتمع. ففي الهند، على سبيل المثال، يخشون الآلهة، وقد سيطر عليّ الذهول وأنا أتوغل بين الصخور التي نُحتت

فيها الباغودات السرية. وفي مصر كانوا يوقرون الآلهة، وقد تأملنا معاً، حضرتك وأنا، بإعجاب صافٍ أعمدة طيبة المهيبة وآثارها. أما هنا فكانوا يحبون آلهتهم، وهنا أُنَقِّل النظر على هواي بين هذه المئات من الأعمدة المنتصبة. ولا يمكن أن يقال إلا إنه كلما تعاظمت اهتماماتنا وقلقنا، صارت أعمالنا أشد استثنائية وتعقيداً.

يمكنني بكل تأكيد أن أصف المشهد الذي أكتشفه، لكنني أعرف جيداً أنك ستقرأ باستمتاع بعض الأخبار حول مجيئي من دمشق إلى هنا، ولهذا سأتحدث في الوقت نفسه عن مرحلة تبدو لآخرين غير مجدية.

منذ العام 1691، حين كشف تاجران انكليزيان لأوروبا عن وجود هذه الآثار، إلى حين مجيئي للترحال عبر سورية، قلة نادرة هم الأشخاص الذين غامروا بالمجيء إلى هنا. ولكن، مع استقرار الاتصالات السريعة، واعتياد الناس على عدم الاستغراب من بعضهم بعضاً، صارت النقود وحدها كافية لإشباع الفضول.

بين كثير من الشيوخ الذين أعرفهم، استعنت بواحد منهم، لأسباب عديدة، فهو من أكثر الناس حظوة واحتراماً في تدمر ومحيطها. والحقيقة أنه لم يفدني كثيراً، كما سيظهر في ما بعد، ولكنني أهديت إليه مع ذلك مسدساً، كمقدمة لمكافآت أكبر. وامتطينا الخيول، يتبعنا خادمان، وغادرنا دمشق يوم الخميس، الثامن من أيلول، الساعة الخامسة مساء، عبر باب توما، أي توماس، حيث ذُبح كما تقول الحكاية كاهن بهذا الاسم في بداية زمن السيطرة العثمانية.

سرنا لساعتين في طريق فسيح تحف بجانبيه أشجار حور، وبساتين خضار وأشجار مثمرة، حيث تتوالى أشجار الزيتون والكرمة والنخيل، وأشجار الفستق النبيلة رمز الكنعانيين، وأشجار الخروب الوارفة، وكل أنواع الشجر المثمر، وغير قليل من الأشجار الحراجية؛

وباختصار، فيض وافر من الأشجار والشجيرات لا تزدهي بمثلها أية مدينة أخرى رأيتها، وترويها مجاري مياة متدفقة، تحول دمشق إلى أبهج مكان استجمام. وبعد انقضاء الوقت القصير الذي أشرتُ إليه، تختفي كل تلك الهبات، ويمتد البصر فقط على حقول قمح وأعشاب جافة، وحتى هذه تأخذ بالتضاؤل في العدد والامتداد لدى الاقتراب من جيرود الواقعة على بعد عشر ساعات إلى الشمال من دمشق، وتنتهي تماماً لتتحول إلى آجام فسيحة قبل وقت طويل من بلوغ القريتين، وهذه قرية تضم ألف وخمسمئة نفس، على بعد اثنتي عشرة ساعة من سابقتها.

في القريتين تبدأ المرحلة الثانية من الرحلة، وهي أصعب بكثير من المرحلة الأولى، ليس بسبب وعورة الطرق التي بالإمكان حقاً اجتيازها بالعربة من دمشق حتى هنا، وإنما لأن الرحلة من القريتين إلى تدمر، بالسير في خط مستقيم باتجاه شمال، شمال شرق، تتطلب اثنتين وعشرين ساعة على الحصان، وليس هناك على امتداد الطريق كوخ واحد، أو شجرة، أو قطرة ماء. لو أنني أتيت على جمل، لكان بالإمكان تجاوز هذا الظرف؛ ولكن الأمر ليس كذلك بمجيئي على حصان، لأنه لابد من حمل مؤونة وخيام، وهذا شيء مكلف على الدوام، فضلاً عن أنه غير مريح. تولى الشيخ مسؤولية هذه الصغائر، وفي يوم السبت، الساعة الرابعة مساء، كنت مستعداً لمواصلة الرحلة؛ ولكن ظروفاً، سأعرضها بإيجاز، دفعتني إلى تأجيلها ثلاث ساعات، وأن أجري عليها بعض التعديلات كذلك.

كانت الحكومة التركية قد قررت، منذ بعض الوقت، قمع قبائل البدو التي تعمد، في ظل ضعف السلطة، إلى مهاجمة ونهب القبائل الفلاحية، وكذلك الرحالة الأوربيين أحياناً؛ وهي أعمال عنف تؤدي على الدوام إلى تحميل الباب العالي دفع تعويضات باهظة. وبهدف تجنب ذلك وتأمين البلاد، تقرر إقامة خط تحصينات

عسكرية ما بين جيرود والرقة الواقعة على ضفة الفرات، وتتألف تلك التحصينات من سلسلة *blok-hauss* وفرقتين عسكريتين، كل واحدة منهما تضم حوالي ألفي رجل، يعسكرون في القريتين وتدمر. وتصادف أن الفرقة المتوجهة إلى تدمر، ستغادر القريتين بعد قليل من الموعد المحدد لسفري، ومع أنه كان عليّ الابتعاد عن خط سيرها حوالي خمس أو ست ساعات من الطريق المستقيم حيث يوجد الماء، إلا أنني قررت المجيء إلى تدمر مع تلك المرافقة الآمنة.

راحت تتجمع، شيئاً فشيئاً، خارج القرية ثلاث كتائب مشاة وحشد من الجمال المحملة بالمؤن والأسلحة؛ وعند الغروب بدأت تلك الحشود تحركها مع انطلاق صوت بوق؛ وسرنا أنا وشيخي في أثرها. راحت الحملة العسكرية، المضاءة بقمر بديع، تنساب بهدوء عبر سهوب فسيحة، متحدة كأمواج بحر هادئ، حيث يظهر ويختفي بين حين وآخر، على أحصنة سريعة، أبناء الصحراء القساة فقط.

سلسلتان جبليتان متوازيتان تقريباً، على بُعد بضعة كيلومترات، ونجم القطب، كانت دليلنا في التوجه. ومع تقدم الليل، بدأت الريح تهب بقوة متزايدة، وأوشك البرد أن يصبح قارساً جداً، ولا بد من التنويه إلى أن سبب هذه الظاهرة لا يرجع فقط إلى طبوغرافية الأرض، ولونها الأبيض، وارتفاعها المتزايد بنعومة، وإنما كذلك إلى اتجاه الجبال، وعري التربة ووفرة الملح فيها.

بعد كل ساعة من المسير تقريباً، كنا نتوقف لنمنح استراحة للمشاة المنهوكين؛ وكان عواء الثعالب أحياناً يمزق صمت الليل من بعيد، وليس أقل منه أصوات التيوس البرية، وهي كثيرة في ذلك القفر، إلى حدّ منحها الاسم لينبوع *عين الوعل* الواقع في الجزء الأكثر وعورة من الجبل الذي إلى يميننا، والنقطة التي توقفنا عندها يوم الأحد،

في الساعة التاسعة صباحاً. وهناك نصبنا خيامنا، وبقينا حتى الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي، خلافاً لرغبتي في الواقع، لأنني بين معاناة برد السفر ليلاً، أو حرّ السفر نهاراً، كنت أفضل الخيار الأخير.

كنا قد مشينا حوالي ساعتين تقريباً عندما التقينا بقافلة صغيرة، مؤلفة من رجال ونساء مهلهلي الثياب، يقودون عشرين حماراً أبيض محملة بالقمح وجلود الخراف. سألت عمن يكونون، وأجابوا بأنهم *صلُبه*، وأنهم يتوجهون شرقاً سعياً إلى إحدى قبائلهم.

لم تكن تسمية أولئك الناس مجهولة لدي، فأنا أعرف أنها في سورية مرادف *منبوذ*؛ وذلك عائد لمنشئهم، بالرغم من أن أحداً لم يدقق فيه على ما أعتقد. ومع ذلك، فإن كلمة *صلُبه* هي تحريف واضح لكلمة *صليبيين* التي كان يشار بها إلى رجال الحملات الصليبية القدماء، ويمكننا أن نستنتج أن تلك القافلة تنحدر من المؤمنين الذين جاؤوا إلى هنا في القرنين الثاني عشر أو الثالث عشر، وانتهى بهم الأمر، بسبب اضطهاد المحمديين وملاحقتهم، إلى البحث عن ملاذ لهم في الصحراء. ويمكن لهذه الفرضية أن تستند إلى أمور أخرى؛ مثل: *الصلُبة* يتكلمون عربية يصعب فهمها، ليس بسبب مفرداتها، وإنما بسبب نسيج اللغة نفسه؛ ويختلفون عن قبائل البدو الأخرى في أنهم لا يملكون ولا يستطيعون امتلاك الجمال أو الخيول؛ وهي علامة الرفعة والنبل، وإنما الحمير؛ والجميع يزدرونهم، وهذا دليل واضح على أنهم ليسوا محمديين، وإن كانوا يتبعون هذه التعاليم القرآنية أو تلك، إلا أنهم ليسوا مؤمنين في الحقيقة، وإنما *كافرون*، كما يقولون هم، أو هراطقة، كما نقول نحن؛ وأخيراً اللون الأبيض، وضعف أجسادهم ورخاوتها، يبين أنهم ليسوا عرباً وإنهم يختلطون ببعضهم بعضاً وحسب. وربما لهذا السبب أيضاً كان عددهم محدوداً، إذ لا توجد منهم إلا بضع قبائل في الصحراء التي تفصل بين بغداد ودمشق.

بعد هذا الخروج القصير عن الموضوع، أعود إلى رحلتي التي كانت تقترب من نهايتها في فجر يوم الثلاثاء. ففي ذلك الوقت توغلنا في دروب كلسية، نرى إلى يميننا ويسارنا تلالاً متجاورة، يصل عددها إلى حوالي الخمسين، لبعضها شكل أبراج مربعة، هي مدافن التدمريين القدماء؛ وبعد قليل بدأ مستوى الأرض بالارتفاع سريعاً، ثم ظهرت تدمر فجأة، بمعابدها، وأقواس نصرها، وأعمدتها، غارقة في بحر من الرمال.

من هذه النقطة سأقدم لحضرتك فكرة سريعة عن مجمل الآثار. المساحة التي تحتلها مغلقة من الجنوب والغرب بهضاب تمتد باتجاه الشمال، تمثل شكل منحن بيضوي، تحده بقايا سور من بناء البارثيين أو الرومان؛ والمحور الأصغر، المتجه من الشمال إلى الجنوب، طوله كيلومتر ونصف الكيلومتر؛ وفي اتجاه المحور الأكبر، تنتصب أمامنا سلسلة أعمدة؛ وإلى الشرق يظهر بناء هائل، وهو ما كان معبد بعل Bâl، تلعقه تيارات مياه كبريتية صافية تولد من الهضاب، حيث نقف الآن وننظر إلى المدينة، وإلى الغرب، في أولى مراقي جبال الأصاخر هناك قلعة محاطة بخندق عميق، أظن أنها من عمل الفاتحين العرب. وتمتد في جهة الشمال، حتى تختلط بالأفق، سهوب شاسعة، يكثر فيها الملح، وهو بضاعة ذات أهمية تجارية للتدمريين الحاليين؛ وإلى الجهة الشرقية، تحتوي الأراضي الريانة والخصبة على ينابيع مياه وفيرة، أغرت بلينو في أزمنة أخرى على امتداح موقع تدمر؛ وبين هذا الاتجاه وذاك يوجد سنجار، حيث أمر المأمون، كما تتذكر حضرتك، بقياس درجة الاعتدال الأرضي.

ذهبت مباشرة للراحة في بيت الشيخ سليمان، أخي مرافقي، الذي بادر على الفور إلى تقديم صينية كبيرة من الرز وقطع اللحم

المشوي، توالى على الأكل منها حوالي ثلاثين شخصاً، يمكن لشراهتهم المفرطة أن تذهل أي شخص لم يشارك مثلي مراراً في ولائمهم. والحقيقة أيضاً أن من عادة هؤلاء الناس الطيبين، وبعد أن يشبعوا، أن يرتحلوا لستة أو سبعة أيام دون طعام أو شراب، ودون أي احتياط آخر سوى شد بطونهم تدريجياً بواسطة نطاق أو حزام؛ وهو أمر يبدو غير معقول، ما لم نأخذ في الاعتبار الكثير الذي يمكن للعادات المكتسبة منذ الطفولة أن تحققه.

الشيخ سليمان يعيش هنا في قرية شيدوها بمواد من معبد الشمس ضمن دائرة من حوالي مئة أسرة بدوية.

وبما تبقى من ذلك المعبد لا أظن أنه بالإمكان إعادة بناء دقيقة لشكله الأصلي، بالطريقة نفسها التي فعل بها الفرنسيون ذلك منذ وقت قريب بمعبد بعلبك. ومع ذلك، فإن تفحصاً دقيقاً يكشف أنه كان هناك هيكل، هو اليوم مسجد[1]، مؤلف من مسطح مستطيل، مسوّر بصفي أعمدة كورنثيّة، تشكل رواقاً محيطاً.

طول جانبه مئتان وستون متراً وارتفاعه ثلاثون متراً، ومن أجل الدخول يوجد اليوم بويب حديدي بدلاً من مدخلين متقابلين فخمين لا يكادان يعرفان اليوم. جزء من المداميك هي بناء قديم، ومداميك أخرى مكونة من قطع غير متجانسة ومتصدعة، أعيد وضعها بعد سقوطها دون أي انسجام. وتظهر على وجوهها الخارجية نوافذ من النمط الإغريقي الروماني، وقد سُدت فجواتها وفُصل بينها بأعمدة كورنثيّة، يستند إليها إفريز مازال يحتفظ بشكله الأصلي، لكنه مغطى جداً بالطحلب؛ وتظهر في داخلة محاريب، وأجران، ودعائم حجرية مربعة. ولابد أن هذا المكان المسوّر قد استخدم كحصن في

---

[1] ظل المكان مسجداً حتى العام 1930.

واحدة من الرزايا الكثيرة التي مرت بها تدمر، إذ تكتشف على سطح الأرض، بين أنقاض عالية، بقايا المنحدر التحصيني، والخندق، والمنحدر التحصيني المقابل.

لم يبق من الأعمدة الكورنثيّة سوى ستة عشر عموداً منتصباً، بعضها مازالت تحتفظ بإفريزها، ويبلغ محيطها 1,6 متر، وارتفاعها 18 متراً.

أما الهيكل، وكان مكرساً، مثل معبد بعلبك، لعبادة الشمس تحت اسم بل، فيبلغ طوله أربعين متراً، وعرضه خمسة عشر متراً. جدرانه مكونة من أحجار منحوتة يصل حجم كل واحد منها إلى متر مكعب ونصف المتر، وتتلخص زينته بدعائم مربعة. وكان رواق الأعمدة من النظام نفسه، وتعطي فكرة عن غناه أعمدة مخدّدة محيطها 1,4 متر وارتفاعها خمسة عشر متراً، مازالت موجودة مع تيجانها البرونزية. المدخل يقع في الجهة الجنوبية، ويمثل عملاً باهراً يزخر بوفرة من الزخارف الناتئة والزينات، لاسيما عناقيد عنب وأزهار وأكاليل وغيرها. وارتفاع فتحته خمسة أمتار وعرضها متران؛ وعلى سقف الباب هناك نقش نافر للنسر المكرس لجوبيتر، فارداً جناحيه، ورمز الصاعقة بين مخالبه. وفي الجهة الشمالية توجد حجرة صغيرة، على شكل صومعة، نُقشت على سقفها رموز زودياك، مماثلة تماماً لتلك التي رأيناها في مصر. أما داخل المسجد، المطلي عدة مرات، فلا يكشف قِدم أصله إلا البلاطات الكبيرة التي تغطي أرضه وبعض الأعمدة المنهارة.

وبالالتفاف من جانب إلى آخر بين ذلك الخليط من العظمة والبؤس، متنقلاً من الكوخ البسيط إلى الطنف والأفريز المحمول على أعمدة، رأيت إلى جانب البويب الحديدي، باباً متداعياً، مطابق في الشكل والرسوم لبوابة المعبد، لكنه أقل دقة منه، وفي أعلاه ثلاثة سطور بحروف يونانية وأخرى مثلها بالكتابة التدمرية؛ ومن السطور

الأولى وحدها استطعتُ أن أستدل أن الباب بني في عهد زنوبيا ، أما الحروف الأخرى التي كانت تكتب بها السريانية فلم يتم التوصل بعد إلى معرفتها بصورة دقيقة. وقد أخذ الإنكليز من هنا أكثر من عشرين كتابة تدمرية ، اثنتا عشر منها مرفقة بترجمة يونانية. وتوجد اليوم ثلاث من هذه الكتابات في معبد الشمس، واثنتان في كل واحد من المدافن التي لم تنهار بعد.

إذا ما خرجنا الآن من معبد بل لنسير صوب الغرب باتجاه المحور الأكبر لمخطط المدينة ، سنجد بعد خمس دقائق قوس نصر ارتفاعه حوالي اثني عشر إلى أربعة عشر متراً ، لم يبق قائماً منه سوى دعائمه والقوس، وهو مزخرف جداً من الداخل. وتليه على الفور مجموعة أعمدة مؤلفة ، حسب المؤشرات المتبقية ، من أربعة صفوف كورنثية ، مع فسحة بعرض مترين بين كل عمودين؛ يمتد لمسافة كيلومتر، وينتهي بضريح بديع ، تظهر منه أربعة أعمدة غرانيتية من قطعة واحدة، ضاربة إلى الخضرة ، تشكل المدخل، وجزءان من نسيج جدار مع كواه التي تفصل بينها دعائم دورية (نسبة إلى الدوريين) بارزة في الجدار، لكل منها تاج وإفريز جميل.

وعلى بعد مئتي خطوة من قوس النصر توجد أربعة دعائم كبيرة منفصلة ، يُفترض أنها كانت تسند قنطرة؛ عند تلك النقطة تشكل صفوف الأعمدة انعطافة صغيرة ، وتكوّن زاوية قائمة مع أعمدة أخرى تتجه نحو الجنوب.

من تلك الشوارع المهيبة لم يبق سوى مئة وستة وستين عموداً منتصباً ، بدلاً من حوالي ألف عمود لابد أنها كانت هناك. ويتراوح ارتفاع الأعمدة من اثني عشر إلى خمسة عشر متراً ، ويبدو الارتفاع أقل من ذلك بكثير لأن القاعدة ، وفي بعض الأحيان جزء من الساق، مدفونة

في الرمال المتحركة. وفي بعض الأعمدة يظهر قَطعٌ في السيقان تتخلله قطع بارزة ومنحوتة، مما يشير إلى أنه كانت هناك روابط في ما بينها، مع أنه من غير السهل تحديد ذلك. وتحمل أعمدة أخرى كتابات يونانية مطموسة جداً، وحسب ما يقوله الإنكليزي وود الذي ترجمها قبل قرن، فإنها مكرسة لأن تنقل إلى الخَلَف أسماء عدد من المواطنين الذين استحقوا عن جدارة عضوية مجلس شيوخ المدينة.

وبمواصلة المضي نحو الغرب وتجاوز حدود المدينة، سنجد مجموعة مدافن مشابهة لتلك التي رأيناها عند الوصول إلى تدمر، ولكنها ليست محفوظة في حالة جيدة مثلها. ولتقديم فكرة شاملة عنها، ولأنها جميعها متشابهة، سأصف المدفن الذي أطلق عليه العرب اسم *قصر العروس*، ويقع بالقرب من المدينة للقادم من جهة الجنوب. إنه برج ذو أرضية مربعة، طول ضلعه أربعة أمتار، وارتفاعه يزيد على العشرين متراً، مشيد من أحجار مربعة كبيرة منحوتة جيداً، ومن حجارة بركانية متينة، وهي أحجار لا وجود لها في محيط تدمر. وله مدخل وافر الزخرفة من جهة الشرق، وآخر من الجهة المقابلة، ولكنه تحت مستوى الأرض. إذا ما وقفنا عند المدخل الأول، نجد حجرة الضريح بارتفاع خمسة أمتار، مطلية جيداً بمعجون المرمر والكلس، وفيها كوى إلى اليمين واليسار، مرتبة في أربعة صفوف، أربع كوى في كل صف، تفصل بينها دعائم بارزة كورنثية. وفي الجدار المقابل، وكذلك في السقف، المؤلف من أحجار ضخمة، مزين بنجوم بيضاء على خلفية زرقاء، نرى نحتاً نصفياً بارزاً، بنصف الحجم الطبيعي، للأشخاص المتوفين: الشعر قصير، والوجوه حليقة، والرداء الروماني ملقى على الكتف الأيسر. وكل تمثال منها مع كتابة بالحروف التدمرية.

ومن هذه الحجرة ننتقل إلى اثنتين أكثر ارتفاعاً عبر درج جانبي، ولكن اجتيازه اليوم غير ممكن دون التعرض للخطر، لأن بعض

الدرجات منهارة. الحجرة السفلية مقنطرة، إلا أنه من الصعب الدخول إليها أيضاً، لأن الرمال تسد المدخل بكامله تقريباً. ويُعثر في الكوى عادة على أحزمة أو ضمادات صفراء كانت تُلف بها الجثث، ويُعثر أحياناً في كوى يصعب الوصول إليها على مومياءات كاملة، فمن المعروف أن التدمريين، مثل المصريين، كانوا يعرفون أسرار التحنيط. ومازالت بعض الأبواب والأفاريز والطنف والتماثيل النصفية تحتفظ بطلائه، وكل شيء فيها مشغول بدقة بالغة، بحيث يمكن القول دون مبالغة إن أبرز ما هو متبق من تدمر هو مدافنها.

وهناك مدافن أخرى من الحجر والجير أو من المرمر، ليس من السهل تفحصها جيداً لأنها مغطاة بكثير من الرمال؛ وهي تشبه مدافننا، مشيدة على شكل متوازي سطوح، وقد حفر على أسطحها تمثال أو تماثيل المدفونين فيها. وتوجد بالقرب من الجبل الذي تخرج مياه كبريتية من مغارة عميقة فيه، وتنزل على شكل نهر، وبعد جريانها لساعتين تتخلص من غازاتها وتتحول إلى ماء صالح للشرب. ومن الجدير بالملاحظة أن العرب يملؤونها في قِرب من جلود الماشية، كي لا يتحملوا مشقة الذهاب لإحضارها من بعيد، وتظل صالحة للشرب أربعاً وعشرين ساعة أو أكثر.

وعلى بعد حوالي خمسين خطوة إلى الشرق من تلك المغارة، كلّفت ثلاثة من البدو بالحفر لأرى إن كان الحظ يزودني، كما في بابل، بتذكار ما، ولا بد من كثير من الأمل، لاسيما أنهم اعتادوا العثور على تماثيل صغيرة، وقطع عملة، وميداليات، وقطع طين مشوي، وأحجار كريمة منقوشة، وعقيق، وخواتم، وغيرها. وقد تحققت رغبتي لحسن الحظ. فبعد نصف ساعة من الحفر في الأرض، وجدت إلى جانب لوحة حفر غائر متضررة جداً، تمثالاً صغيراً من النحاس، أسمح لنفسي بأن أقدمه هدية إلى حضرتك مع هذه الرسالة.

نفضتُ عنه الرمل الذي تغلغل فيه خلال ألفي سنة، ولكنني لم أشأ تعريضه لأي مادة يمكن أن تمنحه بريقاً أكبر. طول التمثال اثنا عشر سنتمتراً، ويستقر فوق صفيحة مستطيلة، وهي من النحاس أيضاً، سماكتها اثنا عشر ميليمتراً وعرضها ثلاثون وطولها خمسة وثلاثون ميليمتراً. وهو مطلي بمادة ملونة، حالت حتى الآن دون تشكل طبقة من أكسيد النحاس عليه، اللهم إلا في نقطتين أو ثلاث. وتمثل لقيتي رجلاً يجلس متقاطع الساقين، ولكنه يفتقد نقطة الاستناد التي لم يُعثر عليها. ويمسك بيديه رَقّ كتابة يغطي نصف فخذيه، وقد بدا لي أنني أرى عليه كتابة هيروغليفية، وأظن أنني استطعت أن أميز بينها رسم العصفور، وهو رمز الريح. من خصره حتى منتصف الساق يرتدي قماشاً تحاكي طياته شعاعات مستقيمة أو منحنية. ويظهر حول عنقه عقدٌ حباته بيضوية، والشعر مقصوص على مستوى جلدة الرأس، وملامحه تعكس تركيزاً شديداً. وربما تتفق حضرتك معي في أن هذه القطعة تمثل واحداً من الكهنة المكلفين بالكتابة وتفسير الأسرار الدينية؛ وإذا كان التدمريون يرسمون رموزاً هيروغليفية على الرق الذي في يده، فهذا يعني أنه إشارة إلى شعراء قدماء المصريين الذين تعلموا الديانة منهم.

ويمكن لي أن أتوسع كثيراً أيضاً في الحديث عن الأعمدة التي تزيد عن المئة التي ما تزال منتصبة في محيط تدمر، فضلاً عن تلك التي أشرت إليها سابقاً، بعضها يشكل دائرة، وأخريات تسند سقوفاً توشك أن تنهار؛ وهناك منها أعمدة من عدة قطع، وأخرى من قطعة واحدة، وغيرها معزولة، أو نصف منهارة، ويوجد قوسا نصر مهدمان، ومعبدان صغيران، وبقايا قنوات تنقل الماء من نبع *أبو فوار* الموجود على بعد ساعتين إلى الجنوب الغربي، وربما كان مسرح إحدى مغامرات عنتر الشهير؛ وهناك عمود غرانيت من قطعة واحدة، لا بد أنه استُخدم

كحامل لتمثال أحد المواطنين البارزين؛ وهو موجود في جهة الشمال، إلى جانب أحد آبار المدينة، ويبلغ محيطه 1,04 متراً، وارتفاعه 14,15 متراً. فإذا نظرنا إلى الأرض لا نستطيع حساب ما لا حصر له من الأحجار التي نراها، من أعمدة أو دعائم من كل الأحجام، على بعضها كتابات باللاتينية، تشير إلى إمبراطورية ديوقلسيانو، ومكسيميانو وغيرهما؛ وقطع مسلات، وأفاريز، وقواعد أعمدة، ألخ.... وإذا ما أزيحت الرمال التي تغزو ميادين الذكريات هذه، وتغطيها بالكامل، وقلّبنا هذه البقايا المتراكمة، فربما سنجد أكثر بكثير مما هو ظاهر للعيان، وهو ليس قليلاً، مما يبين مصير تدمر الحزين، ولاسيما الزلازل الكثيرة التي تعرضت لها سورية، ودمرت أشهر المدن التي سجل ذكرها التاريخ: مثل بعلبك، وبيريتو، وصور، وعسقلان، وأريحا؛ جميعها دُمرت باستثناء القدس، *لأن الرب موجود هناك والأرض ثابتة لا تتزعزع*. ولكن، على الرغم من أنه سيكون طويلاً ومملاً الدخول في تفاصيل دقيقة، فإنني سأكتفي بأن أنقل إليك فكرة تقريبية وعامة عن المظهر الذي تبدو فيه اليوم عاصمة المملكة التدمرية القديمة. إذا ما راعينا القواعد المعمارية، وحتى تلك التي يمكن اعتبارها ملحقة بالعبادة، فإننا نلاحظ أن طول معبد الشمس لا يساوي ضعف عرضه، كما أن المحور الرئيسي لا يمتد، كما هو متبع، من الشرق إلى الغرب، مما يجعل مذبح القرابين في موضع غير موضعه المعهود. وارتفاع الأعمدة لا يساوي عشرة أضعاف محيطها، والفرجة الفاصلة بين عمودين المقدرة بسبعة أمثال في نظام الأعمدة الكورنثية، تتنوع من أربعة إلى خمسة أمثال؛ وجميع القواعد الأسطوانية للأعمدة غير متماثلة ورسوم الدعائم والقواعد قليلة وبائسة جداً إذا ما قورنت بتلك التي في بعلبك، ويمكن أن تكشف أنها تعود

إلى عصر بيركلس. وصحيح أن الحجر الذي استخدمه التدمريون، ما عدا بعض الاستثناءات، هو حجر كلسي، ضارب إلى الصفرة الفاتحة، وقليل المقاومة، كانوا يحصلون عليه من جبال الأصاخر، التي تبعد مسير ساعتين عن المدينة، مما أتاح للزمن أن يمارس تأثيره المدمر. وصحيح كذلك أن أطلال تدمر تعود إلى عصر انحدار الفن، في القرنين الأولين من تقويمنا وحتى القرن الثالث كذلك، ذلك أن كل الأخبار التي سجلتها تتفق على أن هذه المدينة بلغت أوج ازدهارها في زمن زنوبيا الملحمية؛ وليس من المستغرب بالتالي أن ما تستثيره من اهتمام لا يوازي المفاجأة التي تسببها لنا.

أما بالنسبة إلى التاريخ، فتاريخ هذه المدينة، كما تعلم حضرتك، لم يعرف منه إلا القليل، أو لا شيء على الإطلاق، اللهم إلا معلومات عن أيامها الأخيرة، وهذا أمر مؤسف جداً، لأن شعباً أخذ من المصريين ديانتهم، ومن الفرس عاداتهم، ومن الإغريق مؤسساتهم وفنونهم، وتواصل باستمرار معهم جميعاً، لا بد أن يكون شعباً عظيماً. وحول كون مؤسسها هو سليمان، مثلما وجدت ذلك مكتوباً في كل الأنحاء بالاستناد إلى الكتاب المقدس، فإنني أسمح لنفسي بأن أتذكر أن تدمر *Tadmor* أو تهمور *Tahmur* تعني بالعبرية وغيرها من اللغات السامية: ***المكان الذي يكثر فيه النخيل***، وهي شجرة تتمتع بامتياز النمو في أشد الصحارى قحولة؛ وأواصل أن تدمر الكتابات المقدسة ليست بالضرورة هي تدمر الرومان، وإنما اسم يمكن أن يكون قد أُطلق على أماكن كثيرة قديمة المنشأ: فأريحا على سبيل المثال، سُميت ***مدينة النخيل***.

مما لا شك فيه أنه كانت لدى حضرتك عن آثار تدمر فكرة مختلفة عن هذه التي توصلتُ إليها للتو، لأن اسمها تحول في إسبانيا،

وحتى في بلدان أخرى، إلى مرادف للأعجوبة، وأن من يراها جدير بأن يُحسد، وكل ذلك بفضل الفرنسيين الذين هم أكثر من يهيمن على التحكم بأفكارنا. ومع ذلك، فإن الآثار متوسطة القيمة، وسيئة الحفظ، ولا أعرف أحداً جاء إلى هنا مرة، وعاد مرة أخرى، وأبدى سعادة بالقول إنه قد رجع. وليس الكتّاب وحدهم هم من تواطؤوا في المبالغة بالمدينة؛ بل بعض الفنانين أيضاً رسموا لوحات متميزة جداً لتدمر، ولو أنها ولو أنها تحولت إلى حقائق لكانت خسفت الأصل.

وهناك مع ذلك سبب سيظل يروج ويغذي الرغبة المتأججة في زيارة عاصمة زنوبيا القديمة، ومنحها أكثر مما تستحق. وأعني النبرة الشعرية التي تطغى على رواية هذا النوع من الرحلات على الدوام، لاسيما لدى أولئك الذين يطؤون ارض الشرق أول مرة.

ولكن إذا كان يمكن للزيادة أو النقص في استغلال موارد المخيلة عند الكتابة أن يكون موضع انتقاد ولوم، فمن المؤكد أنك لن تفعل ذلك بشأن مشاعر التقدير الحميم التي دفعتني إلى توجيه هذه الرسالة إليك، كذكرى صداقة تشرفني، ودليل على امتناني المخلص.

من خادمك المؤكد والوفي على الدوام،

أدولفو ريفادينيرا

نهاية الرحلة من سيلان إلى دمشق

De Valparaíso a Ceilán y Damasco

Por Pablo Martín Asuero
Director del Instituto Cervantes de Damasco

Es para mí un honor y una gran satisfacción realizar la introducción de la obra de Adolfo de Rivadenyra, *De Ceilán a Damasco,* a cargo de Saleh Almani, un traductor especialista en literatura hispanoamericana y gran amigo del Instituto Cervantes de Damasco. Se trata de la primera vez que este importante testimonio se traduce. Además, se trata del árabe, una de las lenguas que el propio Rivadenyra conocía y amaba, como se puede apreciar en el informe que remitió a la Reina Isabel II o en el método de aprendizaje del árabe que envió al Ministerio de Asuntos Exteriores para que la pudieran estudiar sus compañeros de la carrera diplomática[1].

El 23 de diciembre de 1863, un joven de veintidós años es destinado al Consulado de España en Beirut, ciudad a la que llegará dos meses más tarde. Para entender la presencia de este diplomático español en Oriente hay que tener en cuenta la política externa española en el siglo XIX, un siglo especialmente nefasto para nosotros ya que se inicia con la invasión de las tropas de Napoleón en 1808, un momento de debilidad que es aprovechado por las colonias americanas para emanciparse de la metrópoli. España pierde su imperio en ultramar y además tiene que hacer frente a una guerra civil entre liberales y conservadores en 1833 por la sucesión de Fernando VII, ganando los partidarios de su hija, Isabel II, lo cual supone el triunfo del liberalismo en 1839. Así, amparada por la Europa Liberal intenta lograr el rango de potencia, participando en la Guerra de Crimea, 1853-55, como observadores en la coalición de apoyo a los otomanos, o junto con los franceses en la expedición a la Cochinchina en 1858, que se saldó con la toma de Saigón y el control galo de Indochina diez años más tarde. Si bien la expedición tuvo éxito gracias a las

[1] Archivo del Ministerio de Asuntos Extranjeros Legajo P 213, Exp 11878.

tropas curtidas en Filipinas, España no consiguió ampliar sus territorios. Sin embargo, la moral de los políticos y militares estaba bastante alta y un año más tarde conquistan Tánger y Tetuán en Marruecos, logrando de esta manera entrar en la carrera colonialista en África, un continente que se disputaban Francia, Gran Bretaña, Holanda, Bélgica, Portugal e Italia.

Volviendo al imperio Otomano, los sucesos del verano de 1860, en el cual se produce una revuelta entre cristianos y drusos en la montaña libanesa, extendiéndose por el valle de la Beqaa, llegando a Damasco produce una de las primera intervenciones europeas, al enviar Napoleón III su flota para pacificar la región, ante la pasividad de las autoridades otomanas. La opinión pública internacional prestó una gran atención a las revueltas al producirse ataques a representaciones europeas e instituciones religiosas. Uno de ellas fue el convento español franciscano de Damasco, cuyos ocupantes, siete españoles, tres libaneses y un austriaco, fueron asesinados. La prensa española siguió en conflicto, publicando también varias cartas de Adbel Kader el Argelino, convertido en héroe y protector de los cristianos de Damasco. A España le fue asignada una indemnización de algo más de dos millones de piastras, con lo que reconstruyó el convento, los cuales fueron cobrados a través de Consulado en Beirut. Es en este momento cuando desde Madrid se decide abrir un viceconsulado en Damasco, ampliándose así la red de representaciones españolas que contaba con una Legación ante Sublime Puerta y con presencia en Beirut, Jerusalén, El Cairo y Esmirna.

Este es el contexto histórico de Adolfo de Rivadenyra, en el marco de la Cuestión de Oriente, donde la Europa liberal retirará su apoyo a los turcos, dejando que con la ayuda de Rusia se independicen los Balcanes en 1878, Chipre pase a estar bajo control británico, pierdan las colonias del norte de África a finales del siglo XIX y las provincias árabes tras la Primera Guerra Mundial.

El segundo destino de este diplomático fue Ceilán, una isla

que tenía una cierta importancia para los intereses españoles, al ser un punto neurálgico entre las comunicaciones entre Europa, el extremo Oriente y Oceanía, especialmente tras la inauguración del canal de Suez en noviembre de 1869. Colombo era una de las primeras escalas que hacían los vapores que pasaban del mar Rojo al mar Arábigo. Desde allí se podía ir a las posesiones inglesas de la India, a Batavia, la capital de las indias holandesas en Indonesia; continuar el viaje a Indochina, Hong Kong, los puertos francos de China o adentrase en el océano Pacífico con dirección a Filipinas, Japón, Australia o América. No hay que olvidar que España mantenía importantes territorios en el Asia Pacífico hasta finales del siglo XIX, no solo las Filipinas, conquistadas en la segunda mitad del siglo XVI, sino también otros archipiélagos como las Carolinas, las Marianas o las Palau.

Adolfo de Rivadenyera había nacido en Valparaíso en 1841. Su padre, uno de los editores más importantes del siglo XIX autor de la *Bibliografía de autores españoles*, que su hijo terminará, se había desplazado a Chile para llevar a cabo una aventura editorial en el sector de la prensa, participando en la fundación del diario *El Mercurio*. De hecho, fue en Chile donde conoció a su esposa, Nieves Sánchez, y nació su primer hijo. Siete años más tarde la familia regresó a España. Adolfo estudió en Alemania, Francia, Bélgica e Inglaterra, dominado cinco lenguas vivas así como el latín. Más tarde aprendería árabe y persa. Su carrera diplomática empieza en 1863 como Joven de Lenguas con destino el Mediterráneo oriental, ocupando destinos en Beirut 1864-1867, Jerusalén, Ceilán en 1868 Damasco 1869-1870, Persia 1874-75 y Mogador en 1878 donde estará poco menos de un año, regresando a Madrid donde falleció en febrero de 1882, a la edad de cuarenta años.

Como muchos otros compaginó la representación de los intereses nacionales con la escritura de libros de literatura de viajes. Este autor nos ha legado dos obras: *Viaje de Ceilán a Damasco* y *Viaje al interior de Persia*. La primera vio la luz en

Madrid en 1871 y ha sido reeditada en tres ocasiones. La primera en Santiago de Chile 1949, a cargo de Ramón de la Serna para los subscriptores de la editorial Cruz del Sur en dos volúmenes con el título *El Correo de Bagdad. Del Irak a Siria por la ruta clásica de los Mercaderes*. La segunda edición data de 1988 en la editorial Laertes de Barcelona con una introducción de Lily Litvak y en el año 2006 en Madrid en Miraguano, a cargo de Fernando Escribano Martín.

Adolfo de Rivadeneyra tiene un estilo claro y sencillo, el cual se aleja de los viajeros románticos como Chateaubriand, lord Byron, Lamartine, Nerval o Gautier, que habían hecho del Mediterráneo oriental un espacio fantástico, producto más de sus ensoñaciones que de la realidad. Es por ello que Rivadeneyra deja clara cual es su intención a la hora de escribir sus memorias: "Somos tan pocos los españoles que salimos de Europa, que cuanto sabemos de lejanas tierras tenemos que leerlo en libros escritos por extranjeros, y casi siempre por franceses, cuyas obras, por cierto, no brillan por exactas, y retratan demasiado el carácter impresionable de sus autores."

Hay que tener en cuenta que cuando Rivadenyra escribe sus libros el romanticismo daba sus últimos coletazos y acababa por cansar a los lectores por su búsqueda de escenarios exóticos, de la belleza o de la libertad; naturalezas inhóspitas, meditaciones en las ruinas, aventuras o romances imposibles. La literatura realista se había ido haciendo un hueco con autores como Tolstoy en Rusia, Dickens en Inglaterra, Zola en Francia o Galdós en España. Era necesaria una nueva visión que se ajustara a la realidad, en la cual el autor dejara a un lado su sensibilidad y su subjetividad para trasmitir lo que percibía. Eso es lo que hizo Adolfo de Rivadenyera.

الفهرس